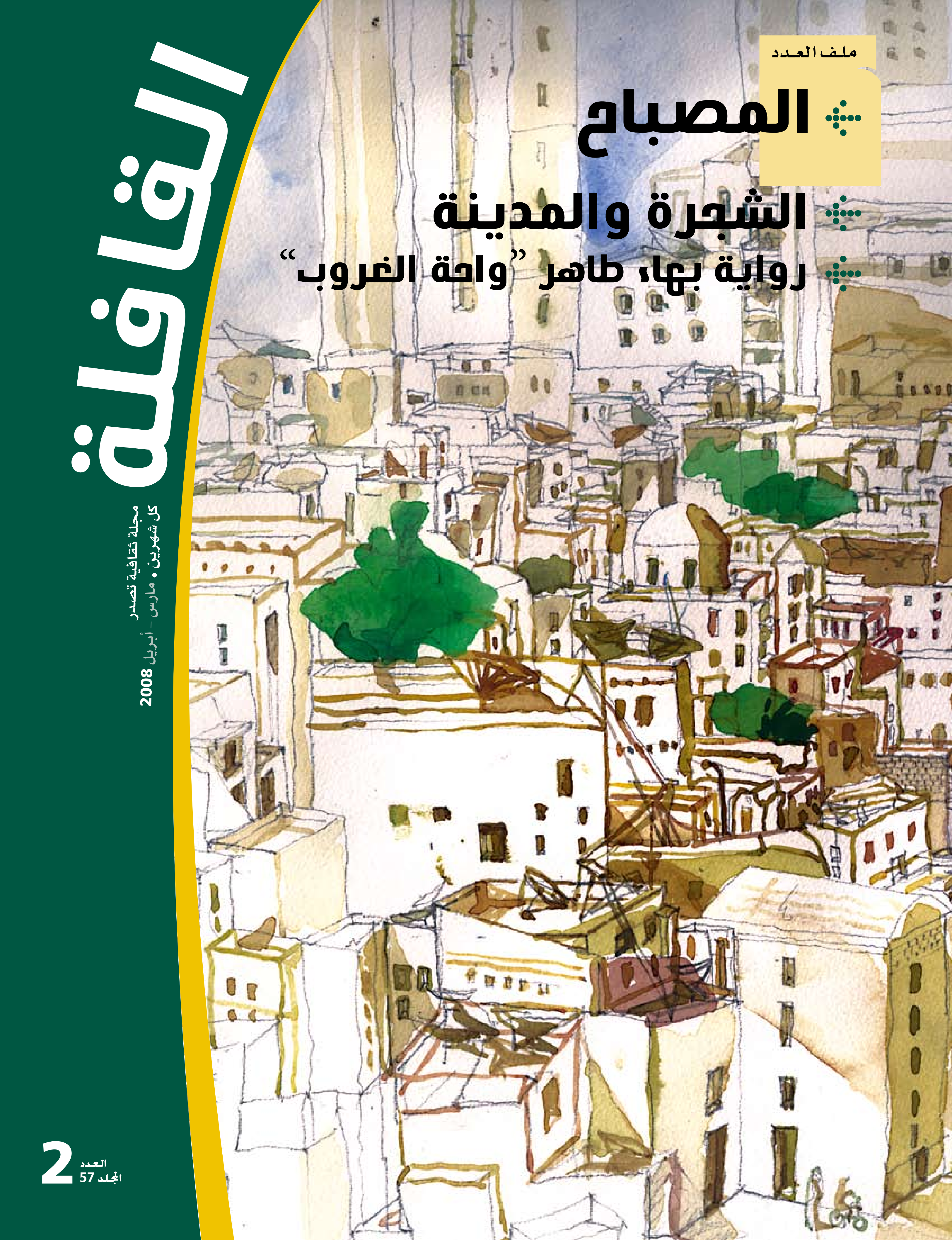


القافلة

مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • مارس - أبريل 2008

ملف العدد

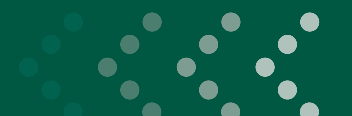
المصباح

الشجرة والمدينة

رواية بهاء طاهر "واحة الغروب"

العدد 2
المجلد 57

قافلة الأبحاث



تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. هدف هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتَّابها.

صورة الغلاف

صورة الغلاف لوحة للفنان عمر صبير رسمها خصيصاً لموضوع باب القضايا الذي يتناول دور الشجرة في المدينة المعاصرة لمناسبة يوم المدينة العربية وأسبوع الشجرة.

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
زياد محمد الشيحة

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

مدير التحرير
محمد أبو المكارم

سكرتير التحرير
عبود عطية

سكرتير تحرير مساعد
د. فكتور سحاب

قافلة الأبحاث ومكتب جدة
فاطمة الجفري

مكتب بيروت
رولان قطان

مكتب القاهرة
ليلى أمل

الإنتاج والموقع الإلكتروني
طوني بيروتي

المخرج المنفذ
حسام نصر

الصور الفوتوغرافية
أنور الخليفة

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع التريكي

ردمد ISSN 1319-0547

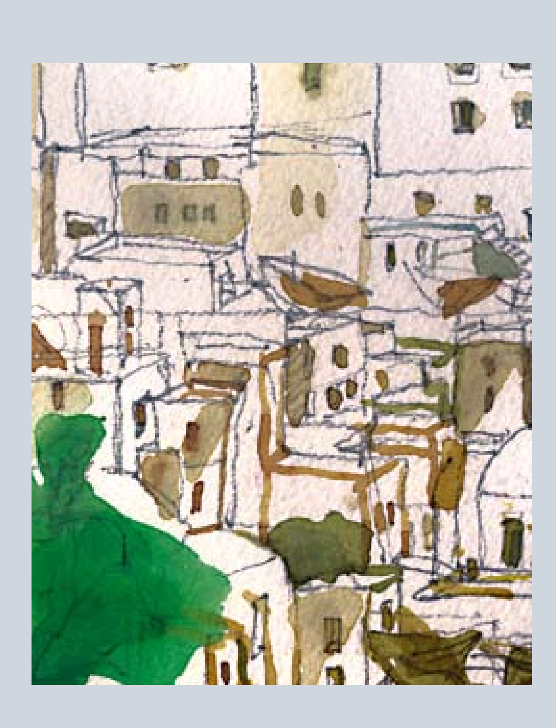
محطات العدد

مارس - أبريل 2008
ربيع الأول - ربيع الآخر 1429

توزع مجاناً للمشتركين
- **العنوان:** أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa

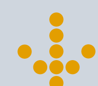
- **الهواتف:** رئيس التحرير 7321 874 3 966+
فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر



1 قضايا

مواكبة ليوم المدينة العربية وأسبوع الشجرة اللذين يقعان في شهر مارس، تثير «القافلة» في هذا العدد قضية حضور الشجرة في المدينة الحديثة، هذا الحضور الذي بات يستقطب من الاهتمام ما يتجاوز كثيراً الاعتراف بدور الشجرة في تنقية الهواء ومدّ محيطها بالأكسجين، ليطال جوانب علمية متعددة، تبدأ بالمسائل البيئية البالغة التعقّد وتنتهي بعلم النفس. حتى أن تشجير المدن بات علماً قائماً بذاته.



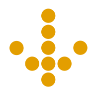
ويستكمل «قول في مقال» القضية التي كانت «القافلة» قد طرحتها في العددين السابقين حول علاقتنا نحن القراء بالشعر، وما طرأ عليها في السنوات الأخيرة، من خلال إسهام جديد، يذهب في اتجاه معاكس أو مختلف عن كثير مما ورد في العدد السابق من القافلة.



2 طاقة واقتصاد

وفي مناخ الطاقة والاقتصاد موضوع رئيس واحد عن «الثقة بصناعة منتجات الغذاء السعودية». ويتناول البحث الذي تنشره «القافلة» هنا، المسار الذي سلكه نمو هذه الصناعة خلال النصف الثاني من القرن العشرين، والضوابط القانونية والخُلُقية، التي حملت المنتجات الغذائية السعودية إلى الأسواق الخارجية وجعلتها منافساً عالمياً، بعدما استحوذت على ثقة المستهلك المحلي، وأوفت بأقسى شروط الجودة.





3 علوم وبيئة

أما مناخ العلوم والبيئة فيتضمَّن بحثين أولهما عن «كيس البلاستيك» وما إذا كان النظر إليه على أنه «بعبع» البيئة منصفاً حقاً أم ان التبعات بتشويه البيئة تقع على المستهلك. أما الموضوع العلمي فيتطرق إلى حالة يمكن وصفها «بالمريضة»، قلما سمعنا بها من قبل، وهي «عمى الوجوه»، أي فقدان البعض قدرتهم على تمييز وجوه الناس بعضها من البعض، حتى في المحيط الأقرب إليهم.





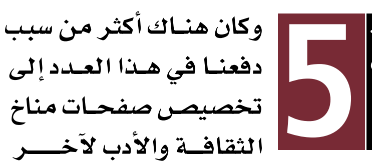
الفاصل المصور

ويستضيف الفاصل المصوَّر عدداً من اللقطات المختارة بعدسة المصوِّر السعودي الشاب ماجد المالكي من أسرة المحترف السعودي، عاد بها من رحلة سياحية إلى نجران، حيث تحالفت موهبته الفتية مع اللوحات الرائعة التي قدَّمها فرسان المدينة وهم يستعرضون مهارتهم، في حصوله على هذه اللقطات المميزة شكلاً ومضموناً.

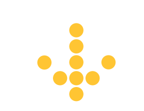




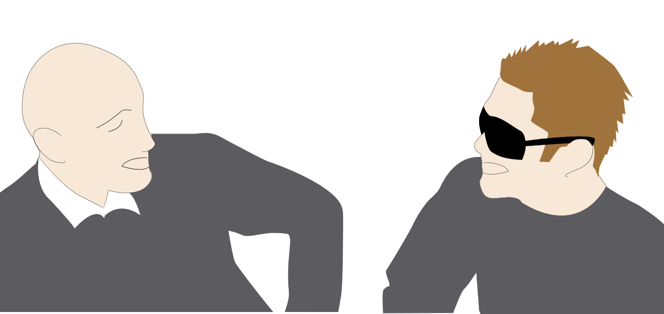
5 الثقافة والأدب



وكان هناك أكثر من سبب دفعنا في هذا العدد إلى تخصيص صفحات مناخ الثقافة والأدب لآخر أعمال الروائي المصري المعروف بهاء طاهر. ومن هذه الأسباب نذكر أن الأستاذ طاهر هو مؤلف الروايتين «قالت لي ضحى» و«خالتي صفية والدير» اللتين صنفهما القراء العرب وقت ظهورهما بأنهما من أفضل ما كُتب في الرواية العربية المعاصرة.
وإضافة إلى ذلك، فإن «واحة الغروب» هي من الروايات القليلة جداً، التي تدور حول الحياة في الصحراء المصرية. هذه الصحراء التي أهملها الأدباء لأسباب غير معروفة. وأخيراً لا بد من أن نذكر فوز هذه الرواية أخيراً بجائزة «بوكر» العالمية. وهذا أمر لا بد من أن يجعل القراء يرغبون في أن يعرفوا عنها أكثر مما تناقلته الصحف اليومية.







4 الحياة اليومية

وبالوصول إلى مناخ الحياة اليومية تثير «القافلة» موضوعاً بات لافتاً للنظر أينما كان في الوطن العربي: اللغة التي يتحدَّث بها الشباب والمراهقون. وقد احتل هذا الموضوع عشر صفحات من هذا العدد، لأننا حاولنا أن نجمع فيها شهادات وآراء من المملكة ومصر ولبنان. كذلك وجب علينا فسح المجال لعرض وجهة نظر الشباب، وعدم اقتصار القضية على توجيه النقد والاتهام من طرف واحد إلى طرف آخر.

6 ملف العدد



ونختتم رحلتنا في هذا العدد مع الضوء، وتحديداً ضوء المصباح. هذه الأداة الصغيرة التي كانت في يد الإنسان منذ ألوف السنين ولا تزال، يواجه بها الظلام، فأطالت أمر الحركة والحياة اليومية، وتغيَّر بها مسار الإنسانية. وأصبح لوجود المصباح حيثما وجد الإنسان، قيمة تكاد تعادل قيمة الماء والهواء.

الرحلة معاً

صُنَّاع الحياة

أبناؤنا وبناتنا فلذات أكبادنا تمشي على الأرض، ونتمنى لهم أن يحظوا بالسلامة الفكرية والنفسية لينعموا، نتيجة لذلك، بمستقبل آمن من كل المزالق والأخطار، غير أن هناك تحفظات على بعض مكتسباتهم المدرسية لا بد من طرحها ومناقشتها.

أحاول جهدي، مثل غيري من الآباء، أن أحدث التوازن في ذهن ابني وابنتي لكيلا يقعوا في مزالق الازدواجية بين فكر البيت وفكر المدرسة، التي يقضون فيها ثمان ساعات يومياً، بينما نحن لا نقضي معهم سوى سويعات ما قبل النوم.

لا أستطيع أن أقول إن ذلك المدرِّس الذي صب في ذهنكم هذه الفكرة على خطأ ولا أستطيع أن أتركه نهباً لأفكار التهييج ضد الآخر، الذي يشاركه الأرض والسماء والرزق والمستقبل.

الصغار أواعٍ جاهزة، غير محصَّنة، يمكن أن تدلق فيها الأفكار: إن كانت حسنة وإن كانت سيئة، ولذلك نادى الحكماء بأن تحصَّن من مرحلة الحضانة بالأفكار الحسنة البناءة لكي تقوى على الصمود أمام الأفكار الهدَّامة التي لن تسلم من التعرض لها. والمشكلة هي فيمن يقرر نوعية التحصين لأذهان صغارنا.



فإذا لم تكن الأمة على كلمة سواء تجاه الآخر على سبيل المثال، فإنه سيكون لك طريقتك وأفكارك في التحصين وسيكون لي طريقتي وأفكاري. وبينما يظن كل منا أنه يمارس التحصين السليم للأذهان الغضة يصل الطفل إلى سن الشباب محملاً بالمتناقضات التي تؤزِّمه نفسياً واجتماعياً، فيصبح أكثر استعداداً للانقضاض على أفكار الآخر ومكتسباته.

ومن ذلك تنشأ هذه الصفوف الطويلة من الشباب الذين يحكمون على الناس والأشياء من حولهم حكماً قاطعاً لا يقبل النقاش ولا يتقبل حوار الآخر وأفكاره. وحين تنشأ الرغبة في تغيير السلوك تكون قد فاتت فرصة التأثير في هذا السلوك بعد أن فاتت السن المناسبة لإحداث هذا التأثير.

في أبسط مثال تعاني مدننا العربية، من المحيط إلى الخليج، من الاعتداء على حق الطريق، فالشاب الذي لم تعلّمه المدرسة المُبكرة هذا الحق يعتدي على الناس جهاراً نهاراً، بل ويقتلهم ويجرحهم ويشل حيواتهم. وهو، في الوقت نفسه، يعتدي على نفسه حين لا يعير سلامته الشخصية انتباهه، ويتمادى في سوء التصرف وارتكاب الأخطاء المميتة له ولغيره. هذا الشاب لو علَّمته الحضانة والابتدائية السلوك الأمثل على الطريق لما أوقع نفسه وغيره في المهالك ولما تجرأ على حق الآخرين.

وقس على هذا المثال البسيط بقية الأمثلة التي تلقي بشبابنا كل يوم في حفر الأفكار الهدَّامة وتدفعهم لارتكاب الأخطاء والخطايا بدم بارد جرَّاء تفويتنا لفرصة تحصينهم، بناءً على معطيات الحياة وليس بناءً على عواطفنا وانطباعاتنا.

الشباب العربي الآن تائه في دروب الحياة، ليس له قدوة يتأساها ولا يملك القدرة على اتخاذ القرار الصحيح. كل ما يملكه حالة من الاضطراب الذهني بين فكر هذا ورأي ذاك، وتكون النتيجة في هذه الحالة خسران مبين لشباب نقول إنهم سيبنون المستقبل، لكن هذا المستقبل لا يوجد سوى في خطبنا الرنَّانة وأمانينا اليائسة التي نوزعها عبر المنابر ووسائل الإعلام.

المستقبل العربي مظلم جرَّاء الضباب الذي يغشى أذهان صغارنا الذين يتقلَّبون بين اجتهادات فردية وواقع حياتي لا بد أن يفهموه ويتعاملوا معه. والخطورة تنشأ وتكبر كل ما أوغلنا في التمايز عن الآخر الذي يفترض أن نشاركه صناعة الحياة. والحياة لا يصنعها من في قلبه ذرة من موقف تجاه الآخر. صُنَّاع الحياة هم الذين يقدِّرون الحياة ويتجاوزون أخطاء الماضي ويعيدون قراءة حاضرهم من أجل مستقبلهم.

أما هذه القراءة، أي قراءة الحاضر، فإن من أهم شروطها أن نضع على طاولة الحوار كل ما تعارفنا ونشأنا عليه، لننظر بتجرد إلى ما يضمن مستقبلاً معافى لأطفالنا، وإلا فإننا سنظل نجتر أفكارنا ومآسينا وأمانينا بينما أبناؤنا يضرسون ويلعنون.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

توقيع الكتب

لا أدري ما العلاقة بين (معرض الكتاب) ومصطلح «توقيع كتاب»!! لقد زرت معارض دولية كثيرة احتضنتها المملكة في ثلاثة عقود خلت. ولم أعرف شيئاً اسمه توقيع كتاب إلا في الأعوام الثلاثة الأخيرة.
والغريب في الأمر أن الكتاب الذي يوقِّعه المؤلف يكون سعره مضاعفاً ثلاث مرات على الأقل!!
ولا يهمني لمصلحة من تكون مضاعفة السعر، ولا السبب الذي يدفع العشرات أو المئات من روَّاد المعرض إلى الالتفاف حول المؤلف الذي يوقِّع كتابه!!
فإذا كان الكتاب أو الديوان قيّماً، فسيكون محل اهتمام القرّاء وإعجابهم رجالاً ونساءً.. أما إذا كان ضعيفاً أو رديئاً فلن ينالَ اهتماماً أو إعجاباً حتى لو قُدّم هدية من المؤلف ومعه جنيه من ذهب!!!
وليس فقط أن يوقِّعه المؤلف مهما كان لقب المؤلف وشهادته.. هذا ما قرأناه في التاريخ وعشناه في أروقة الجامعات والأندية الأدبية والمحافل العلمية.
والتقليد داء عضال، والتعلق بالأوهام ضياع للوقت والمال، والبحث عن النفيس من الكتب ودواوين الشعر محط أنظار الأجيال... أما الإثارة ومذهب «خالف تعرف» فهما علامتا ضعف وأماراتا نقص ودلالتان على فراغ واسع عميق!!
إنني أعرف من وصلت مؤلفاته إلى الخمسين ومن وصلت إلى المائة، وهما غنيان عن التوقيع وبريئان من التلميع. ولكتب كل منهما رواج وانتشار يحسدان عليه. ومما عاق انتشار هذه الكتب أن المؤلف لا يوقِّع كتبه، وصاحب الكتب المائة كَتَبَ، وفقه الله، في التاريخ والاجتماع والجغرافيا واللغة ومجالات أخرى، وحينما تقرأ أحد كتبه يخطر ببالك أنه متخصص في ذلك العلم ولا يجيد غيره، ولقد مَنَّ الله عليه بفكر موسوعي وعمق في الفكر والطرح.
أما بعض المتعلقين بالتوقيع فأحسب أنهم يبحثون عن شهرة ولمعان ويحسبون أن توقيعهم هو الطريق الأمثل إلى أبراج الشهرة وآفاق اللمعان وتسابق دور النشر إلى شراء مؤلفاتهم النفيسة!! وكل عام وكل معرض كتاب وهم بخير!!

عبد العزيز صالح العسكر
عضو الجمعية العلمية السعودية للغة العربية

لا تختلف مع أخيك

بعد الدعاء إلى الله أن يوفقكم في عملكم ويمدكم بعونه للسير قدماً بهذه المجلة الغالية التي أصبحت مفخرة لنا جميعاً، أفيدكم بأنني من القرّاء المشتركين في القافلة منذ عشرين سنة، وإنني حريص على قراءة كل ما ينشر فيها. ولكن ما حصل لي هو أنني سافرت إلى تونس لبعض الوقت. ولما عدت إلى المغرب، وجدت أن أحد اخوتي أبدل اسمي باسمه في اشتراك القافلة، رغم أننا نسكن في منزل واحد. ولهذا أرجو منكم يا أخي العزيز، تغيير الاسم الأول للمرسل إليه من رشيد إلى المصطفى، وإبقاء العنوان نفسه.

المصطفى الأشهم
بوحنيفة، المغرب

القافلة: لا داعِ لأن تختلف مع أخيك حول أي شيء. ولا لأنْ نستبدل اسماً باسم. سيصل لكل منكم نسخته الخاصة، إن شاء الله.

سنوات مع القافلة

لقد استمتعت على مر سنوات طويلة بالنهل من معين الأدب، والاستضاءة بنور العلم اللذين ينشران في مجلتكم العريقة، قافلة الثقافة والعلم، مجلة «القافلة».
وكانت المجلة تصلني عندما كنت عميداً لكلية المعلمين بالجوف. ونظراً لما لمجلتكم من سجل حافل، وتاريخ مشرِّف في نشر الثقافة والعلوم والآداب في وطننا السعودي العزيز خاصة، وفي وطننا العربي الكبير بشكل عام، فإنني أطمع إلى أن تضيفوني إلى قائمة المشتركين الدائمين في المجلة، لتصلني أعدادها على عنواني البريدي الخاص.

حمود بن مشعل السهيان
سكاكا – الجوف

القافلة: سيُعتمد عنوانك الجديد، وشكراً على موقفك من المجلة.

اعتزاز مكتبة

عرّفني أحد الأصدقاء منذ أيام على مجلة «القافلة»، وأعارني منها بضعة أعداد من العام الفائت 2007م لتصفُّحها.. وقد أعجبت أيما إعجاب بما قرأت ونظرت. فإنه لمن دواعي الاعتزاز والسرور أن نجد باللغة العربية نشرة بهذا المستوى من الرصانة والأناقة والفائدة.

وهأنا أسارع إلى مكاتبتكم راجياً أن تضموا مكتبتنا إلى قائمة المشتركين في مجلتكم. متطلعاً منذ الآن إلى الفائدة الجمة التي ستتيحها أعدادها لروَّاد صالة المطالعة، والشبان منهم على الخصوص، الذين كثيراً ما نحتار فيما يمكننا أن ننصحهم به من مصادر للمعرفة، موثوقة وشائقة في الوقت نفسه.

الأب بيير مصري

مدير المكتبة الرومية في حلب

القافلة: يسرنا أن تلقى القافلة هذا التقدير من مكتبتكم. وستصلكم أعدادها الجديدة تباعاً -إن شاء الله- أما الأعداد القديمة فغالبها لم يعد متوافراً.

الحنين إلى القافلة

يطيب لي بعد التحية التواصل معكم في مجلتكم الزاهرة من جديد بعد انقطاع طويل نظراً للظروف المؤسفة، فقد كنت أحد المشتركين القدامى بها في العراق أيام زمان، وحينما رأيت أخيراً عدداً حديثاً منها صادراً في نوفمبر - ديسمبر 2007م، وهو يرفل بما عهدته فيها سابقاً من إخراج جميل بحلة قشيبة وموضوعات تتسم بالجدة والتنوع والحداثة والموضوعية بزخم فني رائع، تذكرت صحبتي الحميمة لها في تلك الأيام الخوالي من إصداراتها الأولى التي ما زلتُ أحتفظ بأعدادها العزيزة في مكتبتي في بلدي (مدينة الموصل) في العراق، فدفعني الحنين إلى طلب تجديد اشتراكي فيها على عنواني المدون أدناه إذا لم يكن لديكم مانع، شاكراً أفضالكم.

يوسف ذنون

الدوحة - قطر

القافلة: أحلنا عنوانك على قسم الاشتراكات، وأهلاً بك من جديد.

التشويق والإيجاز

من دواعي سروري أن أبعث إليكم بخالص تحياتي وتقديري وإعجابي بمجلتكم الرفيعة المستوى إخراجاً ومحتوى، مما جعلها بحق مميَّزة عن غيرها من المجلات الثقافية الشاملة على امتداد الوطن العربي. فهي تجاري العصر في نقل الكلمة الصادقة والمكثفة الموجزة بقالب يموج بالجاذبية والإثارة وشد انتباه القارئ. بعيداً عن الركاكة المملة والرتابة القاتلة. فهي تستمد من روح العصر التشويق والإيجاز، وإلى الأمام دوماً. في مقطف ثمار التقدم والتطور.

محمد أحمد سعيد أبو زبيد

إربد - الأردن

القافلة: شكراً على عاطفتك، وستصلك الأعداد الجديدة على عنوانك الجديد.

المشتركون الجدد

طارق الدوسري، الدمام - أحمد عبد رب النبي، الأحساء - ب.م. نوفر، سري لنكا - فراس ابن فايز الوقيد، سكاكا - أشرف محمد همام محمد، دمنهور، مصر - مساعد محمد، الجزائر - علي أحمد محمد البن سعد، الأحساء - مسفر بن سعيد الأحمدي، الدمام - سفيان عباس، الجزائر - محمد يوسف الأحمد الخليف، الجوف - خليل إبراهيم العبد العالي، الهفوف - حليس مصطفى، الجزائر - محمد زيد فرحاتي، الجزائر - الحافل محمد عظيم، سري لنكا - أحمد محمد زيد العبد المحسن، القصيم.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديل، ونرحِّب بكم أصدقاء لـ «القافلة» التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

ردود خاصة

- خالد بن هزيل الدبوس الشراري، الجوف: بريد المجلة الإلكتروني هو: alqafilah@aramco.com.sa، وليس العنوان الذي أرسلت إليه رسالتك الضائعة.
- ليث رافع سليم آل جعفر، بغداد: ليس في نية القافلة أن تفتح مكاتب جديدة لها في العواصم العربية. فتعاون الكتّاب والأصدقاء من خلال المراسلة يكفي في الوقت الحاضر.
- خالد نبيان الرهيلي، المدينة المنورة: إن جمع الأعداد القديمة من القافلة في مجلدات بات مستحيلاً، لأن بعض هذه الأعداد ما عاد متوافراً بالكميات التي تسمح بذلك.
- محمد بن يوسف الخسران، الجوف: يمكنك أن تجد قصة اكتشاف البترول في المملكة في أكثر من مصدر. وما قرأته حول الموضوع في جريدة الرياض كان جيداً.
- نوال هادي محمد، أربيل العراق: وصلت رسالتك بنسختيها الإلكترونية والورقية، ونرحب بإسهامك إذا كان ضمن مناخ المجلة.
- عبد الله محمد الغامدي، أبها: لم يحصل أي إلغاء لاشتراكك في القافلة ونرجو أن يكون عدد يناير/ فبراير قد وصلك — أمهل البريد قليلاً..
- فوزية غضبان، الجزائر: أبواب القافلة مفتوحة لكل إسهام. ولكن رسالتك تشير إلى أن عليك بذل بعض الجهد في مجال الكتابة، ومن جد وجد.
- توفيق عثمان محمد، الإسكندرية، مصر: يمكنك تبادل مقترحاتك مع فريق «القافلة» من خلال البريد الإلكتروني المذكور على باطن الغلاف، آملين أن تبقى هذه الموضوعات ضمن مناخ القافلة وأبوابها، والمساحة المخصصة لكل منها.

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.



عن ملف الفزّاعة..

لِمَ اختارت «القافلة» أن يكون ملفها في العدد الماضي عن الفزّاعة؟ لِمَ لَمْ تختر الفأس أو المحراث أو الساقية أو أياً من أدوات المزارع التي لا غنى له عنها؟

الجواب سهل. لكل أداة من هذه الأدوات وظيفتها، وجمالها، وتفاصيلها الصغيرة الذكية، إلا أن أحداً منها لا يلفه غموض كالغموض الذي تلتف به الفزّاعة في وقفتها الفارعة وسط الحقول الواسعة. حزينةٌ كانت أم ضاحكة، وحيدةٌ كانت أم منغمسة في صراعها مع الطيور، ملونة وجميلة أم شاحبة ومخيفة. للفزّاعة جاذبيتها التي ترافقها منذ الدقائق الأولى للشروق وحتى ساعات الليل الموحشة. وعندما تختار «القافلة» الفزّاعة التي أجرؤ على القول إنها من أقل أدوات المزرعة أهميةً، فهي تعد قراءها ضمناً باستكشاف ما هو غامض في الفزّاعة، لا الفزّاعة وحدها. ونطالع غلاف الملف بفزاعته ذات الملابس الرثة والقامة المنتصبة الشامخة على خلفية سوداء مهيبة فنهفو بكامل حواسنا إلى استطلاع الملف، ولكن خيبة الأمل سرعان ما تفاجئنا منذ الكلمات الأولى في مقدمة الملف. الملف ليس عن سحر الفزّاعة. والملف ليس عن تلك الفزّاعة التي ظنت القافلة أنها تقدمها لقرائها، والملف ليس عن تلك الفزّاعة التي ظن القرّاء أنهم سيقرأون عنها.

الملف عن الفزّاعة الاختراع -وليس حتى ابتكار- تفتقت عنه عبقرية المزارع لإبعاد الطيور عن محصوله. مجموعة مقالات تجيب كل منها بأمانة عن أسئلة متتابعة كطلقات الرصاص.

أجب: ما هو تاريخ الفزّاعة؟

أجب: ما موقع الفزّاعة في الشعر؟

أجب: ما موقع الفزّاعة في السينما؟

أجب: كيف رسم الكاتب الأمريكي ل. فرانك باوم فزاعته في رواية «ساحر أوز المدهش»؟

أخالف الأمانة بشكل صارخ إن لم أذكر أن الإجابات عن الأسئلة السابقة كانت وافية ومجتهدة، ولكنها في اجتهادها هذا نجحت أن تجرّد فزاعتنا من سحرها، لتغدو كما ذكر الملف، اختراعاً إنسانياً مفيداً للغاية، ولكنه لا يثير الخيال، ولا تهفو إليه ومعه الحواس.

الإسهام الوحيد الذي اقترب مما توقّعت كقارئ هو إسهام محمد خير وعنوانه: «الأبنودي وخيال المقاتة المصري»، وبعيداً عن العنوان الذي لُفظت فيه آخر أنفاس الشاعرية، اختيار الكاتب لقصيدة «موت خيال المآتة» العامّية وتعليقه على عدد من أبياتها كان موفقاً إلى حدٍ بعيد، وأعترف: استمتعت به كثيراً.

أخيراً كنت أتحدث مع صديق لي من قرّاء القافلة أيضاً، بخواطري عن الملف، حينما أشار علي بقراءة قصيدة للشاعرة اللبنانية سوزان عليوان عنوانها «فزّاع الطيور»، وأحببت أن أنقلها إليكم.

فزّاع الطيور

كثيرةٌ هي أمنياتُهُ
أكثرَ من السنوات التي أمضاها واقفًا في هذا الخلاءِ
أكثرَ من البذورِ التي يحرسُها الهواءُ
عبرَ جسدِه القليل.

يحلمُ بمقعد يريحُ ساقَهُ النحيلةَ
بوضعِ يده في جيبٍ
في كفِّ امرأة
بغيمة تستقرُّ فوقَ رأسه تمامًا
بأطفالٍ طيِّبين يقذفونَ نحوَهُ كُرَةَ القدمِ
بينَ حينٍ وآخر
بدلاً عن الأحجار
بأزهارٍ قليلة تنبتُ حولَهُ
ليطمئِنَّ أنَّ أحدًا في العالم سيفتقدُهُ
إن سقطَ بضربةِ منْجَلٍ.

يحلمُ بالعصافير
تلامسُهُ
دونَ خوف
حتَّى إن أخذَتْ
مقابلَ حنانها العابر
قشَّ القبَّعةِ التي تحميه
في هذا الخلاء
من قسوةِ الشمسِ والمطر

عمر محمد هاشم
اليمن

تعقيباً على ملف «الفزّاعة»، «القافلة» عدد يناير-فبراير 2008



الحلي في ديوان العرب

طالعت بالعدد 1 المجلد 57 بباب الحياة اليومية مقال عبود عطية سكرتير التحرير، «الحلي الشرقية تلمع من جديد»، مما أوحى إلي بهذا المقال القصير.

لعل من المفارقات التاريخية أن نعرف أن الرجل في المجتمعات البدائية كان أكثر اهتماماً بالزينة والتحلي من المرأة، من أجل جذب نظر المرأة والتقرب إليها. بينما لم تكن المرأة تهتم بزينتها مثل الرجل، مكتفية بما وهبها الله من صفات أنوثة مغرية. ولكن الأمور تغيرت بعد ظهور المجتمعات الإنسانية في فجر التاريخ، فأخذ الاثنان الرجل والمرأة كل منهما يهتم بزينته.

وحفل تاريخنا العربي والإسلامي باهتمام متميز بموضوع الزينة والحلي. وألفت في هذا الموضوع كتب كثيرة وذكرت أسماء أدوات الزينة والحلي وطريقة صنعها ولبسها واستعمالها، في معظم كتب التراث من أدب ولغة وشعر. وترددت أسماؤها على ألسنة الشعراء والنحويين والرواة والفقهاء والعلماء.

وكذلك اهتمت الشريعة الإسلامية السمحة بهذه الأمور وتعاملت معها تعاملاً جدياً ونظمتها تنظيماً راقياً يصون كرامة الإنسان ويبعده عن مواطن الفحش والابتذال.

والحلي هو اسم جامع لكل ما يُتحلَّى به من مصنوعات المعدن أو الحجر سواء كان كريماً نفيساً أو عادياً رخيصاً ويلبسه الإنسان -الرجل والمرأة- على أي جزء من جسمه للزينة أو التجمل منظوماً بخيط أو دون خيط.

وفيما يأتي بعض أنماط الحلي عند العرب:

- **المخنقة:** هي قلادة من الدر واللؤلؤ أو من الخرز بألوانه المختلفة تلبسها المرأة على المخنق (الرقبة) أي موضع الخناق وسميت بهذا الاسم لأنها تخنق الرقبة أي تلتصق بها، وجاء في الصحاح وفي لسان العرب أن المخنقة من القلادة. وذكر الثعالبي أنها حلي للعنق. وقد ذكرت المخنقة والمخانق في كثير من أشعار العرب. فهذه هند بنت عتبة بن ربيعة تحرِّض قومها على الثبات في معركة أحد قائلة:

نحـن بنـات طـارق — نمشي على النمـارق
الدر في المخـانق — والمسك في المفارق
إن تقبـلوا نعـانق — أو تدبـروا نفـارق
فـراق غيـر وامـق

- **القلادة:** ما جُعل في العنق، يكون للإنسان والفرس والكلب والبدنه التي تهدى ونحوها. وجاء في القاموس المحيط أن القلادة ما جعل في العنق من الحلي. وهي خيط ينظم فيه اللؤلؤ والياقوت والزبرجد وقطع من الذهب ويعقد حول الرقبة. والقلادة جمعها قلائد. وهي أهم حلية تزين بها المرأة جيدها وصدرها. يقول الشاعر الجاهلي واصفاً جيد حبيبته الشبيه بجيد الريم، وقد توقد عليه الياقوت المفصل بحبات الزبرجد.

وجـيـد كـجـيـد الـرئـم صـاف يـزينـه
تـوقـد يـاقـوت وفـصـل زبـرجـد

- **القرط:** نوع من حلي الأذن يعلق في شحمة الأذن. وهو مصاغ من الذهب أو الفضة بأشكال متنوعة تعلقه المرأة في شحمة الأذن بعد ثقبها والجمع أقراط. ويطلق على ما يعلق بالأذن من قرط ونحوه الرعثة. ويقول الشاعر العربي:

وبـاتـت تـمـجُّ الـمِـسـكَ فـي فِـيَّ غـادةٌ
بـعـيـدة مـهـوى الـقـرط صـامـتـةُ الـحجلِ
(بعيدة مهوى القرط: طويلة الرقبة)



- **السوار:** هو حلية كالطواق تلبسه المرأة في زندها. وفي فقه اللغة - السوار للمعصم. وفي لسان العرب ذكر ابن منظور السوار تحت مادة سور وقال إنه يجمع على أسورة وأساورة وأساور. والأساور مازالت ملبوسة في معاصم نساء العرب في عصرنا، يقول الشاعر العربي واصفاً طريقة لبس السوار في يد امرأة مترفة أخذت تلوي أصابع كفها الممتلئة المخضبة لتدخلها في السوار حتى يستقر في النهاية على معصمها.

وألـوت بـكـف فـي سـوار يـزيـنـها
بـنـان كـهـذاب الـدمـقـس الـمـفـتـل

- **المفتول:** سوار من الذهب أو الفضة مفتول (مبروم) ليكون غليظاً تلبسه المرأة على معصمها، وجمعه مفاتل.

- **الجبيرة:** وجمعها الجبائر، هي حلية للساعد. وفي لسان العرب أن الجبيرة هي الإسوارة من الذهب والفضة.

يقول الأعشى:

فارتك كفا في الخضا — ب ومعصماً مثل الجباره

- **الدملج:** هي حلي تلبس في العضد على شكل سوار غير مكتمل. يقول الشاعر: «والبيض في أعضادها الدماليج».

- **الخلخل والخلخال أو الحجل:** وجمعه الخلاخيل والحجول، حلقة متينة غليظة من الذهب أو الفضة ينتهي طرفاها بتومتين كبيرتين وتلبسه المرأة في أسفل ساقيها. ويقول الشاعر: «براقة الجيد صموت الخلخل». ويقول آخر واصفاً امرأة ريانة ممتلئة بيضاء بحمرة:

مـن فـتـاة كـأنـهـا قـرن الـشـمـس
ضـاق عـنـهـا دمـالـج وحـجـول

وآخر يصف ساقي حبيبته الممتلئتين وصلصلة جلاجل حجليها عندما تتثنى أمامه مثل عود الخيزران:

وسـاقـان مـار الـلـحـم مـورا عـلـيـهـمـا
إلـى مـنـتـهـى خـلـخـالـهـا الـمـتـصـلـصـل

صلاح عبد الستار محمد الشهاوى
طنطا- مصر

تعقيباً على موضوع «الحلي الشرقية تلمع من جديد»، «القافلة» عدد يناير-فبراير 2008

قافلة النشر



مكتبة جرير











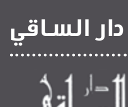
نوم جيد طوال الليل
لورنس ج. إيشتاين

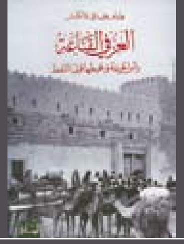
قواعد الإدارة
ريتشارد تمبلر

الذكاء الاجتماعي
كارل ألبريخت

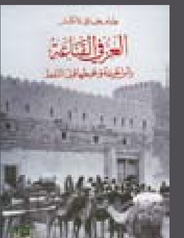
فن الاختلاط بالناس
جين مارتينت

دار الساقي









العز في القناعة
ويليام وفيدلتي لانكستر

الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية
نجدة فتحي صفوة

فضولية العلم
سيرل أيدون

ملامح
زينب حفني

سماء واحدة
ليانة بدر

مركز دراسات الوحدة العربية

المنظمة العربية للترجمة













البحث عن التاريخ والمعنى في الدين
د. سعود المولى

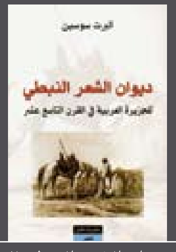
الماء والأحلام.. دراسة عن الخيال والمادة
غاستون باشلار

أسلحة الرعب.. إخلاء العالم من الأسلحة النووية والبيولوجية والكيميائية

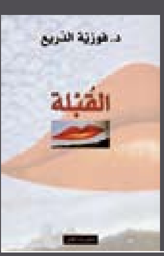
مقاومة التطبيع.. ثلاثون عاماً من المواجهة

دور المنظمات الدولية في تنفيذ قرارات التحكيم الدولي
د. كمال عبدالعزيز ناجي

منشورات الجمل







ديوان الشعر النبطي للجزيرة العربية
ألبرت سوسين

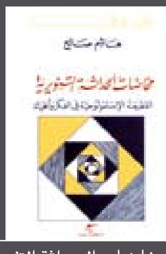
التقرير السري عن الشاعر غوته
رفيق شامي أوفه ميخائيل غوتشان

القبلة
د. فوزية الدريع



دار الطليعة





منهجية البحث في علم الاجتماع
د. عبدالغني عماد

مخاضات الحداثة التنويرية
هاشم صالح

خطاب النقد الثقافي في الفكر العربي المعاصر
د. سهيل الحبيب

الماء والإنسان في الأندلس
د. سعيد بنحمادة

العرب وشبكات المعرفة
يحيى اليحياوي



دار الفكر العربي





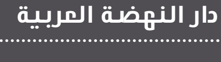


نازك الملائكة (عاشقة الليل)
د. رحاب عكاوي

ابن زيدون الوزير الشاعر
د. رحاب عكاوي

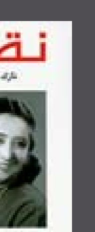
هي تأتي (رواية شعرية)
د. زكية مال الله

المرأة في شعر أبو ريشة
د. سامي أبو شاهين



دار النهضة العربية







نقد
نازك الملائكة

بوابات الذاكرة الفظ
زينب عساف

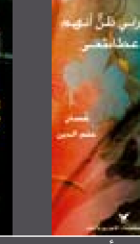
المدينة لا تتسع لرجل جديد
محمد بركات

الذين غادروا
اسكندر حبش

شركة المطبوعات للنشر والتوزيع








يساورني ظن أنهم ماتوا عطاشى
غسان علم الدين

طلاق الحاكم (رواية)
منى دايخ

لمسة شفاء (الجزء الثاني)
د. إيفلين عون ود. ماجد خضر

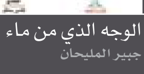
خريف من ذهب (شعر)
جوزيف طوبيا

كيف تؤكد ذاتك؟
د. كريستين نصار

النادي الأدبي بحائل







رياح وأجراس
فهد الخليوي

وقوفاً على الماء
عبدالله باهيثم

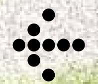
ضوء يشير إلى إصبعين
جار الله العميم

الوجه الذي من ماء
جبير المليحان

نهاية التاريخ الشفوي
محمد العباس

الشجرة في المدينة

شيء من الأخضر إلى جانب الرمادي



أدى الاهتمام بجمال المدن الحديثة وبتحسين الحياة فيها إلى انتشار الاقتناع بأن للتشجير والمساحة الخضراء في هذه المدن دوراً مهماً في هذا المجال. ولكن هذا الاقتناع الذي لم يعد ثمة من يعاكسه، لا يطال من جبل الجليد إلا ما يطفو منه على سطح الماء. فالشجرة في المدينة قضية. والأصح أن نقول إنها مجموعة قضايا تتجاوز موضوع الجمال، لترتقي في بعض أوجهها إلى المستوى الثقافي والحضاري، ناهيك ببعدها البيئي، والتعامل معها الذي أصبح عملاً مستقلاً في ذاته، كما يُظهر هذا البحث، الذي اشترك في إعداده كل من سلمى سماحة وأحمد عثمان وهناء حداد، مواكبة ليوم المدينة العربية الذي يصادف الخامس عشر من مارس، وأسبوع الشجرة الحادي والثلاثين الذي ينطلق في الثامن عشر من مارس.



تتعدَّد معايير الجمال حول العالم، لكن يبدو أن المدينة الخالية من الشجر بشعة وفق كل المعايير. حتى أن مشاريع العمران الضخمة تحرص دوماً في رسوم الترويج على إظهار مبانيها وكأن موقعها في جنة عدن.

وأول ما نفكِّر فيه أمام هذه الرسوم، أن المهندس مصرٌ على إقحام الشجرة في موقف حميم مع عدوتها اللدود. ولكن هل المباني فعلاً على عداوة مع الشجرة؟ إنَّ الرسوم هذه طأطأةٌ لرأس المبنيّ أمام المزروع، فيها يعترف الأول للثاني: «مهما كنتُ جميلاً، فلن أكون جميلاً من دونك».

من الريف المفقود إلى المدينة الراقية

لقد وَعَت مدن العالم المتقدِّم هذا الأمر باكراً، فلم تتركه يغيب عن بصرها أصلاً. ونذكر في هذا السياق مدينة لندن إبان القرن التاسع عشر. لقد شهدت لندن موجةً هائلة من النزوح إليها آنذاك، فاستقبلت عدداً هائلاً من الناس تركوا قراهم في سبيل العمل في المصانع. وكانت لندن الثورة الصناعية هذه المسرح المثالي لثنائية الريف – المدينة، كما ندرسها اليوم. وقد تألفت من غرباءَ تجمعهم صدمة العمران والحنين إلى الريف. وكان أحد الحلول المتعددة التي وُجدت لهذا النزوح من الريف، موجة إنشاء مساكن مبنيّة في حلقات كبيرة، مطلة جميعها على حديقة كبيرة هي مركز الحلقة. كانت الحديقة الكبيرة هذه أشبه ما تكون بالحديقة العامة، إلا أنها مسيّجة ومزودة ببوابات، فلا يستطيع دخولها سوى قاطني المساكن المحيطة بها، الذين كانوا يحملون مفاتيح لبوابات الحديقة.

تطوَّرت هذه المساكن في حلقات تتوسطها الحدائق الصغيرة الخاصة، ورأيناها جميعاً في الأفلام الأمريكية، بعدما نقلها الأمريكيون عن البريطانيين، وأضافوا بعض التعديل عليها. ومن جهةٍ ثانية، كان كل من مدينتي لندن وباريس يكتشف حلاً آخر لمشكلة أنها مدينة غير مزروعة، هو الحدائق العامة، ونذكر في هذا السياق حديقة هايدبارك في لندن، وحديقة لكسمبورغ في باريس. الأولى كانت ميداناً لصيد الأمراء الإنجليز، والثانية كانت منذ بدايتها حديقة كلفت الأميرة ماري دو ميديتشي إنشاءها، المهندس المدني الفلورنسي توماسو فرانتشيني، وانتقلت الحديقتان من الملكية الخاصة إلى الملكية العامة أثناء القرن التاسع عشر.

لعب الحنين إذن دوره في نشوء الحديقة في بريطانيا، وفي حالة حديقة لكسمبورغ كانت الحديقة نفسها تجسيداً لحنين الأميرة إلى حدائق صباها في بلدها الأم إيطاليا. لكن تجربة حديقة سنترال بارك في نيويورك، لم تكن حنيناً قدرَ ما كانت تعبيراً عن رغبة نخبة المدينة في ترقية مدينتهم إلى مصاف مدن أوروبا. ولهذا الأمر ثقله لأنه يعبِّر عن تحول جذري في دلالة شجرة المدينة؛ كانت تعني الريف المفقود، فصارت تعني المدينة الراقية، ولم يأتِ هذا من فراغ، بل هو واضح تماماً إذا ربطناه بتحليل بروفسور دانييل جانزن، أستاذ علم الأحياء في جامعة بنسلفانيا، في كتاب «قوة المكان»، الذي جاء فيه أن «الطبيعة، أياً كان تعريفنا لها، أكانت شجرة أم غابة كاملة، تقدِّم لنا جزءاً عريضاً من المعلومات التي يمكن للدماغ أن يستوعبها، وإن حططنا من قيمتها، فإننا نكون بذلك حططنا من التنوع الذي يمكن لأدمغتنا أن تحصل عليه. عندما نلغي الطبيعة من حياتنا، ننتهي من دون أن يكون لدينا إحساس حقيقي بالشم، بالسمع، بالرؤية. ويصبح التلفزيون واقعنا. ويمكن لنا أن نفعل ذلك، لكن التلفزيون ليس معقداً كفاية ليحفز أدمغتنا على العمل بالوضع نفسه الذي تدفعه إليها الطبيعة».

وبعد، فالشجرة في المدينة أكثر من رمز لرقي الإنسان (وإن كان هذا في ذاته سبباً أكثر من كافٍ للاهتمام بها)؛ هي أيضاً حاجة عملية وضرورة عيش يتزايدُ إلحاحها بتزايد العمران والتصنيع وانبساط المدن على وجه الأرض.

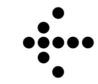
ثاني أكسيد الكربون ومثلثات الشارع

ولئن كنا جميعاً فهمنا أن قيمة التشجير الأولى في المدينة هي في كونه أداةً فعالة لخفض نسبة ثاني أكسيد الكربون فيها،



Corbis

مشهد باريسي: لوحة لفريدريك أناتول هوبرون



تشجير المدينة بنوعٍ وحيد من الشجر يضفي على المدينة طابعًا واضحًا أو شخصية واحدة، واتجاه التشجير قد يعبِّر عن توجه ثقافي..

فهـذا لا يمنع أن نذكر بعض الأرقـام المثيرة للاهتمام، التي تتدفَّق من منظمات البيئة بين الحين والآخر، وآخرها دراسة وضعتها منظمة فايرفاكس ريليف الأمريكية غير الساعية في الربـح، والتي صورت فيها 57 مليون شجرة تنمو على مساحة تقارب ألف كيلومتر مربع، معدل أعمارها 18 سنة.

استخدمت المنظمة برنامجاً رقمياً لتقدير قيمة كل شجرة بالـدولار، بناءً علـى الفوائد التي يجنيهـا المجتمع المدني منها، حسـب الأبحاث العلمية. واحتُسِبت الفوائد السنوية التي قدّرها فريق المنظمة بحساب ما كان المجتمع ليدفعه للحصـول علـى المستوى ذاته مـن السيطرة علـى التلوث الجـوي، والنزع البيئـي للكربون، وتصريف ميـاه الأمطار، وحفظ الطاقة، إن لم تكن الأشجار موجودة.

فخلال سنة، علـى سبيل المثال، تمتص مساحة فدان (4 آلاف متـر مربع) مزروعـة شجراً ناضجاً مـن ثاني أكسيد الكربـون مقدار ما تبثه سيارة حين تسير 41 ألف كيلو متر، وهـذه المسافة أطول من مسافة الدوران حول الأرض. وفي الوقـت نفسه الـذي تمتص فيه هذه الأشجـار هذا المقدار مـن ثانـي أكسيد الكربـون تبث مـن الأكسجيـن مؤونة 18 شخصـاً تكفيهم عاماً كاملاً. علـى أن الأرقام هذه تتناسى أن ثمـة علاقـة عكسية بيـن أشجـار المدينـة ونسبة ثاني أكسيـد الكربـون، أبعد مـن امتصاص الشجر لـه. عندما تـزداد الأشجـار في مدينـة ما، تـزداد المساحـة المظللة فـي هـذه المدينة هـي الأخـرى، كذلك تنخفض حرارتها ويلطُـف جوّها، وهذا بدوره يشجِّـع الناس على التنقل سيراً على الأقـدام لا بالسيارة. ومع انخفاض حركة السيارات، تنخفـض نسبة انبعاث ثانـي أكسيد الكربـون أكثر، فيزيد انخفاض حـرارة الشوارع ولطف جوهـا، وبالتالي استعداد النـاس للمشي فيها بدل ركوب السيـارة، وتصبح هذه دورةً حميدة لا مثيل لها.

مـن جهـة ثانيـة، يعـدّ الشجـر موطنـاً لعصافيـر المدينة وحيواناتهـا، والأمر هذا في ذاته، قـد لا يعنينا كثيراً للوهلة



الأولـى، بل قد يبـدو مصدر إزعـاج لبعضنـا، إلا أن الغطاء النباتي والحيواني في المدينـة هو حبل السُّرَّة الذي يربطها بمحيطها الريفي، أي ان المدينة –على غرابة الطرح– امتدادٌ طبيعي للريـف أو الطبيعة، فإن انقطعت عنهما تحولت كائناً أشبـه بجزيرة، وطبيعتها هذه لن تكون جغرافية فحسب، أي إن المدينـة لن تصبح غريبة عـن محيطها الجغرافي فقط، بـل تصبح غريبـة عن ماضيها، وهـذا أمر لا يخلـو من آثار اجتماعية وربما سياسيـة خطرة. ولمن لا تعنيهم الحيوانات ولا السياسـة ولا علـم الاجتماع، نضيـف أن لاختفاء الغطاء النباتـي – الحيواني مـن المدينة أثرين فـي حشراتها؛ أولاً، من دون شجر وحيوان تفقد الحشرات مواطنها الأولى، وتجد نفسهـا مضطرةً إلى اللجـوء إلى بيوت البشـر. وثانياً، تفقد متصيّديها الطبيعيين وتتكاثر على سجيّتها.

من علم النفس إلى علم الطاقة

أضـف إلى ما تقـدَّم أن اتصـال الغطاء النباتـي الحيواني إلى المدينة، عامل يفيـد نفسية أهلها. وقد جاء في دراسة ستيفـن كابلان، الأستـاذ في جامعة متشيجـن الأمريكية، عـن تأثير المناظر الطبيعية في سلـوك الإنسان، أدلة على أن المناظـر الطبيعية تخلّص الأشخاص من ظاهرة تسمى علمياً الإرهاق العقلي، وهي حالة من أعراضها عدم القدرة علـى التركيز والاستيعـاب بعد ساعـات أو أشهر من العمل



Corbis

الشجرة والمدينة في طوكيو: جنائن القصر الأمبراطوري

الذي يتطلب تركيزاً شديداً. كذلك أثبتت الدراسة أن هذه الحالة قد تنتهي نهاية مفاجئة، فور خروج المصاب بها من مكتب مزدحم إلى شارع تصطف على جانبيه الأشجار.

فإذا انتقلنا من علم النفس وما يقوله، إلى عالم الطاقة واستهلاكها، نشير إلى أن الأشجار، عندما توزَّع حول المباني توزيعاً استراتيجياً، تنشئ ظلاً يمكن أن يقلل تكلفة التكييف في المباني على نحو محسوس، وعدم حاجتنا إلى الطاقة ينقص من حاجتنا إلى مولدات الطاقة، ويقلل بدوره التلوث الناجم من هذه المولدات. ولربما يقلل الحاجة إلى بناء مولدات الطاقة أو على الأقل يطيل عمرها قبل الاستغناء عنها. وفي هذا السياق، تشير خدمات أبحاث الغابات الأمريكية إلى أن زرع الشجر والمحافظة عليه، يمكن أن يكون أقل تكلفة من بقية مناهج حفظ الطاقة. إذ إن شجرة عادية زُرعت لتظلل مسكناً، على سبيل المثال، ويبلغ ارتفاعها 8 أمتار تقريباً، يمكنها أن توفِّر 15% من الطاقة المستخدمة لتبريد هذا المسكن.

وما دمنا في الأرقام، حري بنا أن نعود إلى دراسة منظمة فايرفاكس ريليف، التي وجدت أن الشجرة قادرة على أن تضيف أكثر من 1000 دولار في خفض تلوث الجو ونزع ثاني أكسيد الكربون (أي في الإسهام في جهود العالم لتخفيف الاحتباس الحراري) وتصريف الباقي من مياه المطر وتقليل مصاريف الطاقة. وبحساب ما يمكن أن يقدِّمه مجموع الأشجار في المقاطعة فإن فايرفاكس وحدها تقدِّم ما قيمته 400 مليون دولار من فوائد البيئة كل سنة، دون أن ننسى تقدير قيمة الأشجار وهي نحو ثلاثة عشر بليون دولار.

هذه بعض منافع الأشجار العامة ضمن محيط المدينة. لكن للشجر بعض المنافع الخاصة، وفي استعراض ذلك سنتدرج من الاستعمال الأقل إلحاحاً، إلى ذلك الأشد إلحاحاً، ومما يتطلب مساحة كبيرة إلى ما يتطلب مساحة صغيرة.

الحدائق العامة وقضية الجذور

نبدأ بالحدائق العامة. فهي رئة المدينة، لأن تركيز الأشجار فيها مرتفع إذا قورن مع باقي المواقع، وهي مواقع التشجير الوحيدة الخالية من مشكلة الجذور. فإحدى أكبر المشكلات التي تعترض المدن الراغبة في تشجير نفسها، هي في السؤال: «وماذا سنفعل بالجذور؟»، ذلك لأن حجم الشجرة، لا سيّما فروعها، متوازنٌ مع حجم جذورها. فبنمو الشجرة نفسها صعوداً لا تنفك جذورها تنمو أعمق وتزداد تشعباً. إلى هنا، والصورة جميلة. ولكن المشكلة هي أن

تربة المدينة تكاد أن تكون بمثل ازدحام سطحها، بسبب أسس المباني والقنوات الصحية التي تخترقها بكثافة. في وجه هذا الضغط، تجد الجذور نفسها في صراع لإيجاد مكانٍ لها، وهو صراع غالباً ما تنهيه منتصرةً، فتصل إلى قبو أحد المباني وتخترقه، معدةً المسرح لتسرب المياه، أو تصل إلى أنابيب الصرف الصحي فتسدها، مانعةً بذا تدفق الماء فيها.

ميزة الحدائق العامة خلوها من هذه المشكلة، وشأن هذا أن يمنح مسؤولي المدن هامشاً واسعاً من حرية زراعة أشجار كبيرة من دون أن يقلق الزارع على مصير جذورها. فيتعزَّز دور الحدائق العامة بصفتها رئات للمدينة ومواقع استجمام، لا سيما إن كانت الأشجار المزروعة ذات أوراق تتحرك مع النسمة (كالصفصاف مثلًا)، فتُحدث التأثير المريح الذي ينشأ من حفيف الشجر في الأعصاب.

هذا في الحدائق العامة، أما مواقف السيارات فشاهدة على توظيف جديد للأشجار، إذ تُزرع فيها لقدرتها على خفض حرارة المكان. فالأشجار المزروعة في مواقف السيارات تُحدث تدنياً في حرارتها يقارب خمس درجات مئوية، فتوفر لموقف السيارات المشجر ميزة عند السائق على موقف السيارات الأجرد، لا سيما في البلدان الحارة. وترافق هذه الحسنة حسنة أخرى، هي تحوّل مواقف السيارات إلى مساحة خضراء أو تزودها على الأقل خضرة، تحتاج إليها معظم مدن العالم حاجة ماسة.

أما على الطريق، فإن تشجير مستديرات المدن ومثلثاتها يُكسبها حجماً حيال الطريق نفسها، وقد لا يكون هذا بالضرورة أمراً مهماً لسائقي المدينة المخضرمين، إلا أنه كذلك لزوار المدينة. والغرباء في المدن كثر. وعلى الطريق أيضاً، يحجب الشجر المزروع في الوسطيات، رؤية الجهة المعاكسة للسائق، فيتيح له زيادة التركيز على الطريق في النهار، أما في الليل فيحجب مع ما يحجب أضواء سيارات الجهة المعاكسة، وهو أمرٌ مريح في أقل الأحوال، ومنقذٌ للأرواح في أفضلها. عدا ذلك، عند انزلاق سيارة عن مسارها، يبقى اصطدامها بشجرة أرحم من اصطدامها بسيارة آتية من الاتجاه المعاكس، وإن لم يكن هذا الأمر صحيحاً على مستوى الصدمة نفسها، فهو يبقى كذلك على مستوى عدد الضحايا. فسرعة الاصطدام بين سيارتين متقابلتين مضاعفة، وعدد الركاب الذين قد يُصابون مضاعف أيضا، من حيث المبدأ.

ما العمل إذن؟

في مدينة براغ.. حيث تآخى الشجر مع الحجر



Google

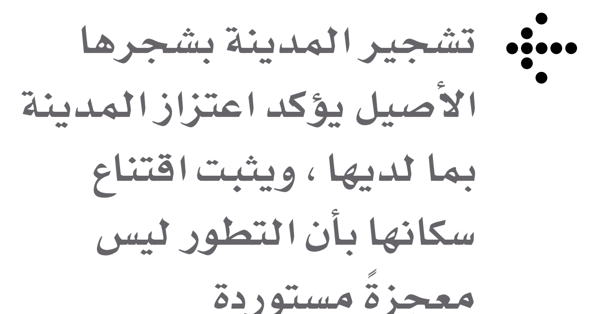
اختيار الشجرة

تشجير المدينة خطوة في الفراغ، ما لم يُحسَن انتقاء الشجرة الملائمة، ذلك أن كل صعوبة إضافية في مجال العناية بها ترتب تكلفة باهظة كل سنة، وهذا أمر نبَّه المسؤولين إلى خصائص كانت تؤخذ في الحسبان في السابق، علماً بأن معرفة النبات عامة والشجر خاصة، لا يمكن أن تكون جامدة، بل انها محكومة بالتطور مع تطور خصائص الاختيار.

يمكننا القول إن لكل شجرة ملفاً تقنياً يسمح لنا باختيارها أو استبعادها، وينطوي هذا الملف على خصائص الشجرة الموضوعية وغير الموضوعية. ونعني بالأولى كل الخصائص الحسية، وهي: الحجم والشكل ولون الورق والملمس وتساقط الورق أو ثباته وتغير الشجرة مع مر الفصول ودرجة تحرك الورق مع الهواء ولون الجذع وشكل الأغصان وملمسها وقيمة الزهور الجمالية ودورة التخصيب والثمار والرائحة، وأي تفصيل استثنائي آخر.

ولكن هذه، والعوامل الموضوعية وحدها غير كافية لانتقاء الشجرة، لأنها تفترض أن البشر لا يعدون كونهم كائنات حسية، وهنا تدخل العوامل غير الموضوعية دائرة الضوء. وهي العوامل التي تجعلنا نرغب في التشجير بالنخيل في ستوكهولم، وبالأرز في جدة، وهي عوامل ذات بعد نفسي أو رمزي أو معنوي. لقد حمَّلت الإنسانية الشجرة رموزاً ما (الحياة والقوة والأبدية)، والرمز يلحق بالشجرة بغض النظر عن نوعها. وأحياناً، تضاف إلى الرمز هذا، معان خاصة كخلود السنديان المزعوم وتواضع التوت وحزن الصفصاف المتهدل. كذلك كثيراً ما نسبغ على الأشجار معاني فردية لا جماعية، وتكون هذه المعاني مرتبطة - بل حتى متجذرة - بقصة حياتنا، وفي هذه الحال، قد تصبح شجرة اللوز رمزاً للقاء أو لفراق أو لحدث.

وبعد الأشجار المعنوي امتدادٌ لكون الشجرة ابنة بيئة حسية معينة، أي ان لدى عقل الإنسان ميلاً إلى تثبيت الشجرة في بيئة معنوية معينة، على غرار ثباتها في بيئتها الحسية. من هنا، قد يشبّه المرء في مواجهة شجرة لم يرها قبلاً، بشجرة أخرى مألوفة لديه. وفعلاً، يحدث كثيراً أن نقع على أناسٍ يصنفون كل الصنوبريات على أنها أرز، أو على آخرين يرون في كل الأشجار ذات الشكل الملتوي حوراً مستحياً. هذا التعميم ما هو إلا إشارات على أن الأشجار «حاملة أجواء» معينة للأماكن التي تتحدر منها. وهذه الأجواء مرتبطة مباشرةً بانتشار الشجرة ضمن مجالها الجغرافي، ومدى كثافة هذا الانتشار (أو عدم كثافته؛



تشجير المدينة بشجرها الأصيل يؤكد اعتزاز المدينة بما لديها، ويثبت اقتناع سكانها بأن التطور ليس معجزةً مستوردة

فلنتذكر هنا أن ندرة نوع معين من الشجر في منطقة ما قد تمنحه هالة احترام). فضلاً عن ذلك، فإن تشجير المدينة بنوع واحد من الشجر شأنه أن يضفي على المدينة طابعاً واضحاً أو شخصية مميزة، هي شخصية الشجرة المذكورة، حتى أن اتجاه التشجير قد يعبر عن توجه ثقافي معين. فمدينة بيروت اجتاحتها موجة نخيل في ثلاثينيّات القرن العشرين، وقد يبدو الأمر كأنه لم يعدُ دارجاً دروجاً عابراً، إلا أن الملاحظ الدقيق قد يرى فيه أيضاً حالة رفض للوجود الفرنسي في البلاد، لا سيما أن هذا الوجود انتهى في أول الأربعينيّات.



Corbis

برج مبنى بولوكس ولشاير في لوس أنجلوس: لوحة لروبرت ماكنتوش

الآن، وقد غصنا في الحديث عن البعد غير الموضوعي في الشجر، حري بنا أن نشير إلى أننا لا نستطيع تشجير المدينة من دون أن نكون واعين للدلالة أو الطابع الذي سوف تنطبع المدينة به، ففي تشجير مدينة بصنف معين من الشجر تعميمٌ لهذا الصنف، وهو أمر قد يسخّف رمزيته. لذا، يُنصح بتجنب الشجر المثقل بالرمز، واختيار شجر أكثر حياداً. ومن حسنات أمرٍ كهذا أنه يمكننا من التركيز على صفات الشجر الموضوعية.

شروط موضوعية لتشجير المدن

وأبعد أو أقرب من البعد المعنوي، هناك شروط موضوعية لتشجير المدن، منها ما يأتي:

1 على التشجير أن يكون كثيفاً فلا يتجاوز الانتقال من مساحة خضراء إلى جارتها عشر دقائق. وهذه المساحة بدورها يجب ألا تكون جزراً؛ ونشر المساحات الخضر في مدينة ما إنجازٌ ناقص إن لم يصحبه نشر للخضرة على امتدادها. والمدينة الخالية من المساحات الخضر ذات الأرصفة المزروعة، خيرٌ من المدن التي تحوي جزر مساحات خضر؛ ذلك لأن الخضرة في المدينة الأولى هي خضرةٌ «ديموقراطية»، معممة، متداخلة مع نسيج المدينة ومع حياتها اليومية، فيما الخضرة في الأخرى خضرة «نخبوية»، على طلاق مع حياة المدينة.

2 شجر المدينة يجب أن يكون ابن بيئتها؛ نعود هنا إلى استطرادنا عن بعد الشجر غير الموضوعي، إذ وصفنا عوامله بأنها تلك التي «تجعلنا نرغب في التشجير بنخيل في ستوكهولم، وبأرز في جدة». ليست الرغبات المجنونة غريبة على مجال التشجير، إلا أنها ليست سبباً كافياً لإلحاق الظلم بالشجر المسكين. فزرع النخيل في ستوكهولم والأرز في جدة ظلمٌ للشجر، لأنه يفرض عليه حياةً لم يُعد لها. فالشجر خارج بيئته الأصلية ينمو ضعيفاً ويكون عرضة للمرض، ومكلفاً وقصير العمر، فيما الشجر المزروع في بيئته لا يتطلب الكثير من الماء ولا المال ولا العناية للمحافظة عليه، ويكون قادراً على تحمل الضغط اليومي المفترض أن يتحمله أصلًا، كأذى الأطفال وتلوث المدن.

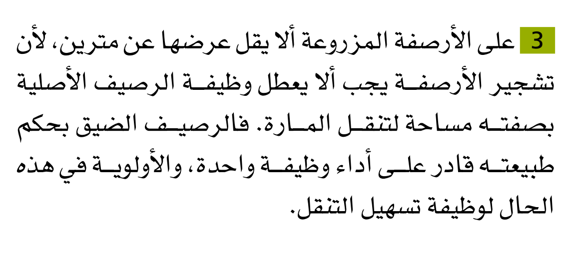
فإذا عدنا إلى البعد غير الموضوعي هنا، فتشجير المدينة بشجرها الأصيل يؤكد اعتزاز المدينة بما عندها، واقتناع سكانها بأن التطور ليس معجزةً مستوردة، بل هو أخذ الموجود واحتضانه إلى أن يشع. وفي العنصر الجمالي تكون الشجرة المظلومة المستوردة المعتلة، دون الشجرة ابنة بيئتها الصحيحة.

يوم الشجرة

يقع هذا اليوم ضمن الجهود الرامية إلى مصالحة المدينة مع الشجرة. والمثير للاهتمام في الأمر أن يوم الشجرة متعدد بتعدد بلدان العالم، فلكل دولةٍ يوم شجرة خاص بها.

تعود فكرة الاحتفال بيوم الشجرة، إلى جاي ستيرلنغ مورتن، وهو صحافي أمريكي انتقل وزوجته من مدينة ديترويت إلى مدينة نبراسكا عام 1854م، بحكم منصبه الجديد محرراً أول لجريدة فيها. وسرعان ما اقتضى عمل مورتن الصحافي انتقاله إلى مجال السياسة، فأصبح من مناصري المستوطنات البيض في المنطقة. ومن جهة أخرى كانت ندرة الشجر في نبراسكا عائقاً في وجه المستوطنات، لأن سهولها الشاسعة، على غناها بالقمح، لم تقدّم حلاً للمستوطنين المحتاجين إلى الحطب للبناء أو لنار المواقد. كانت الحال صعبة إلى حد أن الناس رفضوا أولاً الاستيطان في نبراسكا، على الرغم من تسهيلات مدهشة كانت الحكومة الأمريكية تقدمها للبيض آنذاك. وبدا لمورتن واضحاً أن المسألة لا تحتمل الكثير من التعقيد؛ كانت الولاية بحاجة إلى الشجر، وإلا فلا استيطان.

اقترح مورتن فكرة يوم الشجرة أول ما اقترحها عام 1872م، وكان ذلك أمام مجلس الولاية للزراعة. لم يُعمل بالفكرة إلا بعد عامين، أي في العاشر من مايو 1874م، إلا أن يوم الشجرة الأول لقي نجاحاً فائقاً، ويقال حتى إن مليون شجرة زُرعت يومئذ. وما لبثت العدوى أن انتقلت إلى الولايات المجاورة، فالقصية، ومن الولايات المتحدة إلى أوروبا فالعالم. وآخر إضافة إلى يوم الشجرة العالمي هو جائزة المدن للتشجير، وجدير بالذكر في هذا المجال أن مدينة جدة إحدى المدن التي حازت الجائزة للجهود الحثيثة التي تبذلها في تشجير شوارعها وساحاتها. أما مسألة أن هذا اليوم غير موحد في بلدان العالم، فذلك يعزى حتماً إلى اختلاف الأوقات الملائمة لزرع الغرسات الصغيرة بين بلد وآخر.



3 على الأرصفة المزروعة ألا يقل عرضها عن مترين، لأن تشجير الأرصفة يجب ألا يعطل وظيفة الرصيف الأصلية بصفته مساحة لتنقل المارة. فالرصيف الضيق بحكم طبيعته قادر على أداء وظيفة واحدة، والأولوية في هذه الحال لوظيفة تسهيل التنقل.

4 على الشجر المزروع على الأرصفة أن يكون حصراً من نوع يتفرع فوق مترين من أصل الجذع، كيلا يعرقل سير المارة.

5 ضروري أن تكون الأشجار كبيرةً إلى حدٍّ ما، لتقاوم أذى المارة وشغب غير الراشدين. فحجم الشجرة لا يأتي من فراغ، بل انه متوازن مع جذورها، ولهذا فعلى القائمين بالمدينة أن ينتقوا شجراً أكبر من أن يقتله أذى المارة، وأصغر من أن يتصارع مع أسس المباني وأنابيب البنى التحتية.

6 يحب معظمنا الأزهار المتفتحة على أمهاتها في فصل الربيع، وما إلى ذلك. لكن مرضى الربو والحساسية لا يشاركوننا السعادة الغامرة نفسها، فطلع الزهور يصيبهم بنوبات الربو، وتشجير المدينة بشجرٍ مزهر أو مثمر، من علامات عدم الاكتراث بالصحة العامة، فيما الشجر المورق لا يقل جمالاً وهو تعبيرٌ راقٍ عن احترام المدن لأهلها وصحتهم.

7 درجت أخيراً عادة استقدام شجرٍ مكتمل النمو إلى المدن المنوي تشجيرها، كسباً للوقت. ما لا يعلمه أصحاب هذا الأمر، هو أن نقل الشجرة بعيداً عن مسقط رأسها يصيبها بما يشبه الصدمة، ويوقف نموها بعض الوقت. وقد تطول مدة التوقف عن النمو هذه كلما كانت الشجرة أكبر، وفي حال الشجر الكبير المستقدم قد تدوم الصدمة سنواتٍ، هي المدة نفسها التي تحتاج إليها الشجرة الصغيرة لتكبر. الفرق الوحيد إذن بين استقدام شجر كبير وبين زرعه صغيرا، أن أهل المدينة تفوتهم فرصة مرافقة نمو الشجرة، وتعلم ثقافة الحنو عليها.

8 وهناك عادةٌ أخرى لكسب الوقت أيضاً، هي تفضيل الشجر السريع نموه، كالحور، على البطيء كالصنوبر. ولا بأس في هذا طالما أدرك القيّمون على المدينة أن الشجر السريع نموه لا يعمَّر، بخلاف الشجر البطيء. وفي المقابل، تبدي سلطات بعض المدن أخيرا حماسة شديدة للشجر المعمر، مع أن الشجر المتوسط العمر المعتنى به جيداً يمثل مدينته أفضل كثيراً من الشجرة المعمرة لو اعتمد أهل المدينة على عمرها وحده وأهملوا العناية بها.







المحترف السعودي



سباق الأسمنت والشجر.. برج الفيصلية في الرياض وأشجار العليا



أرشيف المحترف السعودي

منتزه الدفي في الجبيل: أخضر في مواجهة جبهتي الأسمنت والصحراء

9 إن كثافة التشجير أمرٌ غير صحي إن زادت على حدها. وهذا يكون عندما يكون الشجر المزروع على مقربة بعضه من البعض، فتتشابك الأغصان وتتعارك على الحيز المتاح. وهو أمرٌ غير صحي للبشر نفسياً، لأنه يحجب ضوء الشمس في الشوارع إلى حدّ كئيب، وهو غير ملائم اقتصادياً لأنه يضع سلطة المدينة أمام خيار من اثنين؛ إما أن توظف عمالاً يشذّبون الأغصان المتشابكة كيفما اتفق، على نحو قد يقتل الشجر في النهاية، أو أن توظف عمالاً يشذّبون الأغصان بإخلاصٍ وتفانٍ، وهذا أمر مكلف.

10 ندرس في علم الحدائق أن اختيار شجرة نفضية مفيد جداً عند زرعها قرب مبانٍ سكنية. لأن أوراق الشجر تحمي سكان المباني من أشعة الشمس في الصيف، وتتساقط مع بدء الشتاء، فتمكن أشعة الشمس بذلك من أن تدخل المنازل لتدفئتها. من جهة أخرى، يؤدي اختيار أشجار نفضية إلى إشعار سكان المدينة بتغير الفصول خلال السنة، وتراكم الغبار بين أوراق الشجر الدائم الخضرة عاملٌ إضافي لمصلحة الأشجار النفضية.

هذا ما ندرسه. أما على صعيد التطبيق، فمعظم البلدان العربية وحيدة الفصل (هو فصل الصيف طبعاً)، ولا يهتم سكان بيوتها كثيراً بدخول أشعة الشمس منازلهم أكثر مما تدخل أصلاً. على ذلك، تبقى الأشجار النفضية خياراً جيداً للتشجير لجميع الأسباب المذكورة أعلاه، وهي أسباب قد تضعف في بلداننا، إنما لا تنتفي تماماً.

وبعد...

يجدر الاعتراف بأن تشجير المدن خطا بضع خطوات نحو الأمام في معظم البلدان العربية، إلا أن الطريق أمامنا لا يزال طويلاً قبل الوصول إلى المصالحة الصادقة بين الشجرة والمدينة. فتشجير المدن العربية ينطوي على إحساسٍ مبهم بقيمة الشجرة الحضارية في المدينة، إلا أن الإحساس هذا لا يزال عاجزاً عن فرض نفسه بالقوة المنشودة. فلدى كثير من الناس استعدادٌ للإعجاب بشجرة، إلا أن قلائل مستعدون لتقديم مصلحة الشجرة ذاتها على مصلحة مشروع عقاري أو حتى واجهة دكان، فشجرة المدينة، والبيئة إجمالاً، لا تزال عندنا، في مصاف الكماليات. والواقع أن المسألة ليست مسألة وقت ولا مسألة مال، بل مسألة تربية وثقافة، وأي تقدم في الاقتصاد يتعذر ما لم يرافقه تقدم في التربية. وللكلام هذا وقع الخطاب المثالي الحالم، لكنه نتيجة دراسة قرأتموها للتو، ونتيجة اقتناع عميق بأن التطور مسألة شاملة لا تراتب فيها. أوَلَم يشبِّه الإغريق القدامى الشجرة بالإنسان؟ أوَليست شجرتنا إنساننا الصامت؟

أول تشجير للمدن في العالم

حدائق بابل



أقدم ما بقي لنا من التاريخ حول ما عرفته البشرية عن فن زرع الشجر في المدن، أي تزاوج العمارة المدنية مع خضرة الشجر، هي حدائق بابل المعلَّقة التي كانت إحدى عجائب الدنيا السبع. وكانت تسمى أيضاً حدائق سمير أميس. موقع بابل اليوم قريب من مدينة الحلَة في العراق، عند نهر الفرات، على بعد نحو 100 كيلومَتر جنوب بغداد.

أنشأ الحدائق المعلَّقة ملك بابل نبوخذنَصَّر، في القرن السادس قبل الميلاد، تلبية لرغبة زوجته أميتيس الميدية، التي حنَّت إلى موطنها مملكة ميديا، وموقعها اليوم بين همذان وأصفهان وأذربيجان، وهي مملكة كان والد أميتيس ملكها.

شيَّد نبوخذنصَّر لزوجته أسواراً عالية طوَّق بها مساحة واسعة من مدينة بابل، وردم داخل الأسوار بالتراب، ليرفع فوقه جنائن متدرِّجة عالية، بعيدة عن متناول الناس، وزرع في الحدائق كل أنواع الشجر والنبات العطري الشائع في ميديا، ليعوِّض زوجته من غربتها. وعُمِّرت الحدائق سبعة قرون تقريباً، إذ دمرها زلزال في القرن الميلادي الأول.

استخدم البابليون لري الشجر في أعلى الحدائق، نوعاً من الأنابيب اللولبية التي تدار فتضخ الماء إلى أعلى. وهي لوالب الري التي ادعى الإغريق فيما بعد أن أرخميدس هو مبتكرها. وقد عثر العلماء على وصف لهذه الوسيلة في نقوش أثرية في نينوى، بشمال العراق. وخلف لنا البابليون الكثير من المعلومات عن هذه الحدائق في ألواح مسمارية، مثلما أسهب في وصفها مؤرخون يونان، منهم استرابون وديودورس الصقلي.

قال ديودورس الصقلي في وصفه الحدائق: «إنها مشيدة على شكل مدرَّج، وتشبه المسرح، وقد أنشئت قناطر تحت المصاطب المتدرجة صعوداً، وتحمل هذه القناطر كل ثقل الحدائق المزروعة. والمصطبة العليا وكان ارتفاعها 75 قدماً (أي نحو 25 متراً) هي قمة الحدائق، وهي تساوي ارتفاعاً علو أسوار المدينة. وكانت أسقف القناطر الحاملة للمدرجات، مصنوعة من حجارة طول بعضها 16 قدماً (نحو 5 أمتار ونيف) وفوقها مباشرة طبقة سميكة من القار ثم طبقتان من القرميد المشوي، يشده الملاط (ما نسميه اليوم الإسمنت)، ثم طبقة رصاص تمنع رطوبة التربة من النفاذ إلى السقف. وفوق هذا السقف، طبقة من التراب تتيح لأكبر الشجر أن ينمو. وقد سُوِّي التراب وزرع بكثافة بكل أنواع الشجر. ولما كانت المصاطب متدرجة، فإنها كانت تتشمس، وكان فيها قنوات ماء يضخ بمضخات من النهر».

شك كثير من المؤرخين في وجود الحدائق المعلَّقة، وظنوا أنها خيال شاعر، واستندوا في ذلك إلى أن المدونات البابلية لم تكن قد أماطت اللثام عن وجودها. لكن الألواح كشفت فيما بعد أن أول من وصف الحدائق المعلَّقة في بابل هو بيروسوس الكاهن الكلداني في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد. وقد تبعه فيما بعد المؤرخون الإغريق.

وأثبت الحفر الأثري الحديث في العراق وجود مبنى مدرَّج في مكان قريب. لكن الموضع ناقض ما ذكره المؤرخون الإغريق، عن متاخمة الحدائق نهر الفرات. إلا أن حفريات لاحقة، كشفت على ضفة النهر مباني وأسواراً عرضها نحو 25 متراً. وقد وجدت في المكان آثار بذور تؤكد أن المكان ربما هو مكان حدائق بابل المعلَّقة، أول ما وصلنا من التاريخ حول تشجير المدن في العالم.

قول في مقال

رقاب الشعر

في إطار القضية التي أثارتها القافلة في العددين السابقين، في علاقة القارئ بالشعر المعاصر، بدءاً بالحال في أمريكا، وصولاً إلى الحال عندنا، يضيف الأستاذ عبدالله الوشمي* وجهة نظر مميَّزة في سلوكها اتجاهاً معاكساً للشائع من مواقف وآراء طغت بوضوح على الآراء التي تناولت هذه القضية على المستوى العربي.

لن يستطيع طبيب العيون أن يتنازل ولا أن ينسى أو ينسلخ من سنوات الطب والدراسة عندما تحكُّه عيونه فيبادر لعركها - ولو من باب الغفلة - بيديه، ولن يستطيع، بدرجة أصعب، أن يحدق بعينيه عندما يريد الكشف عليهما، وهكذا العربي والشاعر، تحديداً، عندما يقارب حيثياته الشعرية، وأنا من هؤلاء، فالكلام على الكلام صعب، وأصعب القصائد أو الأقوال هي التي تحاول أن تصف منهج القول وطريقة التنغيم فيه.

* شاعر وأكاديمي

سأتخفف هنا من مسائل البعد الثقافي لمسألة الشعر والشعرية، وسأتجه بقواي كاملة إلى حيث السؤال، فالقارئ ما زال يقرأ الشعر ويتذوقه ويذوب في مضامينه، بل إني أحسب أن قراءته قد زادت وارتفع مستواها، وتعددت أوجه نشاطها، ولكن المحزن أن هذا الاطراد والزيادة إنما نشأ بأسباب عديدة أقلُّها السبب المتصل بالشعر نفسه، وأكثرها يتوزع بين الإعلام ووسائل التقنية المختلفة وهكذا. وهنا يكمن الأمر المعضل ثقافياً، وينمو السؤال باتجاه آخر، ألا وهو الترشيد الثقافي، والبحث عن صيغة أخرى لتسويق الشعر وتقديمه من جديد.

سوق ما زالت رائجة، ولكن...

فالراصد المتابع يجد أن سوق الشعر، من حيث القراءة والمتابعة، ما زالت رائجة، بل إنها تتجه إلى الازدهار والتحول، والعربي ما زال شاعرياً بطبعه، وتتجاوب أصداء الشعر في نفسه، وما زال حنين الإبل يشهد بهذا الثبات، والأكاديميون خاصة يُدركون حرفية ما أقصده هنا، فأوقات الأساتذة وساعاتهم المكتبية وأوقات الحوار ورسائلهم الإلكترونية، تنضح بتجارب الشعر التي يسترشد بها طلابهم، وهذا القول لا ينحصر في الطلاب فقط، وإنما يطرد وينسحب على الطالبات، فكتابة الشعر سُلَم أدبي يغري ببهرجه وإيقاعاته وتوهجه بالدخول في مغامرة القول والإبداع فيه.

ولئن كان ما سبق يُساق على مستوى الرؤية الفردية، فإننا نتلمس من الظواهر ما يشي بالامتداد الشعري بعد الانكماش، والتوسع بعد الانقباض، والمدّ بعد الجزر، فشعراؤنا السعوديون الذين توقفوا، لأسباب مختلفة، عاد أكثرهم وفق شاعريته المعهودة، أو شاعرية متحولة. فمهرجان عكاظ التاريخي يعود من بوابته الجميلة وهي الشعر، ويحفل بأمسيات ثريَّة ومتعددة، وبيت الشعر في نادي الرياض، وجماعته في نادي القصيم، وأمثالهما في نادي جدة وجيزان وغيرها، كلها تتحرك وفق هذه الرؤية وهذا الاتجاه، وهو الاتجاه الذي يُعيد الشعر وجماهيره إلى سيرتهم الأولى.

للحداثة العربية جماهيرها الحاضرة

وربما نتجاوز هذا إلى السقف العربي الكبير لنجد جماهيرية برامج الشعر الفضائية الفصيحة في ازدياد، حتى أصبحت محفزاً اقتصادياً جيداً، واللافت

هنا أن حضوراً واضحاً، وتناغماً لافتاً، يحدثان بين الشعر الحداثي والجماهير الحاضرة، وما عادت القصيدة التقليدية فقط سيدة الموقف والحضور.

وهناك في مصر نجد الاحتفاء بجائزة الشعر لمحمود درويش، والصخب الواضح الذي بدأ ولم ينقطع إلى الآن لمناسبة ذكرى شوقي وحافظ، ولا نستطيع أن نُغفل في هذا العرض السريع التمثيلي الإشادة ببرنامج كتاب في جريدة الذي تنظمه اليونسكو، وكيف احتلَّ الشعر موقعاً لافتاً في برامجه ونشاطه.

وكل ما مضى يدلُّ على أن القارئ ما زال يطارد الشعر، وما زال الشعر قادراً على أن يحمل الواحد منا في صخب مدينة الرياض، مثلاً، ومدنيتها وضجيجها وازدحامها وأوقات الانتظار الطويلة فيها، أن يُكيِّف أوقاته وبرامجه في يوم إجازته ليحضر أمسية شعرية تمتد ساعتين، كما حدث في ليلة قاسم، وهي الأمسية التي أقامها نادي الرياض الأدبي للشاعر البحريني قاسم حداد، وكنت أشاهد في تقديمي للشاعر تحفزَّه وإيمانه بالشعر وفي عيون الحضور يقينهم به، فاختلط المكان بالإعلاميين والشعراء والقاصين والروائيين والأكاديميين في اجتماع وحشد يندر أن نجد مثيله على مستوى الكثرة والتنوع ضمن أي نشاط آخر. هذا يقال وأنا أعي مسار التجربة الخاصة والعميقة بقاسم حداد، أما عن تجارب الشعر الجادة الأخرى كغازي من السعوديين ونزار من العرب، فتلك حكاية أخرى.

فمهما تواترنا على القول بزمن الرواية، أو إن مادية العصر تختلف مع عواطف الشعر، أو خفوت الولع بمناهج الشعر، فإن حضور الشعر وجماهيره ما زال واضحاً، وهو قابل للاشتعال بين فينة وأخرى وفق المحددات والموجهات الثقافية المتعددة، والسؤال الكبير الكبير هنا : عن أي شعر نتحدث؟ وماذا عن الكثافة الجماهيرية في متابعة الرديء والضعيف من القول؟

لا يستفزني كثيراً ما أجده من جماهيرية للضعيف من الشعر، ولا من ضوضاء كضوضاء الحارث بن حلِّزة للشاعر الخطابي المنفلت من حَبكة الفنيات، لأنني أجد ذلك استجابة طبيعية للشعر ورسالته التي يحملها، وهو ما أظنه يتحقق في الشعر القديم أيضاً، فأنا أجزم أن كثيرين كانوا يتحلّقون حول جرير والفرزدق وهم إنما حضروا بسبب العصبية لا الفن، والذين بكوا مع ابن الرومي من أجل ولده أو مع كثيِّر من أجل عزّة، إنما كانوا يقعون في فخ المضامين أكثر من تعلقهم بإضاءات الجمال؛ بل إن كثيرين ما زالوا إلى اليوم يذرفون دموعهم على الصورة الشعرية التي بكاها أبو البقاء الرندي في قصيدته، أكثر من الصورة الحقيقية التي يشاهدونها قريباً منهم في بغداد، وهي المصيبة العظمى بلا شك.

تغير وظيفة الشعر

إن من أزمات الشعر الحديث أنه ينتمي إلى سياق لم يعد يمتلئ بأسئلته، فالوظيفة الإعلامية والإخبارية التي كان ينهض بها الشعر القديم لم تكن تُسعف الشاعر الحديث. ويظلّ النقد والمتابعون والمتلقون يطالبونه بما يطالبون الشاعر القديم به، فاستوى أمامهم محمد الثبيتي مع زهير بن أبي سُلمى، مع انهما ينتميان إلى سياقات ومحاور ثقافية مختلفة، وكأنهم بهذا الصنيع إنما يهزُّون شجرة التوت لتُسقط عليهم ثمرة التفاح، ولعل سبب ذلك يعود في ما يعود إليه أنَّ احتفالية الشعر وإعلاميته قد هربت منه أو سُلبت إلى أجهزة أخرى، وما زال المتلقي يطالِب الشاعر ويقرأ تجربته بوصفه جهازاً إعلامياً يُسجل المفاخر ويرصد المنجزات، مع ان هذه الوظيفة متحولة لا ثابتة، فتواطأت هذه الرؤى مع أجهزة الإعلام على إقصاء الشعر، أو عدم الاحتفاء به، وكأنَّ الإعلام ينتقم من جدِّه التاريخي، وهو الشعر.

إن الشعر -كأي نتاج تختلط في وصفه بين لحظات الفكر وجمح العاطفة- لا يعاني شيئاً، أكثر من معاناته الابتزاز المنهجي الذي يحاصره المتلقي أو المبدع.

فالمبدع حين يقع في شرَك المذهب أو في فخِّه، فإنه يقع في أسر اللا شعر، ويصبح متأخراً ومنطلقاً بعيداً حتى عن نقطة الصفر، إذا كان الشعر هو نقطة المئة، فالشعر هو الذي يُنسيك شكله ولونه وانتماء قائله، الشعر هو الشعر نفسه، وليس شيئاً أكثر من ذلك ولا أقل.

وأما المتلقي، فإنه يوقع الشعر في شركه، حين يدفع المبدع ليكون صوته وبوقه وصداه، أو حين يوقعه في الإطار الحرفي لرؤية الشعر القديمة عند بعض نقادنا القدامى، ومن هنا تحدث أزمة من أزمات الشعر في هويته، ويصبح الشاعر مطالباً بأن يظل في حيز المألوف المعروف من مسالك القول ومباهجه، بينما الشاعر الحق هو الذي يحمل النبوءة في داخله، ولا يرضى إلا بالمبتكَر والجديد من الفعل الشعري، ويحتشد هؤلاء جميعاً في مركبة أبي تمام الذي يؤصل للبكارة في القول على مستوى المذهب والمعنى، وهو حين يفكُّ رقاب الشعر - كما يقول - فإن عيونه الشعرية نابعة من الأرض الجديدة في الوقت الجديد وللمتلقي الجديد.



الإحصاءات تثبت تصدّرها

لماذا نثق في المنتجات الغذائية السعودية ؟

يستطيع المراقب المهتم أن يؤكد، من دون وجود أدلة ملموسة بالضرورة بين يديه، أن المنتجات الغذائية السعودية شقَّت طريقها بنجاح ملحوظ في السوق المحلية والأسواق العربية، وطرحت نفسها منافساً واعداً ومحتملاً ضمن نطاق الأسواق العالمية. ويتوصَّل المراقب نفسه إلى هذا الانطباع من مجموعة ملاحظات واعية أو عابرة، لمدى الثقة التي تحظى بها هذه المنتجات لدى المتسوق السعودي أولاً، والخليجي والعربي ثانياً. وقد يسأل، هل لهذه الانطباعات أساس متين من الصحة، وإن كان الأمر كذلك، فما أسباب هذه الثقة وهذا النجاح؟

فاطمة الجفري حملت هذه الانطباعات والأسئلة، وبحثت لتأتي بالخلاصة التي تهم الصناعي والاقتصادي وقد تهم المتسوق العابر، معتمدة على الدراسات التي توصَّل إليها المعنيون من هيئات مختلفة، وأبرزها الدراسة التي صدرت أخيراً عن مركز تنمية الصادرات السعودية وعنوانها: «آفاق الصناعات الغذائية السعودية».

لوحات المقال: المحترف السعودي - ع.ص.



السوق السعودية سوق واسعة ومتعطشة للمنتجات الغذائية. واليوم، كما أشار تقرير الملتقى الدولي الرابع عشر لمعدات الأطعمة والتموين 2007م، تستورد المملكة ما تزيد قيمته على 5 بلايين دولار كل عام مواد غذائية، أي 63% من مجموع ما تستورده دول الشرق الأوسط.

ولهذا أسباب عديدة منها زيادة قدرة الفرد المالية نتيجةً للانتعاش الاقتصادي، وازدياد عدد السكان، واختلاف أنماط استهلاك الغذاء. ومع ذلك فإن طلب النتاج السعودي الوطني في المملكة وخارجها لا يزال في تنامٍ في موازاة نمو الواردات الغذائية. ففي نشرة إحصاء الصادرات عام 2006م، والتي أصدرتها مصلحة الإحصاءات العامة والمعلومات السعودية، احتلت المواد الغذائية المرتبة الرابعة في قائمة صادرات البلاد. وبلغت قيمة هذه الصادرات 5229 مليون ريال سعودي، أي 0,7% من مجموع قيمة الصادرات. وبذلك زادت 17% على العام السابق، ولا يختلف هذا كثيراً عن معدل نمو الصادرات بين سنة وأخرى، ونسبته 16,5%.

تنوع الصناعة الغذائية

وتتوزع صناعة الغذاء في المملكة على 12 نشاطاً أساساً، من أهمها صناعة الألبان ومنتجاتها، وتليها صناعة العصائر والمشروبات، ومصانع تعبئة الفواكه والخضروات وتغليفها، وحفظ السمك، وصناعة الزيوت النباتية والحيوانية والدهون، وطحن الحبوب والغلال، والخبز ومنتجاته، وصناعة السكر وتكريره، وأعلاف الحيوان والطير، وإنتاج لحم الحيوان والطير وتجهيزه، وصناعة الكاكاو والشوكولاتة والحلوى والسكاكر، إضافة إلى صناعة أغذية ثانوية أخرى.

البداية الخجول

يذكر الدكتور عبدالعزيز الحرة في دراسته «التباين الإقليمي لتطور الصناعات الغذائية في المملكة العربية السعودية» أن بداية التصنيع الغذائي كانت عام 1953م، بإصدار الترخيص الأول لثلاثة مصانع، مصنعين للثلج أحدهما في مكة المكرمة والآخر في جدة، ومصنع للمشروبات الغازية في جدة أيضاً. وكان الحافز على هذه الخطوة حاجة السوق إلى منتجات هذه المصانع في المنطقة الغربية، لتوافد الحجاج ومناخ المنطقة الحار، وعدم وجود ثلاّجات منزلية في ذلك الوقت. ثم توالى إنشاء مصانع الغذاء بوتيرة مصنع أو مصنعين كل عام حتى 1965م، وحذا بعضها حذو المصانع الأولى، فأقيمت



رغم زيادة القدرة الشرائية والانتعاش الاقتصادي وزيادة السكان مع اختلاف أنماط استهلاك الغذاء، ظل طلب الإنتاج السعودي يتنامى خارج المملكة

مصانـع ثلج فـي المدينة المنورة ومكـة المكرمة والرياض وينبع، وأنشئت أنواع صناعة جديدة مثل البسكويت والحلوى التي أقيم مصنعٌ لها في جدة عام 1954م، والمعكرونة التي أقيم مصنعها الأول في مكة في السنة التالية.

وفـي 30 عاماً من بدايـة صنع الغذاء، قفز عـدد المصانع مـن 3 إلى 43 مصنعـاً، إلا أن 10 منها توقفـت عن الإنتاج لتكـرار إنشاء مصانع منتجات محـدودة هي المياه الغازية والألبـان والحلوى، فـأدى الأمر إلى اكتفـاء السوق بالناتج المحلي منها وتشبعها بها. يضاف إلى ذلك أن المستثمرين فـي ذلك الوقت لـم يكونوا حريصين علـى دراسة الجدوى الاقتصادية، وأولئـك الذين حرصوا كانت دراستهم بدائية لا تتفـق مع وضع السـوق، ولذا لم تجـنِ مشاريعهم العوائد الماليـة المرجوة، فلما فرضـت وزارة الصناعة والكهرباء وقتئـذ علـى المصانـع تحديث تقنياتهـا لتناسـب التطور، اضطـرت هـذه المصانع إلـى إغلاق أبوابها لعـدم قدرتها المالية على التحديث.

ومـع التنامي المتدرج لعدد السـكان، وتزايد نسبة الحجاج كل عـام، واستثمـار المملكة فـي صناعة النفـط، ازدادت قدرة السـكان الشرائية ازدياداً ملحوظاً، ولذلك راح معدل إنشاء المصانع يزداد ليصل إلى 3 مصانع في العام، لتلبية طلب متزايد لمنتجات الغذاء، ولتحل الأغذية المحلية محل المستوردة من الخارج. وتدارك المستثمرون خطأهم فتنوع نشـاط صناعـة الغذاء بعدمـا حُصر مدة بيـن إنتاج الثلج والمشروبات الغازية والخبـز. وبذلك خفت حدة المنافسة بين المنتجات المحلية المتشابهة. وفي العام 1973م تغيرت الصـورة تغيراً مثيراً، بسبب الطفرة الاقتصادية، فقد أدت زيـادة كبيرة في سعر النفط إلى زيـادة الدخل القومي من ناحيـة، فوجهت نسبة منـه لتنمية قطاع الصناعـة بإنشاء صنـدوق التنميـة الصناعيـة والمناطـق الصناعيـة، ومن ناحيـة أخرى تصاعدت وتيرة الوفود إلى المملكة للعمل في القطاعين العام والخاص على نحو لم يسبق له نظير. فزاد نمـو مصانع الغذاء إلـى نحو 15 مصنعاً في العام، حتى بلغ مجمـوع عدد مصانع الغذاء السعودية في العام 2006م إلى 605 مصانع.

نجاح بالأرقام وبالأسماء أيضاً

تشيـر التقارير إلى أن المملكة اكتفت اكتفاءً ذاتياً في بعض هـذه الميادين، كصناعـة الألبان، ووفـرت نسبة جيدة من

البنية الهيكلية لصناعة الغذاء السعودية (القيمة بملايين الريالات)

م	النشاط الصناعي	1425هـ		1426هـ		1427هـ	
		عدد المصانع	مجموع التمويل	عدد المصانع	مجموع التمويل	عدد المصانع	مجموع التمويل
1	إنتاج اللحم وتجهيزه (حيوان وطير)	34	1217.84	34	1217.84	34	1217.84
2	صناعة منتجات الألبان	71	6568.88	72	6613.58	72	6613.58
3	تعبئة المواد الغذائية كالخضار والفواكه وتغليفها	97	3228.08	99	3242.98	102	3257.88
4	تعبئة السمك وحفظه	13	391.14	13	391.14	13	391.14
5	صناعة زيوت الحيوان والنبات والدهون	13	772.90	13	772.90	13	772.90
6	طحن الحبوب والغلال	2	153.09	2	153.09	3	159.69
7	الخبز ومنتجات الخبز	84	2790.62	85	2794.12	85	2794.12
8	السكر وتكريره	3	774.34	3	774.34	3	774.34
9	الكاكاو والشيكولاتة والحلوى والسكاكر	42	855.02	43	858.02	45	860.82
10	صناعات غذائية متنوعة	93	1802.06	93	1802.06	95	1808.76
11	علف الحيوان والطير	53	1898.48	53	1898.48	53	1898.48
12	العصائر والمشروبات	86	4288.14	86	4288.14	87	4508.84
	المجموع	591	24750.58	596	24806.68	605	25058.38

* المصدر: دراسة «آفاق تصدير الصناعات الغذائية السعودية» الصادرة عن مركز تنمية الصادرات السعودية، نقلاً عن وزارة التجارة والصناعة

بعض الأغذية الأخرى تراوح بين 50% و60%، كالسمك والدواجن، وثمة توجه متنامٍ لتوفير هذه المنتجات للسوق المحلية وتصدير الفائض منها، إذ زاد مجموع المبالغ المستثمرة في هذا القطاع إلى 25 بليون ريال، وعدد العاملين في مصانعه إلى 66 ألف عامل، وكانت النتيجة زيادة قيمة الصادرات إلى ما يتجاوز 5 مليارات ريال. ويظهر نجاح صناعة الغذاء السعودية أكثر ما يظهر في تفصيله. فعلى سبيل المثال، أحرز عدد من المصانع تطوراً لافتاً، وتعد مصانع الألبان من أبرزها. فقد بلغت حصة صادراتها 35% من مجموع صادرات المملكة الغذائية، وأخذت بعض أسماء الشركات السعودية الكبرى مكانها في منازل السعوديين والعرب، لتصبح علماً يدل على النتاج عموماً بدلاً من كونها اسماً لعلامة تجارية.

وبناءً على نسبة نمو إنتاج الحليب الخام في الأعوام الماضية، تشير الدراسات إلى أن إنتاج الحليب سيزيد 5% في السنة، ويعني هذا إتاحة فرص استثمار جديدة وواعدة لصنع المنتجات الثانوية كالقشدة الطازجة والأجبان وغيرها، وبالتالي قيام مصانع جديدة تقلل المستورد وتسمح بتصدير الفائض إلى أسواق الخارج.

صناعة الدواجن قطاعٌ آخر يشهد نمواً ملحوظاً قياساً على بدايته، إذ قفز الإنتاج من سبعة آلاف طن في السنة عام 1971م، ليبلغ 425 ألف طن عام 2000م، ويواصل نموه ليبلغ إنتاج سنة 2006م، 535 ألف طن. وقد وفر نسبة اكتفاء ذاتي تفوق 60% للدجاج اللاحم، وتزيد على 106% في إنتاج بيض المائدة.

شخصية دولة وطبيعة صناعة

إذن، للانطباع العام الذي كونه المتسوق في شأن المنتجات السعودية ما يدعمه من أرقام وأبحاث، فما الذي دفع بهذه الصناعة إلى هذه القفزات إذا جاز التعبير، وما الذي ميَّز صناعة الغذاء السعودية من غيرها من الصناعة العربية؟

هناك أسباب عامة تكاملت لتنشئ حالة إتقان وجودة مهدّت لنجاح واعد ومتنامٍ، منها ما يتعلق بشخصية المملكة الدولة، ومنها ما يتعلق بطبيعة الصناعة السعودية ذاتها.

أول هذه العوامل توجه المملكة لدعم صناعة الغذاء وتطويرها لدورها الاستراتيجي المهم في ضمان أمن البلاد الغذائي. وتعتمد خطط التنمية الاقتصادية الخمسيّة منذ

توجه المملكة إلى ضمان أمن البلاد الغذائي وحالة الإتقان والجودة مهَّدا لنجاح واعدٍ ومتنامٍ



نشأتها في بداية سبعينيّات القرن الماضي سياسة واضحة ترمي إلى تنمية قطاع الإنتاج الزراعي وصناعة الغذاء لبلوغ الهدف الذي تنشده المملكة بتقليل الاعتماد على استخراج النفط الخام وتصديره وتنمية مصادر الدخل الوطني، تلبيةً لارتفاع معدل الطلب المحلي للمواد الغذائية، نتيجةً لنمو السكان وارتفاع مستوى المعيشة. وركَّزت هذه السياسة على استقطاب التقنيات الحديثة التي تؤدي إلى خفض التكاليف وزيادة الإنتاج. ومما أنجزته التقنية الحديثة تخفيف الاعتماد على اليد العاملة الماهرة المدربة، التي تعاني المملكة نقصها، ووضعت على عاتق الآلة والإدارة الجيدة مهمة إنتاج سلع تتميز بالاتقان والجودة.

حلال أولاً

كذلك خدم ترابط عدد من القطاعات الاقتصادية الأخرى وتكاملها، كشبكة النقل والقطاع الزراعي، صناعة الغذاء السعودية خدمة مباشرة. فتركيز خطط التنمية الاقتصادية مثال على توفير المناخ الملائم لاستمرار القطاع الخاص في الإنتاج والتصنيع الزراعي، ودعمه مادياً وتنموياً بتوفير أساليب الزراعة والري الحديثة في ظروف مناخية صعبة تتسم بقلة المطر وندرة مصادر الماء، ذلّل كثيراً من العقبات أمام منتجي الغذاء المصنَّع، وأمدهم بالمواد الأولية المحلية لصناعتهم.

من ناحية أخرى تولي المملكة حلال المأكل والمشرب اهتماماً مطلقاً، وقد وضعت ضوابط صارمة لضمان استيراد منتجات الغذاء المتفقة مع شريعة الإسلام، إذ ان إضافة الكحول ومنتجات الخنزير اليوم أصبحت شائعة في تكنولوجيا الغذاء في بعض البلدان العربية. ونتيجةً لهذا الحرص الذي لا تخالطه شبهة مرونة ولا تساهل، تكونت صورة معينة عن طريقة تعامل المملكة مع منتجات الغذاء، ويتوقع العامّة ضمن ما يتوقعون سلسلة خطوات تضمن سلامة ما تتداوله الأسواق، بدءاً من الرقابة الحازمة للمنتجات الغذائية المستوردة في موانئ دخول الأسواق المحلية، ومروراً بالتحليل في مختبرات الغذاء للتيقن من خلو تلك المنتجات من الزوائد المحرَّمة، وانتهاءً بوضع سلسلة من أنظمة الجودة ومواصفات المنتجات الغذائية ومعاييرها.

فقد حصلت كثير من مصانع الغذاء على شهادات الجودة العالمية المعروفة بالأيزو (ISO) إلى جانب حصول عدد منها على شهادة تحليل المخاطر ونقاط الرقابة الحرجة المعروفة بالهاسب (H. A. CCP). وأسهم هذا كله في ولادة ثقة مطمئنة ومُعدية للمستهلك المحلي أولاً والعربي والمسلم ثانياً، بمختلف المنتجات الغذائية التي صنَّعتها المملكة، على نحو يمكّنها من منافسة المنتجات الأخرى على الرفوف العربية والعالمية، حتى في الدول الصناعية التي تكثر فيها الجاليات الإسلامية.

وبموازاة حرص سياسة المملكة على الأكل الحلال، هناك انشغال ملحوظ، وإن كان غير معلن، بالأمانة في تقديم الصالح من الغذاء لدى التاجر والصانع السعودي الذي تحتل الأمانة الغذائية، إذا جاز لنا القول، درجة عالية في سلم أخلاق عمله، ولها علاقة بصورته عن ذاته مسلماً من ناحية، وعربياً أميناً من ناحية أخرى.

التغليف والتعبئة

وهناك سبب آخر يدفع مصانع الغذاء السعودية صوب النجاح، هو كونها جزءاً من منظومة الصناعة السعودية التي توسم عموماً بأنها لا تزال صناعة فتية ضمن دول العالم النامية. إلا أن هذه الفتوة في حالة صناعة الغذاء السعودية، لعبت دوراً جيدا لصالحها، فأمدتها بمرونة في اعتناق الاتجاه الحديث في صناعة الغذاء أكثر من تلك الصناعة الجامدة التي تقوم على تقاليد صارمة لا تقبل التغيير بسهولة. ونرى في التفاتها الذكي إلى قيمة التغليف والتعبئة خير مثال على ذلك. إذ يدرك المستثمرون الآن في هذا المجال يوماً بعد يوم، قيمة التعبئة والتغليف في عين المستهلك، أكان إدراكهم لها واعياً أم لا. فالتغليف يخبر المستهلك عن مدى أمان السلعة وسلامتها الصحية، ويقرر مدى جاذبيتها لحواسه المختلفة، ويعطي فكرة واضحة بشكل أو بآخر عن خصائصها وميزاتها، وهو لهذا كله عنصر بالغ القيمة يدفع المستهلك إلى الشراء من هذه العلامة التجارية لا تلك. ولذلك أعادت صناعة الغذاء في السنوات الأخيرة اكتشاف العلاقة بينها وبين صناعة التغليف حليفاً يقدِّم حلولاً ناجحة. فبالإضافة إلى الدور الذي يلعبه في إقناع المستهلك بجودة السلعة، فإنه يقلِّص مثلاً هدر منتجات الغذاء ولا سيما الزراعي مثل البقول الطازجة والفاكهة والخضروات، ويزيد سلامة خزنها وطول مدة صلاحيتها. وأدركت صناعة الغذاء السعودية هذا، والتقطته باكراً من دون انتظار موجة التغيير بهدوء كما تفعل بقية قطاعات الصناعة الأخرى. ويتوجه اليوم ما نسبته 75% من منتجات قطاع التغليف والتعبئة لتلبية حاجة قطاع صناعة الغذاء. ويشير تقرير أصدره الاتحاد العربي للصناعات الغذائية إلى أن المملكة تصدرت قائمة الدول العربية الأكثر تطوراً في هذا المجال، إذ تضاعف عدد مصانع التغليف والتعبئة والمصانع المتخصصة في إنتاج المواد الخام المستخدمة فيه بنسبة تزيد على 80% عما كانت في السنوات السابقة. وأشار التقرير إلى أن هناك علاقة تناسب بين معدل نمو صناعة التعبئة والتغليف، وزيادة الصادرات العربية عموماً، بنسبة تراوح بين 4% و 5%.



العصائر والمشروبات ثاني قطاعات صناعة الغذاء ويزيد الاستثمار فيه على 4.5 مليار ريال



وللإعلان دوره أيضاً

ولأن معرفة الشاري بالسلعة لم تعد مرتبطة بما يخبره عنها بقَّال الحي أو بما يعرفه عن المزرعة التي تنتجها، فإن الإعلان أصبح جزءاً أساساً من مصادر تمده بالمعلومات عن الجديد وعما يستحق الشراء. وتنفق المملكة، حسب تقرير في صحيفة الوطن في 12 يناير من العام الجاري، ما يقارب 3.5 بلايين دولار على الإعلان، وتتصدر في هذا الدول العربية. ولقطاع صناعة الغذاء حصة كبيرة من هذا الإنفاق، الذي لا يتوجه فقط إلى المستهلك المحلي. فالأداة الأشد جذباً لهذا القطاع هي التلفزة بمحطاتها الأرضية والفضائية التي تصل إلى الناطق بالعربية أينما كان على وجه الأرض، وبات طبيعياً أن يعرف المستهلك المغربي مثلاً بالعلامات التجارية السعودية ويؤمن بها، بل يقبل على شرائها حينما يجدها أمامه على رف البقالة أو المتاجر الكبرى.

ومع الأسباب العامة التي أهدت صناعة الغذاء السعودية هذا النجاح، فإن لكل نشاط غذائي سعودي أسباباً تفصيلية تتعلق بطبيعته والظروف المحيطة به، وتضمن نجاحه الخاص، فعلى سبيل المثال نجد أن قطاع العصائر والمشروبات هو ثاني قطاعات صناعة الغذاء، ويزيد الاستثمار فيه على 4.5 مليار ريال. ويقف وراء ازدهاره المناخ الحار في المملكة والمنطقة. وثمة مثال آخر يقدِّمه قطاع السمك، فازدياد الوعي الصحي أثر في معدل استهلاك المواطنين اللحم عموما ولحم السمك خصوصاً.

ولأن المملكة من الدول الغنية بثروة السمك، لامتداد شواطئها على الخليج العربي من جهة والبحر الأحمر من جهة أخرى، استطاع هذا القطاع زيادة إنتاجه ليتماشى مع ازدياد طلبه، فارتفع من 66.5 ألف طن في 2004م ليبلغ 75.3 ألف طن في 2006م. وقد اعتمدت المملكة في الوقت نفسه تطوير مشاريع استزراع السمك، التي تتميز بأنها توفر إنتاج السمك طول العام مع إمكان التحكم في نوعه وحجمه حسب حاجة السوق ورغبة المستهلك. وحسبما يرى المراقبون في مركز تنمية الصادرات السعودية، هناك فرص واعدة لزيادة صادرات هذا القطاع، ولا سيما الروبيان، إلى الأسواق في آسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية، بعدما سمحت دول المجموعة الأوروبية العام الماضي لمنتجات السمك السعودية بدخول دول المجموعة.

في رحلتنا هذه لإثبات صحة افتراض نجاح صناعة الغذاء السعودية، وأسباب هذا النجاح، لاحظنا أن معظم الدراسات كانت تتحدث عن آفاق هذه الصناعة، وسبل تطورها وتقدمها نحو الأفضل، وبعض التحديات التي تواجهها عموماً، أو تواجه بعض قطاعاتها. إلا أننا ارتأينا منذ البداية أن نحتفي بنجاح التجربة، ونشبع فضول من رأى ثمارها ولم يعرف زارعها، وكانت النتيجة خاتمة من خلاصة توصلنا إليها مما وراء السطور، التي اعتنت بدراسة التجربة وتحليل مستقبلها، وقد تكون غابت عنه خلاصات تفسح المجلة لقرائها للتعقيب والمتابعة بشأنها.



«الأوزة السوداء»

هل يمكن حقاً استشراف حركة الأسهم؟

استفاد الباحث نسيم طالب، اللبناني المقيم في الولايات المتحدة، في كتابه الأول «العشوائية الخداعة»، من تجربته في تجارة الأسهم في «وول ستريت» ليؤكد أن توقع مستقبل أسعار الأسهم لا قيمة له، لأن لا أحد يعلم إلى أين تتجه مؤشراتها. ويضيف أن بعد أي ارتفاع أو هبوط مفاجئ لأسعار الأسهم، يتطلع المتخصصون في التداول بسوق الأسهم هذه إلى الوراء، ليقدموا التحليل الذي لا فائدة منه، وليغطوا به جهلهم اتجاه تحرك الأسعار.

أما في كتابه الثاني الذي صدر أخيراً «الأوزة السوداء»، فيقدِّم طالب معالجة معمقة لمفاهيم أوردها باختصار في كتابه السابق. أي ان القول إن «الأوزة السوداء» هو تكملة للكتاب الأول ممكن، ولكنه مكتوب بطريقة أكثر تفصيلاً وإسهاباً.

أيهما يلغي الآخر.. القاعدة أم الاستثناء

يقول طالب في كتابه الجديد إن غير المتوقع هو المفتاح، لا لفهم أسواق الأسهم فقط، بل التاريخ نفسه. فكرته الأساسية في هذا المجال هب أن اختبار أي حدث مرة واحدة أو حتى مرات متكررة، لا يمكننا من توقع تكرار الحدث نفسه في المستقبل. ويسترجع المؤلف نظرية الفيلسوف الإنجليزي دايفد هيوم القائلة إن ملاحظة وجود مليون أوزة بيضاء لا يسوِّغ القول إن «كل الأوز أبيض». لأننا قد نفاجأ بأوزة سوداء في مكان ما تنقض القاعدة.

ووجود هذه الأوزة السوداء حدث مفاجئ يتميز بثلاث صفات:

أولاً: هو غير متوقع.

ثانياً: إن تأثيره علينا كبير.

ثالثاً: إننا ننظر إلى الأمر بعد حدوثه لنتراجع ونقول إنه ليس نادر الحدوث. وإنه كان يمكن توقعه أكثر مما هو كذلك في الحقيقة.

إن وجود هذا «الأوز الأسود» يجعل أي نظرة استشراف مسألة صعبة، والتعلم من التجارب السابقة صعباً بدوره. ويعدد المؤلف كثيراً من الأمثلة بدءاً بالإثنين الأسود عام 1987م، حين عانت سوق أسهم «وول ستريت» أسوأ خسارة لها في يوم، ولم يكن أحد توقعها، وصولاً إلى ظهور الإنترنت وأثرها الكبير غير المتوقع بدوره في اقتصاد العالم.

ويقول طالب: على الرغم من وجود كل هذا «الأوز الأسود» فإننا «نستمر في توقع المستقبل، ونعتقد أننا نجيد ذلك». وهو يروي القصة الطريفة للديك الرومي ليقول إن التجارب السابقة لا تسمح لنا بتوقع المستقبل، بل انها تجعلنا نتوقع الشيء وعكسه في الوقت نفسه. فيقول: «تخيل الديك الرومي الذي يغذَّى جيداً كل يوم مدة طويلة. الأمر يجعله يعتقد أنه إما سيكون في أمان وكل شيء سيكون على ما يرام، مدة طويلة، أو أنه سيتحول إلى عشاء دسم في وقت قريب».

المرحِّبون بالكتاب قلائل أما أثره فواضح

لم تلق نظرية طالب الترحاب في دوائر نظريات شؤون المال. إذ إنه يهاجم أسس الاقتصاد المالي، ويضرب النظرية المعاصرة لنظرية الحقيبة portfolio theory. إذ وفقاً لنظرية طالب فإن النظرية المالية التي تعتمد اعتماداً واسعاً على توقع المستقبل، ليست بلا فائدة فقط، ولكنها خطرة في الوقت نفسه، فهي تعد دليلاً خاطئاً، وتدفع الناس إلى اتخاذ خطوات تصبح فوضى واضطراباً في أسواق المال.

وبالإضافة إلى تأثيرها في الأكاديميين وأصحاب النظريات، فإن أفكار المؤلف أثرت كثيراً في متداولي الأسهم في أسواق المال. إذ ان أفكاره تهدد باختلال مصدر مهم وتقليدي يعتمد عليه المصرفيون والمستثمرون في أسواق الأسهم. فبعد كتاب «الأوزة السوداء»، أصبح يصعب استخدام عذر «حدث غير متوقَّع نادر الحدوث» لتفسير الخسائر الكبرى التي قد تصيب هؤلاء المستثمرين.

فهكذا أجبر الخبراء في أسواق الأسهم على أن يكونوا أكثر صدقاً مع أنفسهم، ومع الآخرين. ومع الشهرة الواسعة التي أحرزها الكتاب، أصبح يصعب تجاهل أي من هذه الأحداث غير المتوقعة التي قد تؤثر في اتجاه السوق. بعبارة أخرى، أجبرهم هذا الكتاب على الاتفاق مع الفيلسوف اليوناني سقراط الذي قال: «إن المعرفة الحقيقية هي معرفة المرء مدى جهله»!

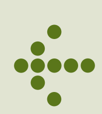
مهى قمر الدين



منظره رمز للتلوث في نظر الناس.. ومع هذا..!

كيس البلاستيك

أفضل اختراع سيئ!!



لأن إلقاءه في الطبيعة صورة مرئية بوضوح للتلوّث المشوِّه لمنظر البيئة والحياة فيها، توجهت حراب البيئيين صوب كيس البلاستيك بشراسة قلَّما واجهها نتاج صناعي حديث، وتحوَّل هذا الكيس إلى رمز للشر البيئي، حتى عند أولئك الذين لا يتجاوز اهتمامهم بالبيئة حدود القشور.

غير أن دراسة متأنية للآثار البيئية الناجمة من استهلاك بلايين هذه الأكياس، ومقارنتها بآثار أكياس الورق التي يحث البعض على العودة إليها، تصحح الكثير من الصورة النمطية الرائجة. وهذا ما يحدثنا عنه هنا أشرف إحسان فقيه*، مسلطاً الضوء في النهاية على ثقافة المجتمع الاستهلاكي التي لا يمكن إعفاؤها من التبعات بإساءة استخدام هذا الكيس، وفي إلقاء العواقب البيئية عليه تملصاً من مشكلة هي في صميم هذه الثقافة.

* أكاديمي وقاص خيال علمي سعودي



لنفترض أنك إنسان محمّل بالهم البيئي والاجتماعي، ولنفترض أنك قد فرغت لتوّك من جولة تسوّق طويلة في المتجر الكبير «السوبر ماركت». موظف الصندوق يحسب قيمة مشترياتك، ويسألك عن نوع الأكياس التي تفضل أن تحملها فيه: ورق أم بلاستيك؟

الإجابة ليست سهلة. فأكياس البلاستيك -المفضلة عادة- مصنوعة من مشتقات بترولية تبدو عصية على الفَناء. وهي مبعثرة في كل أنحاء الأرض، تحملها الرياح لتتعلق بالشجر وتختلط برمال الصحراء، وتحملها الأنهار إلى البحار ليجدها الصيّادون في جوف الحيتان. ويعتقد أن هذه الأكياس ستوجد قريباً طافية على حدود القطب الجنوبي!

لصناعة البلاستيك في البيئة المحيطة مرهون بمدى كفاءة استخراج النفط وتكريره ذاته.

وكل من كيس الورق وكيس البولي إيثيلين (البلاستيك) يحتاج إلى النقل من مواقع الصنع إلى منافذ البيع. وفيما نحتاج إلى سبع شاحنات لنقل حمولة ما من الورق، فإننا نحتاج إلى شاحنة فقط لنقل الحمولة نفسها من أكياس البلاستيك. ويمكننا ترجمة هذا إلى النسبة نفسها من تلويث الهواء في أثناء النقل.

البلاستيك إذن أخف وزناً من الورق، ولديه قابلية أكبر للانضغاط وشغل حيز أصغر حجماً. وهكذا، فمقالب القمامة الضخمة في المدن الكبرى تخصص نصف مساحتها للورق. فيما تشغل نفايات البلاستيك كلها بعد كبسها نحو 10% فقط من مساحة هذه المقالب.



Google

هل يمكن الاستغناء عنها..؟

لكن الورق في المقابل ليس أكثر رفقاً بالبيئة. أكياس الورق مصنوعة أساساً من خشب الشجر. وحتى ننتج المزيد من الورق فإننا نحتاج إلى أن نقطع المزيد من الشجر، رئة الأرض المسؤولة عن حفظ التوازن الحيوي لملايين الكائنات الأخرى، التي ينقرض بعضها مع كل شجرة تسقط.

الآن وقد عُرِفت هذه المعلومات، وعطفاً على الهم البيئي والاجتماعي الذي تحمله، دعنا نكرِّر عليك السؤال: ورق؟ أم بلاستيك؟

الأرقام في صالح البلاستيك

عكس الشائع، فإن مقارنة أعمق ستكشف أن كيس البلاستيك هو أرأف بالبيئة وأفضل من كيس الورق في نواحٍ عدة. فالبلاستيك يُصنع من غاز الإيثيلين ومخلفات تكرير النفط - أين كانت هذه ستصرَّف؟- والتأثير الكلي

وتتوالى الأرقام لمصلحة البلاستيك. فكيس الورق يستهلك صنعه أربعة أضعاف الطاقة التي يستهلكها كيس البلاستيك. بل إن صنع الكيس الورقي (مقيساً بوحدة BTU البريطانية) يُنتج - يا للمفاجأة - ما يزيد بنسبة 70% من ملوثات الجو، وبنسبة 50% من ملوثات الماء، على ما ينتجه صنع كيس البلاستيك. وحتى إذا أخذنا إعادة التدوير في الحسبان، فسنجد أن إعادة صنع كيس البلاستيك يستهلك طاقة يقل مقدارها 98% عن تلك التي نحتاج إليها لإعادة صنع كيس الورق. وعلى كل فكيس البلاستيك لا يتحلل تقريباً، وبالتالي فهو وإن طار نُفايةً شاردة فإنه لن يؤثر في التركيب الكيميائي لبيئته المحيطة.

النتيجة المنطقية هي غلبة كيس البلاستيك على نظيره كيس الورق بالضربة القاضية: أربعة من كل خمسة أكياس تسوّق في العالم مصنوعة من البلاستيك. لكن إذا كان

كيس البلاستيك أفضل من الورق على كل هذه الصعد، فلماذا لا يبدو هذا في شعبيته بين مناصري البيئة؟ لماذا يصوَّر هذا الكيس وكأنه بعبع بيئي مسؤول عن مشكلات تبدأ بالتلوث البصري وتنتهي بقتل الكائنات البحرية والطير المهاجرة؟ أم إنه ليس بريئاً من كل هذه التهم فعلاً؟

ضحية نجاحه الباهر

معضلة «الحالة البلاستيكية» ليست مرتهنة بأزمة النفايات العالمية. فمادة البلاستيك عموماً، وأكياس البلاستيك بالذات، قد رسخت نفسها ضمن أهم مفردات حياتنا المعاصرة. إذ اكتسح هذا الكيس حياتنا منذ قدَّم نفسه أول مرة عام 1977م، وتجاوز بنفسه مفهوم «الحاوية» ليعيد تعريفها في أكثر من وظيفة. نحن نستخدم كيس البلاستيك لنحمل مشترياتنا الرخيصة والفاخرة، ثم نستخدمه لنبطن سلاَّت مهملاتنا. وإذا لم نفعل فإننا نحمل في الكيس نفسه طعامنا اليومي وملابسنا وكل شيء آخر يمكن أن نضعه في أي حقيبة. فقد بات كيس البلاستيك يقوم مقام غطاء الرأس أثناء الاستحمام، ومقام القفاز في حالات الاضطرار، ويمكن أن يستعمل لقياس قوة الريح واتجاهها، ولسد فجوات النوافذ المكسورة، وسُفرة لتناول الطعام. والقائمة تتسع باتساع المخيلة ذاتها.

تعددت أدواره: فهو غطاء رأس في الحمَّام وقفاز للأطباء والجزَّارين وكل ما يخطر ولا يخطر في البال من وظائف

كل هذه المرونة في الاستخدام تسوِّغ الإقبال الشديد على هذا الكيس. الأمريكيون يستخدمون وحدهم كل عام 100 بليون كيس بلاستيك، صنعت مما يقارب 12 مليون برميل نفط. وذلك في مقابل 10 بلايين كيس ورق تقطع لأجلها 14 مليون شجرة كل سنة.

وفي العالم، استخدمنا عام 2001م وحده ما يراوح بين 500 بليون وتريليون كيس بلاستيك. وهو رقم رهيب، ينبئنا من جهة بالنفوذ الذي صار لهذا الكيس في حضارتنا، وينبهنا من جهة أخرى لمدى رخص قيمة إنتاج كيس البلاستيك. وهذا هو أول وجوه اللعنة التي حاقت بهذا النتاج الناجح جداً.

فلأن كيس البلاستيك لا يكلف شيئاً تقريباً، صرنا نتهاون جداً في استخدامه. البائع في محل البقالة سيعطيك كيساً لتحمل فيه حتى جريدتك الصباحية، وأنت ستلقي بهذا الكيس ليتحول إلى مجرد نفاية ما إن تخرج من المحل وقبل أن تصل إلى سيارتك! بل إن مفهوم الكيس الواحد غير قائم أصلاً. فأحدنا قد يستهلك كيسين أو حتى ثلاثة أكياس معاً إذا أحس أن حمولته ثقيلة نوعاً ما، من باب الاحتياط. والنتيجة التي



Google

بعض السمك يظن كيس البلاستيك قنديل بحر، فهل يُلام؟

نعاينها كلنا هي أكوام وأكوام من أكياس متراكمة في منازلنا لإعادة الاستخدام. وعلى الرغم من أن هذه قد تبدو ميزة رائعة لكيس البلاستيك، إلا أن لإعادة الاستخدام هذه حدوداً أيضاً. والخلاصة أن كيس البلاستيك سيؤول في النهاية إلى مجمع القمامة - داخل كيس قمامة بلاستيك كبير!- هذا إذا لم «يهرب» وينضم إلى الأربعة بلايين كيس التي تتسرب خارج ملقى النفايات ومعامل التدوير كل سنة. وهي كافية للالتفاف حول محيط كوكبنا 63 مرة!

هذه الأكياس الشاردة تثير نقمة البيئيين والمراقبين. لأنها صارت تخنق الحياة أينما وجدت. إنها تملأ مجاري الأنهار وتؤدي إلى طفح شبكات الصرف الصحي في المدن. وهي تشوّه المناظر الطبيعية تشويهاً مريعاً. ويكفي التطلع إلى أي من طرقنا الصحراوية لندرك كيف اغتصبت هذه النفاية جمال الطبيعة. أما الأكياس الطافية في المحيطات فهذه تبتلعها السلاحف البحرية التي تحسبها قناديل بحر، فتموت هذه السلاحف المهددة بالانقراض أصلاً. والقائمة تستمر.

إذا كنا قد ذكرنا من قبل أن كيس البلاستيك لا يتحلل بسهولة (تحتاج المواد البترولية التي يصنع منها البلاستيك نظرياً إلى ما بين 20 و1000 سنة لتتفكك)، فإن هذه السمة بالذات تنقلب إلى لعنة أخرى تطارد هذا النتاج. لأنها تعني أن الكيس الشارد سيظل عالقاً في حلق بيئته إلى الأبد. أي اننا نحتاج إلى بذل الأموال والجهود لتعقب ملايين وملايين الأكياس المبعثرة عبر أركان الكرة الأرضية، وإلى سن التشريع لذلك، فتصل المسألة عندئذ إلى المستوى السياسي.

هل من بدائل أو حلول؟

على الرغم من أن مشكلة كيس البلاستيك تبدو بيئية أو حتى هندسية في المقام الأول، إلا أنها في الواقع ذات أصول اجتماعية بحتة. ومناقشة هذه الأصول هي الخطوة الأولى لحل هذه المشكلة.

فالانتشار الطاغي الذي يحظى به هذا النتاج حتى الإسراف المبالغ فيه، كلها مظاهر لثقافة الاستهلاك التي تعصف بحياتنا المعاصرة. كيس البلاستيك يرمز ببساطة إلى مقدرة كل منا الشرائية. وزيادة هذه المقدرة تظهر فوراً بزيادة عدد الأكياس المكدسة في عربة تسوق أحدنا، أو عدد الأكياس التي نحملها ونعود بها إلى بيوتنا بعد جولات التبضع الطويلة.

ربما يكون «السوبرماركت» المصدر الأول لأكياس البلاستيك المتراكمة في منازلنا. هذا السوق في ذاته هو أيضاً رمز للإمبراطوريات التجارية ولوَهم الوفرة الذي تعتاش عليه مجتمعات الاستهلاك. لأن هذه الأسواق عوّدتنا على التنوع وعلى لمّ أكبر قدر ممكن من البضائع تحت سقف واحد. فالطريقة العصرية في التسوق تقوم على تجميع أكبر مقدار من هذه البضائع والسلع، وعلى تجربة أنواع جديدة منها في كل مرة، تدفعها سوق إعلان قوية. ويعني المزيد من المشتريات المزيد من الأكياس والمزيد من النفايات، وبالتالي المزيد من الجدل التشريعي والبيئي الذي أطلقته أساساً أنماطنا التسويقية والاستهلاكية العصرية.

في ضوء هذه القراءة يمكننا أن نفهم كيف تحتل الولايات المتحدة المركز الأخير في مجالات التوعية بمشكلات كيس البلاستيك والبحث عن بديل أيضاً، بين أندادها من مجتمعات العالم الأول في أوروبا وآسيا. بل ان هناك دولاً نامية اتخذت خطوات صارمة بحق كيس البلاستيك لا يبدو أن المشرّع الأمريكي بصدد النظر فيها قريباً. فعلى الرغم من إدراك الساسة الأمريكيين لكامل الصورة، إلا أن المستهلك الأمريكي لا يبدو مستعداً للتخلي عن رفاه كيس البلاستيك. بل انه يدور في حلقته المفرغة: إذا كان كيس البلاستيك ضاراً بالبيئة، فإن بديله الأول هو كيس الورق. ولما كان هذا أشد إرهاقاً للبيئة في صنعه وإعادة تدويره، فلا مفر من العودة إلى كيس البلاستيك.

ثمة مقترحات لتخفيف إنتاج البلاستيك بتصنيع أكياس أقل سماكة من المعتمدة الآن. لكن هذا مرفوض عند المستهلكين الذين يخشون من عدم قدرة الأكياس الرقيقة على حمل ثقل مشترياتهم. أما المتاجر الأمريكية الأخرى فهي تلعب على الحبلين. بعضها ركب الموجة البيئية وظهر بمظهر المهتم بالشأن العام بإعادة استخدام الأكياس القديمة، وعبر حث الزبائن على تقليل استخدام البلاستيك واعتماد حقائب تسوّق لا تُرمى بعد استخدامها. إلا أن المراقبين متفقون على أن بوسع هذه المتاجر أن تبذل جهوداً أكبر مما تفعل الآن. ومع ان بعض الولايات الأمريكية تسعى في سن قوانين تُلزم المتاجر الكبرى إعادة جمع أكياسها وتدويرها مرة أخرى، إلا أن هذه المحاولة تلقى معارضة شديدة في قطاع التجارة المشغول أصلاً بترشيد نفقاته وجهوده. وعموماً فإن موقف بائعي المنتجات الاستهلاكية مفهوم تماماً. فكيس البلاستيك يعطي المشتري المرونة القصوى في تسوقه. إنه الخيار الأمثل لجمع أكبر مقدار ممكن من المشتريات، وجني أرباح أكبر لهذه المتاجر، وانتقال المتسوقين إلى وسيلة أخرى لحمل بضائعهم سيعني حتماً تقليل هذه المشتريات خلال غزوات التسوق اليومية.

قد يبدو هذا المثال الأمريكي متطرفاً في ميله نحو مصلحة رأس المال. لكننا نذكره هنا بالتفصيل، لأن الحالة الأمريكية تبدو مقاربة في محصلتها النهائية للحالة عبر



Google

المشهد المؤذي

الامتـداد العربـي أيضـاً، وإن اختلفت المسوغـات. إذ يقل مستـوى الوعي بالقضية، ولا يبلغ البعد البيئي ولا التشريعي مقـام الهم الحقيقي هنا. لكن كيـس البلاستيك يظل سيد الموقف ومظهراً أكيداً على المشهد في الحالتين.

لكن القصة تتخذ فـي بقاع أخرى من العالم منحى مختلفاً تمامـاً. إذ تبـذل حكومـات عديدة جهـوداً مختلفـة لتقليل الاعتمـاد على أكياس البلاستيـك أو لإنهاء هذا الاعتماد مع توفير بدائل له.

كل من يشاهَد في جبال هملايا في الهند يحمل كيس بلاستيك يُسجن 7 سنوات حداً أقصى ويغرَّم 2000 دولار أمريكي!

ففي العام 2002م، فرضت بنغلادش حظراً تامـاً على استخـدام كيـس البلاستيك في ولايـة دكا، بعدمـا تبيـن أن هـذه الأكياس سدّت القنـوات وسبّبت تفاقـم الفيضانات الموسميـة عام 1988م ثم مـرة أخرى عام 1998م. وللحكومة الآيرلندية تجربة مميزة فـي هذا الصدد. فقد فرضت عام 2002م ضريبة 15 سنتاً علـى كل كيس بلاستيـك يستخدمه المواطن، فـأدى الأمر إلـى خفض استهلاك هـذه الأكيـاس بنسبـة 90% خلال سته أشهر. وقـد صُرفت حصيلة هذه الضرائب في أبحاث البيئة.


Google

هل ندرك مثلها مساوئ التلوث؟

ويُعتمَد أسلوب تطبيق الضريبة هذا في أستراليا وسنغافورة وتايوان وجنوب إفريقيا أيضاً. وتطبقه كذلك بعض الولايات الأمريكيـة، فيما ترفضه أخرى تحـت ضغط الناخب الذي لا يريـد مزيداً مـن الإرهـاق الضريبي! وهنـاك تشريعات أخرى تـراوح بيـن بيع الأكياس للمتسوقيـن في مقابل قيمة معلومـة، وبين السماح بعدد معين مـن أكياس القمامة لكل منزل في الأسبوع، مع فرض غرامة على من يتجاوزه.

إلا أن أشد الخطوات صرامة كان ذلك الذي اعتمدته حكومة ولايـة هيماشـال براديش الهنديـة حيث تعد جبـال هملايا مـزاراً سياحياً عالمياً. ففي صيف 2003م منعت هذه الولاية استخدام أكياس البولي إيثيلين البلاستيكي بأي صورة كانت. وفرضت عقوبة على من يُشاهد حاملاً أياً من هذه الأكياس، تبلغ في حدها الأقصى السجن سبع سنوات وغرامة مقدارها 2000 دولار أمريكي. وفي إفريقيا تفرض تنزانيا حظراً تاما لهـذا الكيس منذ 2007م. كذلك شنـت الصين حملة شعواء عليه بدءاً من 2008م لمنعه تماماً في المستقبل.

وإذن،..
مثل هذه الأخبار قد تبدو متطرفة في غرابتها. لكن الأغرب مـن ذلك هو الحال الـذي قادتنا إليه ثقافتنـا الاستهلاكية المتمـردة علـى الشـأن البيئي والغـادرة بمستقبـل الكوكب وبالأجيـال القادمة. فسفوح جبـال هملايا حيث تلك الولاية الهنديـة، وحتى القمم العالية، ومنها قمة إفرست الشهيرة، كلها تشوهها مناظر الأكياس والنفايات التي يخلفها كل سنة ألوف السياح والمتسلقين. ويصح الكلام نفسه في المنطقة المحيطة بأهرام الجيزة وعلى امتداد سور الصين. الأكياس تطفـو حيث تطل ساعة بيغ بن على نهر التيمز، وحيث تمخر أمواج الجانج والفرات. هذه الأكياس لا تشوه المناظر وتقتل الكائنات البرية وحسب، ولكنها تقتل أيضاً الماشية والسمك وتخنق التربة فلا يسعها أن تنمو بالزرع.

قـد يكـون كيـس البلاستيـك أحد أنجـح المبتكـرات التي ابتكرهـا الإنسـان. لكن نجاحه هذه الأيـام يبدو زائداً على الحد، ومتمرداً على السيطرة.

هـل يعقل أن نحمّل هـذا الكيس وزر كل هذه المشكلات؟ وما هـو الحل النهائي لهذه الأزمة؟ هذه الأسئلة تطرح نفسها في النهايـة. ولا تلبث أن تطفئ جذوتها حقيقـة بسيطة مرّة: إن هو إلا كيس. نتاج جامد لا حياة فيه. إنما بعثرته أيدينا نحن، إراداتنا نحن، أو إهمالنا. نحن البشر الذين اخترعنا الكيس وسواه، ثم علقنا برقبته كل مشكلاتنا وخطايانا.

1 ميزان الولادة لصالح البنات

قبل أن يتدخل الأطباء في شأن الحمل والولادة على نحو ما يتدخلون اليوم، كانت أرقام الإحصاء تشير إلى أن نسبة الذكور إلى الإناث كانت ترجِّح كفة الذكور، بنسبة 104 صبية لقاء كل 100 بنت. لكن وفيات الصبية كانت تعيد الأمور إلى التوازن.

أما الآن بعدما أخذ البشر في بعض البلدان يعبثون بالميزان البشري، لا سيما بالإجهاض، حين يكون الجنين بنتاً، رغبة في الصبيان، بعدما قيدت الصين عدد أفراد العائلة، بدأت عواقب هذا العبث تظهر بكامل خطورتها في الصين وحتى في الهند. فقد أثبتت أرقام الإحصاء أخيراً أن ثمة 132 صبياً يولدون لقاء كل 100 بنت. وينذر العلماء الآن من أن نقص البنات بلغ الآن في البلدين 66 مليون بنت، أي ان 66 مليون صبي لن يجدوا فتيات للزواج حين يبلغون.

ويعني هذا أيضاً أن مكانة البنت ستتعزز، لتعيد التوازن من جديد، ولكن ربما بعد ظهور اضطراب اقتصادي خطير، على صعيد زيادة التنافس والإغراء بالمهر الذي يملكه الموسرون، واجتماعي بسبب النقص والتنافس نفسه ومشكلات العازبين العاجزين عن الزواج، وحتى الإسكاني، إذ ان الصبي في كلا البلدين هو الذي يرث في المعتاد منزل والديه لا البنت.



وفي المقابل تخشى الدراسات أن بقية الكرة الأرضية لن تستطيع تعويض نقص الإناث، عند أكبر شعبين في العالم تعداداً، إذ يزيد تعداد الصينيين والهنود على ملياري نسمة، أي نحو ثلث البشرية كلها. وتفكر السلطات في الصين والهند في حلول، منها إبقاء نتائج الرنين المغناطيسي الذي يستندون إليه الآن لمعرفة جنس الجنين سراً طبياً، أو مكافأة العائلات التي ليس لديها صبية، بعلاوات مالية مغرية. وقد أثبتت كوريا، التي كانت تعاني مشكلة مماثلة، أن حملة التوعية قادرة على قلب الاتجاه، ليعود التوازن الطبيعي بين الإناث والذكور إلى ما كان.

2 المنتصر أعنف من الخاسر

أن ترى فريق الرياضة الذي تناصره يكسب المباراة، يجعلك أعنف من أن تراه يخسر. هذه هي النتيجة المفاجئة التي انتهت إليها دراسة وضعها مجموعة باحثين من جامعة كارديف في بلاد الغال، جنوب بريطانية.

فقد أحصى فريق يرأسه الدكتور سيافارا يازنجام عدد الذين حضروا إلى أقسام الطوارئ الطبية في المدينة، بعد حوادث اعتداء. وجاء في الخلاصة أنه عندما يكون اللعب بين فريقين رياضيين، أحدهما من بلاد الغال، يزداد معدل الحوادث من 21 إلى 30. ولكن حين يكون الفريق المحلي هو المنتصر، يبلغ معدل الحوادث 33، فيما يكون 25 عند الخسارة.

واستنتج الفريق العلمي أن مباراة كرة القدم أو الرجبي التي يكسبها فريق بلاد الغال، تزيد عنف مؤيدي الرابح أكثر من خسارة فريقهم.

ويفسِّر الفريق الباحث هذه الظاهرة بالقول إن الربح ربما يزيد الثقة بالنفس عند المناصرين، لكنهم عزوا الأمر أيضاً إلى مظاهر الابتهاج التي لا تخلو من الإفراط في الأكل والشرب. الأمر الذي يزيد عند مناصري الرابحين حوادث الشجار الزوجي أيضاً.



3 في الطائرات.. الجراثيم أيضاً تحت المراقبة



بعد انتشار فيروس الالتهاب الرئوي الحاد الذي عُرف باسم «سارس»، ومع انتشار الأوبئة مع المسافرين في الطائرات، من بلد إلى بلد، وجد الباحثون حلاً للمسألة: زيادة تهوئة الطائرات.

فقد أيقن العلماء، بعد البحث، أن العدوى التي تنتقل من راكب إلى آخر، صارت عاملاً أساساً في توسع انتشار الأمراض بين القارات. ووجدوا، وهم يحاولون تقليص احتمال انتقال فيروس الالتهاب الرئوي الحاد، أن تهوئة الطائرات تهوئة أفضل، هي الحل المنشود، حسبما يرى مارك جاندرو، مسؤول الطوارئ الطبية في مركز لاهي الطبي في برلنجتون، بالولايات المتحدة. إذ درس جاندرو حالة عشرات المرضى الذين أصيبوا بالمرض المذكور وبالرشح والسل، بعد سفر. ووجد أن مضاعفة التهوئة في الطائرات في مواسم الوباء، تخفِّض إلى النصف احتمال انتشاره.

حتى الآن كان الاعتقاد أن مستوى التهوئة المعتمد، يكفي لحماية الراكب الذي يبعد صفي مقاعد عن المسافر الموبوء. وكان التقدير قائماً على دراسة الحال مع مرض السل. إلا أن الالتهاب الرئوي الحاد، كان قادراً على إصابة ركاب يبعدون 7 صفوف مقاعد عن الإنسان الموبوء. ولذا ارتأى جاندرو أن مضاعفة التهوئة، تحمل الرد على مخاطر سفر الفيروسات والجراثيم.

4 كيف ولماذا نشأت ثلوج القطب الشمالي؟

يعرف العلماء منذ مدة، أن هبوطاً مفاجئاً للحرارة على الكرة الأرضية، منذ 2.7 مليون سنة، أدى إلى نشوء «قلنسوتي» الثلوج، في القطبين الشمالي والجنوبي. لكنهم لم يكونوا يعلمون كيف حدث ذلك، لا سيما أن ثلوج القطب الجنوبي تغطي قارة يابسة، فيما تعوم ثلوج القطب الشمالي على الماء المالح.

ومؤخراً وجد فريق علماء يرأسه جيرالد هوج، من معهد بوتسدام الألماني لأبحاث تأثير المناخ، وفريق أنطوني روسل، من الجامعة المستقلة في برشلونة الإسبانية، أن الأمور ربما حدثت على النحو التالي:

في بضعة قرون، ازداد فرق معدل الحرارة الشتوية والصيفية، ليبلغ 7 درجات مئوية، فزاد تبخر الماء في الحر، وأدت هذه الزيادة إلى سقوط ثلوج أغزر في الشتاء. وعندئذ ظهرت المجالد (كتل الجليد الضخمة المتحركة) في بطاح الشمال في القارات المختلفة. ويرى روسل، أن التراكم اجتاز عتبة معينة في مرحلة ما، وصار هطول الماء في المحيطات كافياً ليبقى الماء العذب فوق سطح المحيط المالح، ويتجمد، ليشكِّل القطب الشمالي المتجمد.



الوجوه

البعض لا ينساها أبداً، والبعض لا يتذكرها مطلقاً

كما يعجز المصاب بعمى الألوان عن رؤية بعض الألوان أو كلها، يعجز المصاب بـ «عمى الوجوه» عن تمييز وجوه الناس عن بعضها.

حتى سنوات قليلة خلت كان يُعتقَد أن عدد الذين يعانون هذه المشكلة قليل جداً، وأن عمى الوجوه يعزى إلى تعرض موضع معين في الدماغ لحادث ما. ولكن ثورة الاتصالات سمحت لمجموعة من أولئك الذين يعانون هذه المشكلة بتجميع بعضهم وطرح مشكلتهم أمام العلم، الذي ما إن وضع أنظمة الاختبار اللازمة، حتى اكتشف أن 2% من البشر يعانون هذه المشكلة، وأن عمى الوجوه لا يعزى فقط إلى الحوادث بل إلى عوامل وراثية.

فريق القافلة يعرض هنا لهذه «المشكلة» المخفية حتى عن الذين يعانونها لأنهم لم يعرفوا يوماً الفرق بين وجه وآخر، وبالتالي لم يعوا ما هو الأمر غير الطبيعي في حالتهم، فيفسِّرون اضطراب علاقاتهم الاجتماعية بأسباب سلوكية لا يفهمونها.



ماذا لو كان البشر بلا وجوه؟ قضية نعرفها في قصص الخيال العلمي، وفي أفلام الرعب. لكن الأمر لدى العلماء يصبح واقعياً أكثر، إذ يحاولون الإجابة عن سؤال: كيف يتعامل المخ مع الوجوه، وكيف يفك رموزها؟ ولماذا يعجز أحياناً عن تمييز الوجوه. وجوه الآخرين، ووجه صاحبه؟

تلعب الوجوه دوراً مهماً في حياتنا، ربما لا نتمكن من إدراكه إلا حين نتخيل كيف يمكن لحياتنا أن تكون من دونها. فالوجه هو الوسيط الأهم والأشد تأثيراً في بناء العلاقات الإنسانية، والبشر يعتمدون على ملامح الوجه في التعبير عن انفعالهم ومشاعرهم، أكثر مما يعتمدون على الكلمات. وبالتالي فإن القدرة على التعامل مع الوجوه وتمييزها وتذكرها وقراءة انفعالها، هي أحد مقاييس المهارة المهمة لتكوين علاقات اجتماعية مع البشر المحيطين، سواء أكانوا في الدائرة القريبة داخل الأسرة والعائلة، أو الدائرة الأوسع التي تشمل الأصدقاء والجيران والمعارف وزملاء العمل. والوجه هو النواة التي يتجمع من حولها كل ما نعرفه ونشعر به تجاه شخص معين. فحين نسمع اسم شخص ما نعرفه، أو يدور في بالنا ما يجعلنا نتذكره، تضيء صورة وجهه على الفور في ذهننا. وكل هذه الأفكار والمشاعر المحفوظة في غرف متناثرة في أدمغتنا، تُستَدعى بسرعة لأنها مرتبطة بعنصر وحيد هو صورة وجه هذا الشخص.

وكما تعد الوجوه وسيطاً مهماً في علاقتنا بالآخرين، فإنها وسيط شديد القيمة في علاقتنا بذواتنا. فالوجه هو الجانب المادي للصورة التي يكونها المرء في داخله عن نفسه. وامتلاكه مجموعة من الملامح التي يعرفها جيداً، ويعرف أنها لا تتكرر في بشر غيره على وجه الأرض، هو الذي يجعله يدرك كونه شخصاً مستقلاً ومتميزاً عن الآخرين.

تختلف طريقة تعامل المخ مع الوجوه، عن طريقة تعامله مع باقي الأشياء التي يدركها بحاسة البصر. إذ يتركز التعامل مع المعلومات البصرية الخاصة بالوجوه في مراكز معينة في المخ غير تلك التي تتولى معالجة باقي المدخلات البصرية. في البداية يصير التعامل مع تلك المعلومات التي التقطتها العين في صورتها الخام، فيحلل المخ ملامح الوجه كلا على حدة، ويستخلص المعلومات البسيطة كالعمر والنوع، والانفعال الواضح. بعد ذلك، تركَّب هذه المعلومات الأولية وتُدمج معاً لتتحول إلى كيان أكبر من مجموع مكوناته. فيتحول الوجه من مساحة تترتب فيها عينان وأنف وفم بطريقة معينة، إلى كيان معين يحتوي على مجموعة من التفاصيل الممتزجة التي لا يمكن الفصل بينها. وفي النهاية تعرض هذه الصورة على مراكز الذاكرة حيث يُعرَّف صاحب الوجه وتُربَط صورته باسمه وباقي المعلومات الدالة عليه في نظرنا.

عندما يتعثَّر المخ في أداء وظيفته العادية

لا يذكر بيل تشويسر متى كانت أول مرة أحس فيها بأن لديه مشكلة ما مع الوجوه. فكلها في نظره مجموعة من الحوادث الصغيرة التي مرت به منذ طفولته. لكنه يذكر جيداً تلك الأمسية التي أدرك فيها عن مشكلته، ما غيّر حياته. كانت تلك واحدة من المرات القليلة التي يجلس فيها لمشاهدة التلفزيون مع صديق له. لم يكن بيل من محبي التلفزيون، وكان يسأل عن سبب تعلق كل من يعرفهم بمتابعته. كان الصديقان يتابعان حلقة من مسلسل ما، عندما سأل بيل لماذا يظهر هذا الرجل ثانية إن كان قد قُتل من قبل في الحلقة. أبدى الصديق اندهاشه، وأوضح له أن الذي قُتل هو غير الذي يظهر الآن. لكن بيل كان يظنهما واحداً طول الوقت.

كانت ملاحظة مزعجة، لكن بيل قرر أن يتتبعها جيداً ويفعل الشيء الذي لا يجد فيه أية متعة: مشاهدة التلفزيون. بعد ساعات قضاها في مشاهدة مجموعة من حلقات التلفزيون، توصل بيل إلى أنه لا يستطيع متابعة الشخصيات ما عدا تلك التي تكون لها هيئات مميزة. قصة شعر مضحكة، أو لحية، أو نظارة، أو قبعة. وفي غياب ذلك، تضيع الأحداث منه، وتصبح مشاهدة التلفزيون كالسير في متاهة معقدة. كذلك أدرك بيل أن مشكلته مع التلفزيون سببها تركيز الكاميرا على وجوه الشخصيات في الأساس، فلا يتمكن من ملاحظة أشياء أخرى تميزهم كالتي يعتمد عليها في التعرف إلى الآخرين في الواقع. هل يستطيع كل البشر تمييز الآخرين من وجوههم وحدها، بينما لا يستطيع هو ذلك؟ يبدو أن الإجابة هي نعم، وإلا لماذا ينفذ مخرجو التلفزيون أعمالهم دوماً بهذا الشكل؟!

هي نعم مخيفة، لكنها كانت في نظر بيل إجابة عن كل الأسئلة التي حيرته طول حياته. فهم بيل لماذا كان كل أطفال المدرسة يعرفون آباءهم حين يأتون لاصطحابهم في نهاية اليوم، بينما لم يكن هو قادراً على إيجاد أمه بسهولة. ولماذا كان جيرانه وزملاؤه في العمل يغضبون منه لأنه لا يحيي أحدهم ولو تحية صغيرة حين يقابله صدفة في مكان ما. ولماذا اضطر إلى اعتزال مهنة المحاماة لأن زبائنه لا يثقون به، ويسألون: كيف يمكنه أن يعرف طريقة تمكنه من رد حقوقهم، إذا كان حين يقابلهم لا يعرف من هم في الأساس!

موضع المشكلة: الفص الصدغي

ظهرت أولى الملاحظات عن هذا المرض إلى العام 1947م، حين قدم العالم الألماني يواكيم بودامر تقريراً عن حالات لاحظها مع جنود تعرضوا لإصابة في الرأس خلال الحرب العالمية الثانية. لفت نظره أن هؤلاء الجنود بعدما عولجوا، وعادوا إلى حياتهم الطبيعية، كانوا يلاحظون أنهم فقدوا القدرة على التعرف على أقاربهم أو المحيطين بهم، وأحياناً

القـدرة على معرفة أنفسهم حين ينظرون في المرآة. فعلى الرغم من معرفة أحدهم أن هذا الوجه لابد أن يكون وجهه ما دام ينظر في المرآة، إلا أن الشعور الطبيعي بالألفة تجاه هذا الوجه اختفى، وكأنه وجه غريب يراه هذا الشخص أول مرة.

عمى الوجوه: مرض يُفسد فهم الأفلام القصصية ويخرب العلاقة بين المريض ومجتمعه

ومـع دهشته، كتب بودامـر تقريره عن تلك الحالات، وأطلق على هذا الاضطراب اسماً لاتينيـاً هـو «prosopagnosia» وهـو اسم يجمع مقطعيـن لاتينيين همـا «prosopo» أي وجه، و«agnosia» أي بلا معرفة.

لـم تكن حالة هؤلاء الجنود الحالـة الوحيدة لهذا المرض. إذ ظهرت بعدهم حالات أخرى مشابهة، لكنها حالات نادرة للغاية يبلغ عددها حول العالم نحو مئة فقط. وتشترك كلها بجانـب الأعراض المثيـرة للدهشة، في تعرُّض أصحابها لضرر معين في المخ قبل ظهورها. فبعضهم تعرض لإصابة خطرة في الرأس بحادث، وبعضهم أصيب بمرض فيروسي يؤثـر فـي المخ، وبعضهم ظهـرت هذه الأعراض لديه بعد الإصابـة بجلطة دماغيـة. وتوصل العلماء بعـد دراسة هذه الحـالات إلى إيجاد عامـل مشترك آخر بينهـم، إذ وجدوا أن الجـزء المتضرر من المخ في كل هذه الحالات هو نفسه ويعرف بالفص الصدغي.

الحالات القليلة تجمع بعضها

ظل هذا المرض فـي نظر العلماء، وعلى صفحات المراجع الطبيـة، خللاً يحدث نتيجـة إصابة المـخ أو منطقة معينة منه بالضـرر، إلى أن نشـرت إحدى المجـلات العلمية في العـام 1976م تقريـراً عن طفلة تعانـي المشكلة نفسها في التعرف إلى الوجوه. كانت هذه الطفلة تشكو صعوبة التعامل مـع رفاقها في المدرسة، لأنهـا لا تستطيع معرفتهم إلا من خلال أصواتهم التي قضت شهرين كاملين حتى تمكنت من حفظهـا والتمييز بينهـا. الجديد في حالة هـذه الطفلة هو أنها لم تتعرض لإصابة في الرأس أو مرض يؤثر في المخ. فحملـت هذه الحالة سؤالاً مهماً عمـا إذا كان الخلل مرضاً قد يحملـه البعض منذ الولادة، لا نتيجـة إصابة تحدث في مراحل متقدمة من العمر. وعلى مدى 25 سنة تالية، ظهرت نحو اثنتي عشرة حالة مماثلة لحالة هذه الطفلة، تزيد معها علامات الاستفهام الباحثة عن أصل هذا الخلل.

مـن العلمـاء الذين أثـارت انتباههم هذه الحـالات، قرَّر كين ناكاياما الأستاذ في جامعة هارفرد الأمريكية، وبراد دوتشين الباحث في جامعة لندن أن يكونا أول من يحل هذا اللغز. ولما كانت ندرة الحـالات إحدى أهم المشـكلات التي واجهتهما ، فكرا في مكان غيـر تقليدي للبحث عن مزيد منها: الإنترنت. ولم يكونا أول مـن يلجأ للإنترنت لفهم هذا المرض. فقبلهما بسنـوات خطرت ببـال بيل تشويسـر الفكرة نفسهـا. فبعدما



StockXchange


Corbis

كأنك في مسرح مقنَّعين: لا تمييز بين وجه ووجه

قرأ كل المراجـع الطبية التي طالتها يده، ولم يجد فيها سوى إشارات قليلة، قرر في بحثه اليائس عن معلومات تفيده في فهم مرضـه، أن ينكفئ على الإنترنت. لم يجد بيـل شيئاً مشابهاً، لكنـه قرر أن يطلق أسئلة في «الفضاء السيبري». أرسل رسالة إلـى إحدى المجموعات التي يعاني أصحابها مشكلات إبصار وكتب فـي عنوانهـا «مشكلة في التعـرف على الوجـوه». وبعد شهـور وفي ذلك المساء مـن خريف عام 1996م وجد بيل رداً على تلك الرسالة. كان صاحب الرد يقول «مرحباً بيل.. قرأت رسالتك، وأعتقد أنني أعاني الأمر نفسه الذي تعانيه».

في السنـوات التالية بعد تلقيه الرد، تعرف بيل على آخرين مثلـه، وأسس معهم مجموعة خاصة لتكـون نادياً إلكترونياً لكل مـن يعاني حالته. وحيـن انتبه إلى حاجتهـم إلى اسم لهـذه الحالـة يسهل تداوله فيمـا بينهم، ابتكـر اسم Face blindness أو عمـى الوجوه، بدلاً مـن المصطلح اللاتيني الذي لا يفهمه سوى الأطباء.

حين اتصل ناكاياما ودوتشين بتلك المجموعة، عرفا أنهما وجدا ما هو أكثر بكثير مما كانا يبحثان عنه. فبالإضافة إلى معرفـة وجود هذا العدد من المصابين بالمرض، استطاعا أن يرسمـا صورة دقيقة لأعراضه، وتأثيره في حياة حامله. أي أنهمـا عرفا من قرب وبالتفصيل كيـف تبدو الحياة في عيون لا تعرف الوجوه.

كانـت الخطوة التالية هي معرفـة مدى انتشار هذا المرض ومعـدل الإصابة به حـول العالم. وكان ذلـك يتطلب إيجاد طريقـة دقيقة للتشخيص، بدلاً مـن الاعتماد على الشكوك أو الملاحظـة التي قد يجمعهـا البعض عن اختلاف طريقة تعاملهم مـع الوجوه عن طريقة باقـي البشر. ولذلك صمم العالمـان اختبـاراً لتقييـم قـدرة التعـرف علـى الوجـوه، واكتشاف الإصابة بهـذا المرض. ينقسم هذا الاختبار إلى جزءين: الأول يختبر القدرة على التعرف على الوجه الجدي الـذي يراه المرء أول مرة، بعد مرور وقت قصير من رؤيته. أما الجزء الثاني فيختبر القدرة على تذكر الوجوه المألوفة التـي يتعامـل معها باستمـرار وعلـى نحو دائم. لـم يكتفِ ناكايامـا ودوتشين بنشر هذا الاختبار في المحافل الطبية، لكنهما وضعاه على الشبكـة الدولية الإنترنت، ليستطيع أي شخص في أي مكان من العالم الوصول إليه.

«عمى الوجوه» ليس نادراً

توصلت دراسة العالمين إلـى حقيقتين مهمتين عن المرض. الأولـى هي أن عمـى الوجوه ليس مرضاً نـادراً، إذ تبلغ نسبة الإصابـة به 2% تقريباً، أي إن مقابل كل 49 شخصاً طبيعياً، هناك شخص يعاني صعوبة بالغة في التعرف على الوجوه. لكن سبـب ندرة الحالات التي علمت بها المراجع الطبية ودرستها وفحصتهـا، هي الظـن السابق أنـه اضطـراب يحدث فقط نتيجـة إصابة المخ بضرر أو مرض، وأن من وُلدوا مصابين به عرفوا العالم هكذا منذ البداية، بلا وجوه مميزة. ولم تكن لديهـم خبرة من نوع آخـر ليقارنوا بها، ولـم يشعروا بوجود خلـل ما يستحق البحث عن تفسير أو سبب، بخلاف المرضى الذين عانوه في مرحلة متقدِّمة من حياتهم، فأدركوا اختلاف ما يواجهونه الآن عن الطريقة التي عاشوها من قبل.

الحقيقـة الأخرى التي توصلت إليها تلك الدراسة هي الدور الـذي تلعبه الوراثة في الإصابة بهذا المرض. فعمى الوجوه مرضٌ وراثي ينتقـل إلى الأبناء من طريـق جينات آبائهم. ولا بد من أن يجد المريض أعراض المرض في أحد والديه، أو يراها في أبنائه. وهذا أحد الأسباب التي تضاعـف معاناة أصحاب هـذا المرض في طفولتهـم، إذ لا يعـرف آباؤهـم إصابتهـم هـم أنفسهم به. فحين يشكو الطفل لوالديه مشكلاتـه فـي التعامـل مـع أصدقائـه في المدرسة لعدم قدرته على تعرف وجوههم، ينكر الوالدان عليه ذلك، ولا يعاملان شكواه بجد. فالأمـر في نظرهم عـادي يختبرونه هم أنفسهم كل يوم.

واحد من كل خمسين، مصاب بهذا العمى، ومع ذلك انتظر العالم انتشار الإنترنت ليكتشفه ويكتشف شيوعه الواسع!

نقلـت أبحـاث ناكاياما ودوتشين هـذا المرض إلى دائرة الضـوء. وخفف ذلـك كثيراً معاناة أصحابـه الذين تختلف حياتهـم كثيراً حين يعرفون طبيعة مرضهم. فتلك المعرفة ترفـع عـن كاهلهـم الشعـور المبهـم باختـلاف لا يعرفون أسبابه، والتهمة الدائم بالغرابة والانطواء، والشعور بالذنب حيـن يفشلون في التعرف على شركاء حياتهم أو أبنائهم أو أقاربهـم. لكن ما زال عليهم بعد ذلك أن يواجهوا كثيراً من التحـدي الذي تفرضه عليهـم مشكلتهم مـع الوجوه. فعلى الرغم من أن التعرف على هؤلاء الذين يتعاملون معهم على نحو دائـم ومستمر يصبـح سهلاً مع الوقـت، إلا أن الأمور تكـون صعبـة دوماً حيـن يدخل آخـرون أول مـرة دائرتهم الاجتماعيـة. إذ يتطلـب الأمـر الكثير من الوقت والجهد لمعرفة المفاتيح المميزة في كل شخص جديد سواء أكانت الملابس، أو الصوت، أو طريقة المشي، أو قصة الشعر، ثم حفظهـا وتعلم التقاطها بسرعة حين يقابلون هذا الشخص فـي كل مرة. والزحام بدوره تحدٍ آخر بالغ الصعوبة. فحتى الوجوه المألوفة التي تعلمـوا جيداً تمييزها بعلامات معينة خاصـة، يصبح إيجادها مهمة شاقـة للغاية وسط بحر من الوجوه.

كيف التعامل مع المشكلة

بعـد مرور سنـوات على إنشـاء المجموعـة البريدية التي أسسها بيل تشويسر، لا تـزال هذه المجموعة مكان اللقاء المعتمـد لمن يعانون هـذا المرض، الـذي يستطيعون من خلالـه تبـادل خبرتهـم حولـه، وحكاياتهـم معـه. كذلك يتبادلـون المقترحات والنصح حـول أفضل الطرق للعيش بـه، والتخلص من ألـوف المشكلات الصغيـرة التي تعد جـزءاً مألوفاً وطبيعياً جداً مـن حياتهم اليومية، كالنصح باصطحـاب جهـاز الآي بـود أو كتاب ما فـي المواصلات العامة، لتجنـب المواقـف الحرجة. ونصيحـة الاحتفاظ بابتسامـة دائمـة أثناء السيـر في الشارع أو فـي المتاجر الكبرى، وإلقاء تحية مهذبة على الجميع تجنبا للوم إن كان منهـم من يعرفونه ولا يتعرفون على وجهـه. أما في اللقاء الاجتماعـي الذي يتعـذر الإفـلات منه فجميعهـم يعرف ضـرورة استخدام عبـارة «سررت للقائك»، بـدل العبارة الخطرة «سررت للتعرف بك».

ولأنه مرض يحمل الكثير من التأثير في الحياة الاجتماعية، يهتم المصابون به بأن يعرف من حولهم عنه ويفهموه. بيل تشويسـر كتب تجربته مع المرض في كتـاب بعنوان «أعمى الوجـوه» أو (Face Blind) فجمع كل الإجابات التي وجدها خـلال رحلة بحثه في هـذا المرض، ثم نشـره على الشبكة الدوليـة، الإنترنـت، ليستفيـد منـه كل من لا يـزال يحمل الأسئلـة نفسهـا التي واجهت بيل بعلامـات استفهامها قبل سنوات. وكذلك فعلت هيذر سيليرز أستاذة الأدب في هوب كوليـدج بولاية متشيجن الأمريكية، التي قررت بعدما كتبت عـدداً من الروايات ودواويـن الشعر وقصـص الأطفال أن تكتب قصتها مع مرضها في سيرة ذاتية تحمل اسم «الوجه أولاً» أو (Face First).

أمـا سيسيليا بورمان فأنشأت صفحة علـى الإنترنت تشرح فيهـا كيف تبدو الوجـوه في عيونها بطريقـة ذكية وبسيطة للغايـة. واستعانـت بمجموعة من الأحجار التـي تتشابه في شكلها كثيراً ولا يفرق بينها إلا أوجه اختلاف طفيفة يحتاج إدراكها إلـى كثير من قوة الملاحظة. أطلقت سيسيليا على كل مـن أحجارها اسمـاً، وجعلتنا نفهم مـن طريق الصور الجهـد الـذي يتطلبه الأمـر منها كي تتعرف علـى الوجوه، بمقارنتـه بالجهد الذي سـوف يبذله أحدنـا بالتأكيد حين يكون عليه أن يبحث عن واحد من هذه الأحجار وسط كومة منها. وكذلك المشكلة الكبيرة التي يسببها لها تغيير الناس ملابسهـم أو لون شعرهـم، أو وجودهم في أماكن غير تلك التي اعتادت على وجودهم فيها.

ولأن مشاهـدة التلفزيـون مشكلة، خصصـت أندريا ميللر مدونتهـا لحلها. فهـي تشاهد الأفلام الجديـدة بالاستعانة بأصدقائها، ثم تكتب ملاحظاتها حولها، وتشرح بالتفصيل ما هـي العلامات المميزة التي يجب على من يواجه مشكلة في التعامل مع الوجوه تذكرها ومتابعتها لتمييز كل شخصية مـن شخصيـات الفلـم، وبالتالـي متابعـة الأحـداث بدقة والاستمتاع بها. تقول أندريا إن الأفلام المثالية بالنسبة لها هـي أفلام هاري بوتر. فـلا أحد يمكـن أن يخطئ التعرف علـى شخصياتهـا ذات الملابس الغريبـة والشعور الطويلة واللحى. وبالإضافة إلى الأشكال والملابس المميزة لأبطال الفلـم الخيالـي، هنـاك دوماً القصـة المكتوبـة التي تعود إليها بصفتها وسيلة مساعـدة مضمونة إذا اختلطت عليها الأحداث.

قصة ابتكار

ميزان الحرارة

عرف الناس منذ القدم الفرق بين البارد والحار، ولبسوا الفراء اتقاءً للبرد، وخافوا النار، عندما أحرقتهم. لكنهم لم يقيسوا الحرارة على النحو العلمي الدقيق، ولم يضعوا للحرارة سلّماً لقياسها، إلا في القرون الأخيرة. حتى بات يصعب اليوم أن نتخيل الدنيا بلا ميزان حرارة، نقيس به حرارة المريض أو الجو أو الفرن.

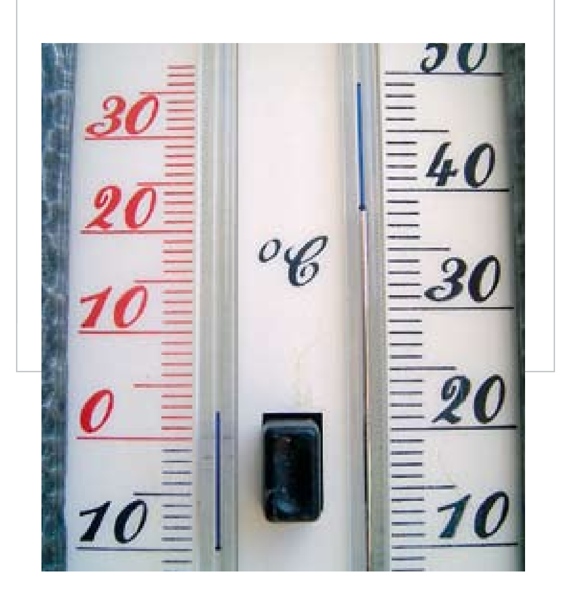
كان أرسطو، فيلسوف الإغريق الشهير (384-322 قبل الميلاد) يصنف الحرارة والبرودة ضمن طبائع الأشياء. فالجسم الحي حار، والمعادن والصخور باردة. ووصف المهندس الإغريقي فيلون، سنة 220 قبل الميلاد، كيف تتمدَّد المياه بالحرارة وتتقلَّص بالبرودة، لكنه لم يخطُ الخطوة التالية التي كان يمكن أن توصله إلى ميزان الحرارة.

هذه الخطوة انتظرت العالِمَ الإيطالي غاليليو غاليلي (1564-1642م)، الذي ابتكر مرقباً للحرارة (Thermoscope)، بين 1593 و1597م. فقد صنع أنبوباً من زجاج، طرفه الأعلى مقفل ومنتفخ على استدارة. أما طرفه الأسفل فمفتوح، ويغوص في وعاء مملوء ماءً ملوناً. حين كان أعلى الأنبوب يسخن، كان الهواء فيه يتمدَّد، فيضغط الماء نزولاً، وحين يبرد، يسحبه صعوداً.

وفيما بعد، أضاف الدكتور سنتوريو سنتوريو (1561-1636م) سلم قياس إلى أنبوب مرقب الحرارة، مقسماً إلى أربعة أجزاء. وجعله للأغراض الطبية. وسمى سنتوريو جهازه الجديد: آلة الحرارة. ووصف الآلة في كتاب له، بأنها لقياس حرارة دم البشر، ومعرفة ارتفاع درجة حرارة الجسم. وفي الكتاب رسم يظهر فيه مريض وقد وضع في فمه أنبوباً مرناً، ينفخ فيه نَفَسَه، وينتقل النَفَس بالأنبوب إلى آلة الحرارة. وعلى الرغم من أن القياس لم يكن دقيقاً البتة، إلا أن هذا كان اللَّبِنَةَ الأولى التي طور عليها المخترعون فيما بعد ميزان الحرارة.

ففي سنة 1718م، صنع أحد نافخي الزجاج، وكان اسمه دانييل جابريال فارنهايت (Fahrenheit 1686-1736)، أنبوباً لقياس الحرارة، ورسم عليه سلم قياس، سماه قياس فارنهايت، على اسمه هو. وعلى هذا القياس، جعل المخترع درجة تجمد الماء الدرجة 32، ودرجة غليان الماء 212 درجة. وقسم المسافة بين الدرجتين، مئة وثمانين درجة متساوية. ولا يزال هذا السلم مستخدماً في الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي سنة 1742م، عدَّل عالم الطبيعة أندرس سلزيوس (1701-1744م) سلَّم فارنهايت، فجعل درجة تجمد الماء صفراً، ودرجة غليانها مئة درجة. وقسم ما بينهما إلى مئة درجة سماها مئوية، وثمة من يسميها درجات سلزيوس، على اسم صاحب السلم الجديد.



وفي عصر الحاسوب والوسائل الرقمية، أخذ عالم الطب يستغني عن ميزان الحرارة العامل بالزئبق، لا سيما لخطورة الزئبق في الناحتين الطبية والبيئية. وصار ميزان الحرارة رقمياً، يستخدم متحسسة إلكترونية.

قصة مبتكر

مرسيل بيك

يوم الإثنين، 20 من ذي الحجة 1414هـ، 30 مايو 1994م، توفي عن 79 عاماً في باريس، البارون مرسيل بيك (Marcel Bich)، مخترع القلم والقدَّاحة وآلة الحلاقة الرخيصة التي تحمل اسمه الشهير: بيك «Bic». وقد جعله اختراعه القلم أولاً، سنة 1953م، واحداً من أغنياء العالم. إذ تحول هذا الاختراع البسيط، إلى رفيق ملازم لا غنى عنه لكل من يريد سهولة الكتابة بالحبر، بعدما كانت هذه مهمة غير مأمونة، بسبب احتمال تسرب الحبر من الأقلام.

تنازل مرسيل بيك، الذي يُلفَظ اسمه هكذا مثلما يُلفظ اسم القلم، رغم اختلاف الكتابة بالفرنسية، عن رئاسة مجلس إدارة مجموعة بيك، سنة 1993م، لواحد من أبنائه الأحد عشر، برونو بيك. وكانت قيمة مبيعات المجموعة في تلك السنة في العالم، بلغت 1.1 مليار دولار، وربحها 70.5 مليون دولار. وتملك شركته كذلك مصنع العطور «جي لاروش»، ومصنع الجوارب «ديم»، ومصنع الملابس الداخلية «روزي».

ولد مرسيل بيك في تورينو الإيطالية، في 29 يوليو 1914م، وكان والده مهندساً، وحصل على الجنسية الفرنسية ودرس القانون والحقوق في باريس، ثم خدم في سلاح الجو الفرنسي في بداية الحرب العالمية الثانية. كان يملك حيوية شخصية متفجرة، وكان شديد الحرص على الحياة الزوجية والأسرية الحميمة.

وعلى الرغم من أن بيك مشهور جداً في عالمنا اليوم، لمخترعاته الرخيصة الثلاثة، ولا سيما قلم الحبر، إلا أن عالم الرياضة عرفه بوجه آخر لا علاقة له بالمخترعات على الإطلاق. إذ ظل مرسيل بيك شبه مهووس برياضة الزوارق الشراعية، حتى أنه اشترك 11 مرة في سباق الكأس الأمريكية، أشهر مسابقات الزوارق الشراعية. وكان المسابق الأول من خارج الدول الأنجلو ساكسونية، سنة 1970م، وحملت زوارقه على التوالي أسماء: فرنسا، ثم فرنسا 1، وفرنسا 2، وفرنسا 3. وقد اشتهر بأنه صاحب أسلوب استعراضي جميل وصاخب في النزول بالزورق إلى الماء.

ورث البارون بيك اللقب النبيل، من الدوق شارل ألبير دي سافوى، وورثه منه ابنه البكر كلود، نائب الرئيس التنفيذي في شركة «بيك». وقد أنجب من زوجتيه: لويز شاموسي، التي توفيت سنة 1950م، ولورانس كورييه دو مير. وله من أولاده الأحد عشر، أحد عشر حفيداً، و3 أبناء حفدة.

اطلب العلم

الزراعة النسيجية

ليث رافع آل جعفر *

تقنية الزراعة النسيجية ليست جديدة، إذ اكتُشفت قبل مئة وخمسة أعوام، عندما أكد العالم الألماني هابرلانت إمكان زرع خلايا نبات في وسط غذائي نقي، شأنه في ذلك شأن البكتيريا والكائنات العضوية الدقيقة والفطر، وتوقع أن تكون الخلية النباتية الواحدة قادرة على تجديد نفسها والنمو حتى تصبح نبتة كاملة. واليوم، بعد مرور أكثر من قرن على هذه التجارب المخبرية الأولى، يتطلع العالم ولا سيما الهيئات المعنية مباشرة بنقص الغذاء ومحاصيل الزراعة وتجارتها، إلى الزراعة النسيجية على أنها واحدة من أهم الأسلحة في مواجهة تدهور جودة النبات وقلة المحاصيل والآفات، وإلى ما ذلك من مشكلات.

فحتى أواسط القرن العشرين، كانت الزراعة النسيجية لا تزال في طور الدراسة والأبحاث. ففي عام 1939م، نجح العالمان الأمريكيان مورا شيجي وسكوج في وضع الأسس العلمية اللازمة لنجاح الزراعة النسيجية.

وبسرعة، بدأ التطبيق في إكثار أنواع من النباتات النادرة التي كانت آيلة إلى الانقراض، وكذلك النباتات ذات القيمة الكبيرة عند الإنسان مثل النباتات الطبية ونباتات تجارة أسواق المال، مثل القمح والبن، إضافة إلى نباتات الزينة.

كانت كل خلية تنمو لتصبح شتلة كاملة مطابقة تماماً للشتلة الأم، من حيث النوع والمناعة من الأمراض وغزارة الإنتاج، وما إلى ذلك من مواصفات. وبسرعة قدم هذا النمط المستحدث من الزراعة نفسه على أنه حل لا لإكثار الأنواع المهددة بالانقراض فقط، بل لمواجهة الأمراض النباتية أيضاً ولا سيما الوراثية.

ولم تتأخر البلاد العربية كثيراً عن استقبال الزراعة النسيجية. وكانت بدايتها الباكرة اللافتة للنظر في العام 1958م في العراق، حيث أُنتِجَت وطُوِّرت أشجار حرجية لشمال البلاد. ولاحقاً راحت الزراعة النسيجية تطرق كل الأبواب العربية، حتى كان عام 1993م حين أنشأ التعاون العربي «شبكة بحوث وتطوير النخيل» التي تعتمد على الزراعة النسيجية لمواجهة تدهور حال النخيل العربي نتيجة آفات الحشرات، ومن أجل إعادة النخيل إلى المناطق التي اختفى منها، وإكثار أنواع معينة يرغب المزارعون فيها أكثر من غيرها.

أما على الصعيد العالمي، وعلى الرغم من الأشواط الكبيرة التي قطعتها الزراعة النسيجية في الغرب، فإن الآفاق لا تزال شاسعة جداً أمام تطورها، في عالم تقول الإحصاءات إن فيه 826 مليون إنسان لا يجدون ما يسدّون به رمقهم، (70 مليوناً منهم في دول القرن الإفريقي وحده). يضاف إلى ذلك ارتفاع سعر المواد الغذائية الذي شهده العام المنصرم.

فهذا العلم الذي ظهر في الوقت المناسب لمساعدة الإنسان في مواجهة الجوع، سيبقى المستقبل البعيد مناسباً له أيضاً، طالما احتاج الإنسان إلى غلال الأرض ليعيش.

* كاتب من بغداد



الصور المختارة هي من ضمن صور التقطها ماجد خلال رحلة للإعلاميين نظمتها الهيئة العليا للسياحة.
وأكثرها في موضوع واحد: الفروسية في نجران. والذي شدّنا إليها التقاط نمط من الفرسان العرب الحقيقيين، هؤلاء هم وهذه خيلهم. بعيداً عن خيل الاستعراضات.

كما فلقتني!

ماجد المالكي، لم يأخذ أي دروس أو دورات في التصوير الفوتوغرافي. ولم يشترك بأي معارض محلية أو دولية. وبالتالي لم ينل أي جائزة للتصوير إلى الآن.

والحقيقة أن هذه الصور ليست أول صور تنشر له، بل أول صور يلتقطها أو.. تكاد!

تجربته في التصوير لا يتجاوز عمرها أسابيع.

والكاميرا «نصف الاحترافية» التي يستخدمها قد تم شراؤها خصيصاً لأول رحلة تصويرية يقوم بها، عمرها أيام!

تستقبله «القافلة» في فاصلها المصوِّر تشجيعاً له واقتناعاً بموهبته.


١٧













حياتنا اليوم



نوافذ من ضوء آخر

أي صدفة جعلت اسم أشهر برامج الكمبيوتر «نوافذ»؟ فعبر مثل هذه النوافذ، وليس سواها، أصبحنا نطل على العالم. صورة الإنسان اليوم، هي صورة إنسان جالس وأمامه شاشة. وربما لا تكاد عيوننا أو عيون الكثيرين منا، تترك الشاشة منذ أن تستيقظ وحتى ساعة تنام. شاشة التلفزيون وشاشة الكمبيوتر وحتى شاشة الجوال وشاشات أخرى عديدة في السيارة والمكتب والمطار وغيرها. شاشات شاشات شاشات!

تغادر عيوننا شاشة كي تنتقل إلى شاشة أخرى، مع فرص قصيرة بينهما.

هكذا أصبحنا « نتفرج» على العالم. كان الناس ينتظرون صناديق الفرجة لتمر بقراهم من موسم إلى موسم. فأصبح أمام كل منا صندوق فرجته يتنقل فيه كيفما يشاء. يطل منه على العالم، عالم المعلومات، عالم الصور، وعالم الأخبار، وعالم الموسيقى، وكل شيء آخر. فضمن النافذة الواحدة نوافذ عديدة. في الكمبيوتر هناك الإنترنت والبريد الإلكتروني وبرامج التحادث المباشر. وعلى شاشة التلفزيون هناك مئات المحطات الواحدة تسلمك للأخرى. نشرة الأخبار تسلمك للفيديوكليب، وهذه تسلمك للمسلسل، ليسلمك لـ «التوك شو»، فيسلمك بدوره للفيلم، والطبيعة والأزياء والسياحة والعلوم.

وإنسان اليوم حين يصحو فجأة ويحزم أمره ويخلع نفسه عن إحدى الشاشات، ويقف ويفتح نافذة غرفته أو يطل من الشرفة إلى الخارج، يساوره شعور شبيه بما كان يحس به ساكن المدينة حين يذهب في رحلة إلى الريف. فيسرّح نظره هنا كما كان يسرح هناك على الجبال الحقيقية، حيث شجر وحجر وألوان وروائح وأصوات غير إلكترونية. وهناك دكان، وبائع متجول وسيارات تمر بأجناسها وموديلاتها العديدة. إنها أشياء مفاجئة بعد ساعات طويلة من الرحلة الشاشية الطويلة. حتى أن دخول زميل في العمل عليه يخلق أحياناً إحساساً بالمفاجأة، أو بتغيّر غير متوقع لذاك «السريان» المتصل.

وحتى خارج البيت والعمل، فهناك شاشة ما أمامنا: إن لم تشد أنظارنا فعلى الأقل تستنفر أحاسيسنا ولو بشكل غير واعٍ. في المطاعم شاشات، وفي المطارات وعلى الطرق وفي داخل السيارة. وحتى هذه الشاشة الصغيرة المثبتة في جوال كل منا، لها حصة في نفوسنا وفي جهاز الانتباه لدينا. تضاء فجأة فننشد إليها لنقرأ اسم المتصل، نحاول التعرف على الرقم الظاهر، نقرأ الرسالة نرد على الرسالة ولا تهدأ نفوسنا وتستقر إلا بعد حين.
وعبر كل تلك الشاشات نور مختلف يشع علينا. ضوء غير الضوء الذي كنا نعرفه..
نور نوافذ غير نوافذنا.

كميل حوا 



لغة الشباب

عربيّة بين التطور والتدهور

بين حين وآخر، يصطدم جيل الآباء أو المسنين عموماً، بأبنائهم يستخدمون في أحاديثهم معهم مفردات غريبة غير مفهومة، تبدو كأنها آتية من لغة أجنبية، وقد تكون كذلك فعلاً في بعض الحالات. ولو أنصت هؤلاء الكبار إلى أحاديث الشباب فيما بينهم، لهالهم عدد المفردات الغريبة هذه.

فريق التحرير جمع إسهام كل من **ابتسام محمد**[1] من السعودية و**أمينة خيري**[2] من مصر و**زياد سحّاب**[3] من لبنان عن لغة الشباب، التي يفترض أن تكون العربية العامية، لكنها تبدو وكأنها عربية عصف بها إعصار أو تعرضت لوابل من أمطار النيازك التي سقطت عليها من أماكن مجهولة.

1 كاتبة سعودية 2 صحافية مصرية 3 موسيقي لبناني

صور المقال: المحترف السعودي



قبل أن نبدأ بـ «محاكمة» الشباب على اللغة التي يتحدثون بها وما أدخلوه عليها من مفردات ليست غريبة عن قواميسنا فحسب، بل عما يمكن لآبائهم أن يفهموه أيضاً، نتوجه بالسؤال إلى هؤلاء الآباء الذين تراوح أعمارهم اليوم بين أربعين وستين سنة لنسألهم: «ألم تستعملوا في شبابكم كلمات مثل «شبّيح» و«فنّاص» للإشارة إلى الشخص المتبجح بشيء غير حقيقي؟ أو «خنْتريش» للشيء المبتذل والرخيص؟ أولم تعَرّبوا كلمة «gigolo» الإنجليزية لتصبح عندكم «جغَلْ» للإشارة إلى الشاب الذي يسعى دوماً وراء الفتيات؟».

ليس انتشار مفردات غريبة على اللغة الفصحى والمحكية، ظاهرة جديدة ولا قضية تطرح على بساط البحث أول مرة. إلا أنها تبلورت خلال السنوات العشر الماضية، على نحو أكبر وأوسع. فأخذت الألفاظ «الغريبة» في التنامي والانتشار، وزادت جاذبيتها بين فئات الشباب المختلفة من الجنسين، ومن شتى المستويات الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية المختلفة. فاللغة الجديدة لا تعتمد «الألفاظ الشعبية» التي تستخدمها الفئات الدنيا في الهرم الاجتماعي على الصعيد الاقتصادي أو الثقافي، كذلك ليست حكراً على طبقات النخبة. ولكنها، ولعل هذه إحدى ميزاتها، نجحت في صهر الشباب من كل هذه الطبقات في بوتقة شبابية واحدة من خلال «تعزيز» رابطة الكلام المتبادل والموحد بينهم.

بدأ الأهالي ينتبهون إلى ما يحدث. فالأب الذي يسترق السمع إلى مكالمة ابنه الهاتفية في إطار الرقابة، يكاد لا يفهم شيئاً مما يقال. وكذلك الأم التي تستمع إلى ابنتها وهي تتحدث إلى رفيقاتها. وتسلل عدم الفهم هذا إلى أوساط المدرسين والمربّين. حتى صارت لغة الشباب هماً من هموم الأهل، يضاف إلى هموم التدريس الخصوصي والمجموع المُحرَز في الثانوية والمصاعب الاقتصادية وما شابه. كذلك باتت تستنفر الخائفين على سلامة لغة الضاد، من الاندثار تحت وطأة اللغة «الخمفشارية» (اللفظ الذي يطلقه الشباب على اللغة والألفاظ التي لا معنى لها).

ومع إمعان الكبار في التعبير عن رعبهم من اللغة الجديدة، وإسهاب الخبراء في التنظير والتحذير من انتشار هذه اللغة الشبابية وكأنها غول سيأتي على حضارتنا، أمعن الشباب كذلك وأسهبوا، ربما برد الفعل، في التحدث بلغتهم، لا بل تمادى بعضهم حتى بلغ محاولة التدوين.

بعض المفردات والتعابير

لو بدأنا بالشباب السعودي على سبيل المثال، للاحظنا أنه يستخدم كلمات ومفردات، بعضها جديد ولا مثيل له في أي قاموس، وبعضها عربي، ولكن السياق الذي تَدرُّج فيه يعطيها معنىً مختلفاً تماماً.

فما معنى أن تصف الشيء بأنه أبو كلب؟ وما معنى أن يطلب منك شخص أن تعطي جنط لشخص آخر؟ ومن ابتكر كلمات مثل «دافور» الإشارة إلى الشاطر، و«هسهسة» لتأدية معنى الانشراح؟

قد يكون بعض هذه التعابير مرتبطاً ببيئة جغرافية محدودة، وله ما يقابله في منطقة أخرى. فعبارة «إديلو جنط» المستخدمة عند شباب المنطقة الغربية من المملكة، ترادفها عبارة «عطه خير» في المنطقة الشرقية، وكلا العبارتين يعني: لا تأبه له أو: لا تهتم به. وكلمة «مزة» عند شباب جدة، ترادفها كلمة «كنديشن» في الرياض للإشارة إلى الفتاة الجميلة.

غير أن هناك لغة مشتركة بين كثير من الشبان على اختلاف المناطق التي ينتمون إليها: حركات، ونَاسة، فلة، وكول، وغيرها.

ليست لغة الشباب السعودي مقصورة على الجنس الخشن. بل يتحدث بها الذكور والإناث على السواء مع بعض الاختلاف البسيط. فالبنات يملن إلى استخدام الكلمات الرقيقة على اللفظ مثل «لول» و«حماس» و«فلة» و«نايس» و«كيوت» و«كول» و«عسل» وغيرها. لكنهن يفهمن الألفاظ الخشنة مثل «أبو كلب»، «انبلق»، «أعطيلو جنط»، «اطبعو»، وغيرها.



بأي لغة يُدردشون؟

والواقع أن بعض المفردات مشترك بين الشبان السعوديين وغيرهم من الشبان العرب. فكلمة «كول» التي تعني «جيد» أو «على سجيته» مستخدمة في مصر ولبنان أيضاً.

في مصر، يمكن للمراقب أن يجمع معجماً كاملاً من مفردات الشباب التي لا يعرف مصدرها: «الاستكانيس» وتعني الراحة والطمأنينة، و«ظرفه» أي أعطاه ظرفاً أو رشاه، و«استمورننج» وهي كلمة تقال في الصباح للإشارة إلى تناول الفطور أو شرب الشاي ليفيق الشاب من نعاسه، فيقول: «ها روح أعمل استمورننج على الأهوة وجاي».

غير أن الشبان المصريين تفوقوا على أقرانهم من البلدان العربية الأخرى في تركيب جمل خاصة بهم، تحولت إلى محطات كلام، تعني أمراً واحداً، مثل: «اختفي شوية» و«احلق له» و«ضربها طبنجة» هي مجرد دعوات للابتعاد عن مشكلات الحياة وتناسيها. و«سلكني المسائل» أي سهل الأمور عليّ، «جيب من الآخر» أي اختصر، «العوء» أي المشكلات، و«بهيظنا الفهايص» أي أطلنا حتى غاب الجميع عن الوعي.

ونصل إلى لبنان لنجد مثلاً ثالثاً. نجد القضية تبلغ حدودها القصوى، ولربما جمعت لغة الشباب اللبناني من المفردات الغريبة ما يبلغ أضعاف مجموعها عند الشباب السعودي والمصري مجتمعين.

ففي لبنان يندر أن يلقي عليك أحد الشبان السلام أو يحييك بالعربية، أو حتى بعبارة مرحباً، إذ حلت محلها التحية الأمريكية «هاي». وأيضاً للتعبير عن الشكر تسمع «ثانكس». ويناديي الشاب صديقه بكلمة «يا مان» الكلمة الإنجليزية التي تعنى «رجل». وإذا شاء أن يصفه بأنه ظريف قال عنه «سلبي»، أمّا «مجنط» فتعني أنه مفلس، و«مدبرس» تعني أنه مكتئب (من كلمة depression بالإنجليزية). وعندما لا يريد الشاب أن يعصر ذهنه للعثور على اسم شيء معين فإنه يسميه «حَفَنْكَليش» أو «الفشِنْكاح»، أو «سكالنس». ويمكن استخدام هذه الكلمات الثلاث لتسمية أي شيء

بـدءاً بالكتاب وانتهـاءً بالبيت أو الجامعـة. أما عبارة «احلق له» التي تعني في مصر «تلافى همه»، فتعني في لبنان: تخلص منه.

القيم الاجتماعية عند حافة اللغة

نعود إلـى مصر، لنشير إلـى انتعاش موجة الأفلام السينمائية التي قام ببطولتها الفنان محمـد سعـد صاحب شخصيـة «اللنبـي» الشهيـرة، فـي السنوات الخمس الأخيرة. وقد بنــى سعد شهرته في صفــوف الشباب معتمداً علـى طريقة نطقه الغريبـة ألفاظاً وكلمات لا أصل لها في أي من قواميس اللغة. وأدهى من الكلمات الجديدة التي ابتدعها «اللنبي» وانتشرت بين الشباب حديثاً، «الحِكَم» والأقوال التافهــة التي صارت مأثورة، وتبدي قـدراً غير قليل من انقلاب القيم والمعايير التي يتناقلها الشباب على سبيل الدعابة (غير المضحكة إلا في صفوفهم)، مثل الجملة التي رددتها والدته في الفلم وهو متجه إلى امتحان محو الأميـة «قلمك في إيدك، مطوتك في جيبك، عينك على ورقة رفيقك»!

العربجليزية لغة جديدة عربية تكتُب بحروف لاتينية درَّجها الخلوي ورسائل النصوص المتبادلة

ومــن دون أن ننجرف مــن حديثنا عن لغـة الشباب إلى الحديـث عن قيمـه، نشير إلى ما يقولـه عالم الاجتماع المصري الدكتور عزت حجازي إن هذه الأعمال الدرامية مــن مسلسلات وأفلام يفترض أن تكون هزلية، وبالتالي تضحك من يشاهدها. والنسبــة الكبرى من مشاهديها من الشبان والمراهقين. «إذ هم يضحكون لها، وعندما يضحكون تتعزز صورها فــي مخيلتهم، وتتحول بطريقة غير مباشرة إلى جــزء من ثقافتهم المختزنة التي تعبر عــن نفسها بالقــول في مواقـف معينة. كذلـك لا يمكن إنكار أثرها في تكوين شخصياتهم وأفكارهم وثقافتهم على المدى الطويل».

محاولات تدوين؟!

هنــاك لغة مكتوبة يعرفهـا الشــاب السعــودي وكذلك اللبنانــي والمصــري، ألا وهــي اللغــة المستخدمـة في الرسائل الإلكترونية ورسائل الهاتف الجوال. فالتواصل الإلكترونــي بيــن عربــي فــي الرياض وآخر فــي كندا مثـلاً، يفترض استخدام الأحــرف اللاتينية لأن أجهزة الحواسيـب في كنــدا غير مزودة أحرفـاً عربية. وهكذا ظهــر الحـل عبر لغـة ثالثـة هــي «العربجليزيـة». وفي هــذه اللغــة المستنبطة التــي تكتب بالأحــرف اللاتينية مــا يماثلهــا صوتيــاً فــي اللغــة العربيــة، تحـل الأرقام محـل الأحرف العربيــة التي ليس لها مماثـل صوتي في الإنجليزيـة فحرف الحاء= 7، والطاء=6، والظاء=6'، والصــاد=9، والعيــن=3، والخــاء=5، والقــاف=8، وهكذا.

وعندمــا يتسلَّم شخــص غيــر متمرس جـداً بالرسائل الإلكترونية العربجليزيـة، فعليه أن يكافح كأي طفل في السادسة من عمره ليتمكن من تهجئة الجملة حرفاً حرفاً وليفهــم فحواها. ناهيك بالاختصــار «المسوّغ» لا سيما في رسائل الجــوال لتوفير التكلفـة والوقت فتحذف من الكلمــات الإنجليزية بضعة أحرف مثـل because التي تصبح coz، وyou are تصبح UR وهكذا.

ولكــن إذا كان للغــة الإلكترونيـة ما يفسِّــر عبثها باللغة بحجـة الوسيلـة وضغوط تدفع إلــى ذلـك، فالمؤكد أن محاولـة الشبان ترسيخ أسـس لغتهم أو لغاتهم الخاصة تَـدرُّج في إطــار الفعـل المتعمـد لأسباب كثيــرة، ليس للضغوط ولا للتكنولوجيا أي أثر فيها.

من العصفوري إلى الروشنة

في مصر، تسمى لغة الشباب بلغة «الروشنة». وقبل عام، خرج صحافي شــاب يدعى ياسر حماية بقاموس خلص بهذه اللغة حمل عنوان «قاموس روش طحن».

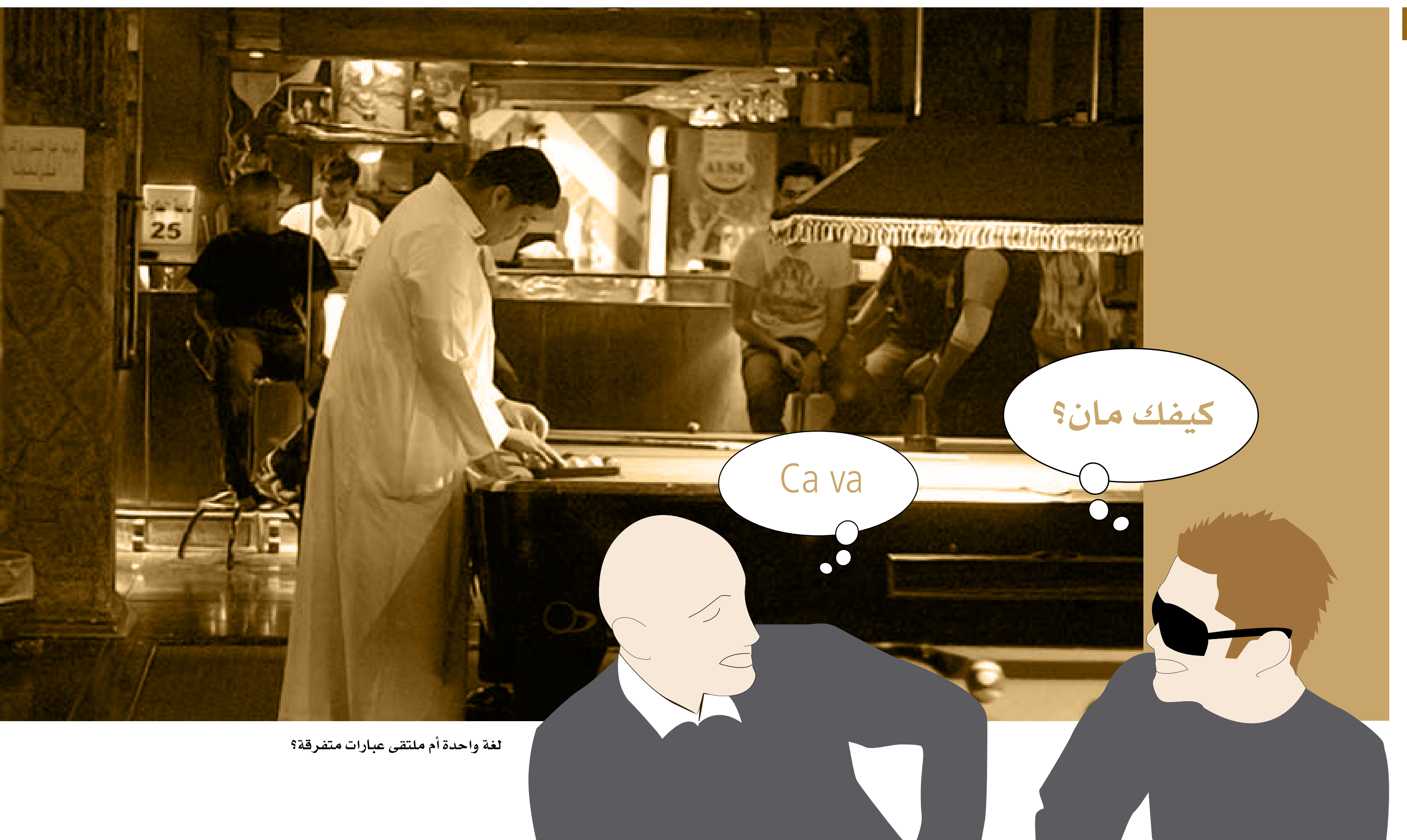
يقــول مؤلف هذا القاموســ إنه وجـد أن الشباب اختار لنفســه ألفاظاً مبتكرة مختلفة لكــي تعبر عنه وعن حبه وحياته وأفكاره وآماله وأحزانه. وهو رأى لغة «الروشنة» هذه: «كائناً ينمو مع الأيام، ويحتاج إلى الرعاية والتربية والثقافة والجهل والغبار والاستظراف، ونكتة حلوة ونكتة بايخــة، وعمل وبطالة وحــب وكراهية». هــذه الأغراض العجيبـة التــي ذكرهــا، حمايـة لنمــو اللغـة الجديـدة وازدهارها هي عنـده «المواصفات المطلوبة من الكائن اللغــوي مــن أجل نمــوه وتضخمه وليمتلئ بقــوة الشباب وحماسه»!؟

أما في لبنان فهناك لغتــان متكاملتان قابلتان للكتابة بشــرط احترام القواعــد الخاصة بهمــا. أولــى هاتين

اللغتين هي «العصفوري»، التي سميت كذلك لأن وقعها على الأذن يشبه زقزقة العصافير استناداً إلى رواية أنصارها. ولهذه اللغة قواعدها الخاصة وأصولها. فكرتها الأساسية إضافة حرف الزاي بعد كل حرف مد في الكلمة، ومن ثم تكرار حرف المد نفسه بعد حرف الزاي، أو يوضع حرف الزاي بعد الحركة ويضاف إليها حرف مد بعدها يكون وفق الحركة، مثل حرف الألف للفتحة، والواو للضمة والياء للكسرة. فكلمة «لغة» مثلاً تصبح في العصفوري «لُزوغَزا». أما إذا كانت الكلمة منوّنة «لغةٌ» تصبح في العصفوري «لزوغزاتزن». ولا أحد يعرف من الذي اخترع هذه اللغة ووضع قواعدها. ولكن المعروف أنها شاعت كثيراً بين تلاميذ المدارس، وتحولت إلى لغة مكتوبة ليحافظ هؤلاء على سرية ما يكتبه بعضهم لبعض، بعيداً عن أعين الأهل والأساتذة وفهمهم على السواء.

غير أن مكانتها تراجعت بعض الشيء في السنوات الأخيرة حسبما يروي الشبان أنفسهم. ويبدو أن هذا التراجع لم يكن في وجه الفصحى بل لغة أخرى هي «الشقلوب».

«الشقلوب» هي كلمة عامية تعني «المقلوب»، وهي تطلق على اللغة القائمة على قلب أحرف الكلمات التي تكتب بدءاً بحرفها الأخير. ولهذه اللغة ثلاث طرق للتطبيق: الأولى هي قراءة الكلمة من اليسار إلى اليمين مع نقل حركة الحرف معه، والطريقة الثانية هي في قراءة الكلمة بالمقلوب مع الإبقاء على الحركات في موضعها الأساسية فكلمة «لُغَة» تصبح «تُغَل». أما الطريقة الثالثة فهي ألا تكون هناك طريقة ثابتة: «المهم أن نفهم بعض»، كما يقول الشباب أنفسهم.



لغة واحدة أم ملتقى عبارات متفرقة؟

ليست بالضرورة شيفرة سرية

وما الذي يريده الشباب أن «يفهمه من بعضه»؟ مـا إن يستشعـر الأهالـي أن ثمة ما هو غيـر مفهوم في كلام ابنهـم أو ابنتهـم (أو حتـى فـي تصرفهم)، حتى تذهـب أفكارهم نحو أقصى احتمـال سوءاً. فلو لم يكن موضـوع الحديـث معيباً لمـا كان هناك ما يوجـب التكتم. هـذا ما يعتقـده الأهل، وإن كانت هذه الظنون والوساوس طبيعيّة ونابعة من الحرص على حسن سلوك الأبناء، فإنها ليست بالضرورة على حق دوماً.

فلغة الشباب لغة مستخدمة عموماً بعيداً عن مسامع الأهل، عندما يكون الشبان وحدهم. وليس محتمـلاً أن يتحدث شاب إلى زميلـه عن أمر معيب على الهاتف وهو يعلم أن والده ربما يستمع إلـى حديثه. فلغة الشبـاب ليست رموزاً لنقـل الرسائل السرية كما قد يعز علـى بال المتشائمين أن يتصوروها أو يصوروها، حتى لو استخدمها بعضهم كذلك في بعض الحـالات. إنها طريقة للتعبير، شاءهـا الشباب مختلفة عما تلقنه من أهله وفـي المدرسة. وضمن هذا الوصف العـام، هناك من يستعملها للفـت الانتباه إليه، أو إدعاء المعرفة أو إثبات المقدرة الكلامية وخفة الظل، أو زعم الانفتاح على الحياة الاجتماعية في أوروبا وأمريكا، وما إلى هنالك.

> **العصفوري ثم الشقلوب والآن لغة الشباب.. وسائل خاصة ليتفاهم أبناء الجيل فيما بينهم.. بعيداً عن تدخل الكبار**

من أين أتت هذه اللغة؟

قبـل الاسترسال في أي تحليل، لا بد من السؤال: ما هي المصـادر التي يستمد منها الشبـاب هذه المفردات، أو يخترع منها معاني جديدة لمفردات قديمة؟

تروي فتاة سعودية عن إحـدى صديقاتها أنها أخطأت مرة فـي كتابـة كلمـة شوكولاتـة بينما كانت تحادث صديقتها عبر «المسنجر»، فكتبت «لاتة» بدل شوكولاتة. وعندما تنبهت إلى الخطأ وأخبرت صديقتها، أجابتها هـذه: «أتعرفيـن؟ أستطيـع فـي ظـرف شهـر واحـد أن أجعـل كلمة «لاتـة» البديل عـن كلمـة «شوكولاتة»، أتتحديننـي؟».

لا، لا عاقـل يجـرؤ على تحدي هذه الآنسـة، لا سيما إذا قـارن أدواتها والمناخ الذي يمكن أن تحقق فيه مسعاها بهشاشـة المكانـة التـي تحتلهـا الفصحى فـي صفوف الشباب.

كثير من مفردات الشباب «ابتُكر» بالصدفة. ففي موقف معيـن تقـال كلمة عن قصـد أو عن غير قصـد، فتكون معبـرة أو مضحكة أو متميزة بإيقـاع جميل على الأذن، فتعلـق فـي الأذهان، وتقـال مباشـرة لاحقـا ومن غير تخطيط عند التعرض لموقف مشابه.

وتلعـب شركات الإعـلان دوراً مهماً فـي الترويج لبعض المفردات والألفاظ جذباً للشباب، مثل «حركات» و«كول» و«رهيبة» و«شوربة» وغيرها.

أمـا التأثيـر الـذي قد يكشف عـن جانب سلبـي في لغة الشباب، فهو في الكلمات الإنجليزية التي دخلت كما هي على عاميـة الشباب العربي مثل «كـول» و«مان» و«واتس أب؟» وما شابه.

فالكثيـر من برامـج التلفزيـون عرض أمـام الشباب العربـي المنهك ببرامج مدرسيـة متخلفة ومناخ أمني وسياسـي مُرهِق (كمـا في لبنان تحديـداً)، وبأوضاع اقتصاديـة صعبـة، صورة للشبـاب الأمريكـي المرح السعيد دومـاً والذي يعيش في بحبوحـة، ويحسد على مشكلاتـه المحـدودة التـي تلقـى الحل فـوراً. (ولعل مسلسـل «فرنـدز» (أصدقاء) الـذي عرض على مدى ست سنوات أو أكثـر، صورة نموذجية لهذه البرامج). فارتسمـت في لاوعي الشباب العربـي المشاهد، رغبة في التقرب من هذا العالم الجميل الخالي من الهموم. ولما لـم تكن هناك مـن وسيلة للتقرب فعـلاً وحقيقة مـن هـذا المبتغـى، تصور البعضـ (عن وعـي أو من دون وعي) إن استعـارة بضعة كلمات من لغة «الكرام» قد تختصر شيئـاً من المسافة الطويلـة الفاصلة بينه وبينهم.

حوار الطرشان بين الأجيال

تسهـم القضية التاريخيـة المسماة صـراع الأجيال، في تأجيج المواجهة بين الأهالي والمسنين من جهة والشباب من جهـة أخرى، فـي شأن اللغـة التي يستعملهـا هؤلاء. وتتغذى هذه المشكلة من اختلاف طبيعي بوجهة الاهتمام والأولويـات والهموم. وكلما اتسعت الفجـوة بين الجيلين

اندفع الشباب أكثر نحو ابتكار لغته الخاصة بعيداً تماماً عن عالم الكبار، وكأنه يريد المزيد من الحدود الفاصلة عن جيل آبائه. وكلما اشتم رائحة غضب الكبار وغيظهم من هذه اللغة تفنن في الإغراق في استخدامها.

وفي مقابل ذلك، يبتعد الكبار، مع انغماسهم في ما يعتري حياتهم من هموم، شيئاً فشيئاً عن عالم أبنائهم واهتمامهم، ويتصورون أن هذه اللغة سلاح يستخدمه الصغار لإغاظة الكبار، أو حتى لتنبيه الكبار إلى وجودهم في هذا العالم. تقول امتثال ثروت خبيرة علم النفس التربوي إن الصغار من شبان ومراهقين يلجأون إلى ابتداع كل عجيب وغريب، ومنها لغة «الروش طحن» لإعلان رفضهم أسلوب تعامل الكبار معهم وهو أسلوب يقتصر عادة على مجموعة من الأوامر والنواهي، وهذا ما يرفضه الأبناء لانتمائهم إلى فئة عمر معروفة بالميل الطبيعي إلى التمرد، أو على الأقل عدم سهولة تقبل الأمور غير المقنعة لهم.

> من حق الشباب أن يكون صاحب القرار في انتقاء مفردات لغته.. وابتكار الألفاظ ظاهرة عالمية. ففي ألمانيا درجت لفظة: يلّا بمعناها العربي نفسه

اللغويون مذعورون أيضا

وليس الأهالي وحدهم في قلق من لغة الشباب. فهناك اللغويون الذين ينقلب القلق عندهم إلى ذعر من هذه اللغة «الخمفشارية» وآثارها المحتملة في اللغة العربية واستخدامها الصحيح، هذه اللغة التي تعاني أصلاً هزات قوية، تارة تحت وطأة منظومة الإعلام وعدد كبير من أدواته الرخيصة، وطورا بسبب تدني مستوى تدريسها وتلقينها في المدارس والجامعات. وقد وصل الأمر في مصر إلى تنظيم ندوات وبرامج تلفزيون وورش عمل تحت شعارات «حماية لغتنا العربية من الهجمة الشنعاء»، و«لغة الضاد مهددة بالفناء»، وغير ذلك من صرخات الإنذار المخيفة التي ترى في هذه الكلمات والمفردات خطراً على الحضارة والثقافة.

وما الذي يقوله الشباب عن لغته بلغته؟

لو استعرنا لغة الشباب المصري على سبيل المثال للتعبير عن موقف الشباب العربي عموماً حيال ما يساق ضده وضد لغته من تهم، لسمعناه يقول شيئاً يشبه ما يلي:

ليس صحيحاً أن الشباب «ما لوش في النظام» (أي ان الشباب ليسوا عاجزين عن لغة الحوار البناء) وهو كذلك لا «يحوكس» (أي يدعي البلاهة). الشباب يطالب «بعدم إغلاق الأبواب على أصبعه» (أي عدم الإمعان في الغضب منه أو افتعال الثورة ضده). ويكفي أن حياته أغلبها «سكح مراجيح على الضيق» (أي أن معيشته كلها ضيق نفسي وتعب)، وهو يحاول بين الحين والآخر أن «يجيب لوَرا» (أي يتراجع نتيجة الضغوط ويعيد التفكير في وضعه الحاضر). هذا التفكير ينتج أحياناً إما من أن «يعلن قراره» (أي ينسحب من الساحة تماماً) أو أن يثبت لنفسه ومن حوله أنه «شاب البرومة ماداستلوش على رفرف» (أي انه عنوان للشرف والنزاهة ورجاحة العقل)، أو يجد نفسه «في الهزيع» (أي يهديه تفكيره إلى فكرة جديدة تماماً قد تحسن حياته ووضعه). وقد يجد الشاب أيضاً نفسه «في الأونطة» (أي انه يعيش في عالم لا يمت إليه بصلة) أو انه «في الهشوم» (أي غارق في الوهم والخيال). ربما نجح الشباب في أن «يبهيظ الفهايص» ولكنه حتماً في حاجة ماسة إلى «من يضع يده على البلف» (أي من يلمس جوهر المشكلة) وليس «الجعجاع» (أي من يصرخ ويهدد دون تصرف فعلي).

ودفاع آخر عن الشباب

وبلغة من هم أقل شباباً، يقول علماء النفس إن اللغة والتفكير وجهان لعملة واحدة. وإن اللغة وسيلة للتعبير عن التفكير. وكلما كانت هذه الوسيلة مرنة، تمكن صاحبها من التحكم بها على نحو تلقائي، وتمكن بالتالي من أن يعبر عن أفكاره تعبيراً أوضح. لذا، فمن حق الشباب أن يكون صاحب القرار في انتقاء المفردات التي تريحه أكثر من غيرها. ولذا أيضاً نجد أن ابتكار ألفاظ وكلمات جديدة ظاهرة عالمية. ففي ألمانيا مثلاً تنتشر بين المراهقين ألفاظ وكلمات غير ألمانية، مثلاً كلمة «يلاّ» العربية، التي تعني «هيّا». لقد نجحت هذه الكلمة في اختراق قاموس اللغة الألمانية، وأصبحت تتردد على نطاق واسع على الرغم من اعتزاز الألمان بلغتهم وتمسكهم بها. فالظاهرة ليست مقصورة على السعوديين ولا المصريين ولا اللبنانيين، بل هي ظاهرة عالمية تتغذى من مستجدات الحياة اليومية بكل ما فيها من أدوات ومفاهيم، لم



الكتابة على الحاسوب بالعربجليزية

تكن مألوفة في الماضي، وما كانت لها أسماء ملائمة، وتعـزز وسائـل الاتصـال المتكاثـرة والمتطـورة مـن انتشارها.

هجوم الكبار المضاد

لا يتأخـر الكبـار كثيـراً في شـن هجوم مضـاد على كل من يدافـع عن الشبـاب ولغتهم. وبدلاً مـن التفكير بما سمعوه من أبنائهم والتفاعل معه بروح منفتحة سعياً في إصـلاح الخلل حيثمـا هو، نرى مساعيهـم تكاد تقتصر علـى تفنيـد الحجـة بالحجـة. فيقولون إن دخـول كلمة عربية إلى لغة الشبـاب الألماني لا تقارن بدخول عشرة آلاف كلمـة إنجليزية على لغة شبابنـا! ويسألون إذا كان تلاميذ الثانويات الأمريكية أو الجامعات الفرنسية تلهوا باختـراع لغة مثـل «العصفـوري» أو «الشقلـوب»؟ ويهز اللغويون رأسهم بالموافقـة. وهم كلهم ليسوا على خطأ تماماً.

فالمرجح أن لغـة الشباب عندنا تتضمَّن من ضخامة الحجم على حساب اللغة العربية السليمة (الفصحى والعامية) ما يجعلها موضع شكوك في شأن سلامتها، أو صدقهـا فـي التعبيـر الذي يجـب أن يكـون عفوياً لا مصطنعـاً لتقليد مـن نعتقده مثلاً أعلـى. ولا شك أيضـاً فـي أن القسـم الأكبر مـن مفـردات الشباب لا تتعدى إطار «الموضة»، أي ما يروج استعماله بعض الوقـت ثـم يندثـر. وإن كانـت مراقبة تاريخ اللغات الحيـة تؤكـد أنها كلهـا مفردات مستنبطـة من لغات أخرى، ودمجتها في قواميسها الرسمية لاحقاً. ولهذا فـإن محاكمـة لغة الشبـاب إذا كان هنـاك ما يُوجب المحاكمة والتقييم والمحاسبـة أو العلاج، فيجب أن تتناول كلاً من مفردات هذه اللغة على حدة، والبحث عن مصدرها وسبب اعتمادها ورواجها، وصدقها في



يمكن أن تسمعها في الرياض وفي باريس وفي بوينس أيرس

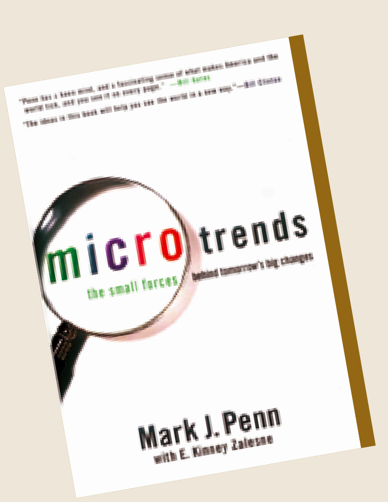
التعبير والكثير غير ذلك، وعدا ذلك، يبقى الحوار حوار طرشان.

لا داعي لنصب المشانق

حتى لـو سلمنا جـدلاً بصحـة كل انتقـاد موجه إلى الشباب، فإن السخط عنـد بعض الأهالي والمسنين يصـل إلى حـد اتهـام الشبـاب بمـا يتجـاوز كثيراً «مسـاوئ» لغتهـم الخاصة بهم. ويـنـدر أن يسمع من يراقب هذه المسألة كلامـاً بالاعتدال والثقة اللذين يميـزان كلمـات الأستـاذ سيـد أحمد مدرّس اللغة العربيـة في إحدى المدارس الثانوية في مصر منذ 34 عاماً. فهـو يعترف بأنه كثيراً ما يتعرض لمواقف حرجة فـي الفصل، حين يبدأ الطـلاب في مناقشة قضيـة ما بلغتهـم الخاصـة التي يفزع مـن ألفاظها المستخدمـة، والأدهى من ذلـك أنه لا يفهمها. لكنه يعود ويقول:

«أحاول قدر الإمكان أن أعطـي أولئك الأولاد العذر فيما يفعلون، بل أشفق عليهم في كثير من الأحيان. فوقـت كنت في عمرهم كان لـدي عدد من مصادر التواصـل ومـوارد البحث عن المعلومـات ومناقشة القضايـا التـي تشغلنـي، فالأستـاذ فـي المدرسة كان صديقـاً وأبـاً، وعائلتي الصغيـرة كانت مهتمة بـي وبإخوانـي وبتربيتنـا، لا مجـرد أكلنـا وشربنا وتعليمنا، كذلك كان المشهد السياسي والاجتماعي والاقتصـادي منبئا بكثير من الأمـل في المستقبل، حتـى لـو كان أملاً غيـر واضح أو مبالغـاً فيه بعض الشـيء. أمـا الآن فمعظم الشباب يعيش في خواء كامل، وهذا الخواء ليـس طبيعياً، وهو كذلك مثبط للهمـم وقاتل للطمـوح. وأجدني متقبـلاً لردود فعل الشبـاب سـواء لغتهـم العجيبـة أو تصرفهـم غير المقبول».

ولا يـرى الأستاذ سيد أحمد أن هذه اللغة مهددة للغة العربيـة، «إنها لغـة راسخة تماماً. فهـي لغة القرآن الكريـم، وهي إن كانت تتعرض أحياناً لهزّات، فذلك بسبـب التراخي والإهمال فـي تدريسها وتنمية حبها واستخدامها بين الصغار، أي انها خطأ الكبار»، فلا داعي إذن لنصب المشانق».



«الاتجاهات الدقيقة»

عندما يصبح الجزء أهم من الكل

في منتصف التسعينيات من القرن الماضي عمل مارك جي. بن مستطلعاً للرأي في حملة الرئيس بيل كلينتون. في ذلك الوقت، كانت الفكرة الشائعة تقول إن قرار التصويت لذلك المرشح أو ذاك يقع في يد رب الأسرة، إلا أن الحقيقة كما أشار بن في تحليله لنتائج استطلاعات الرأي، بيَّنت أن أغلبية المصوتين من الرجال كانوا قد حسموا أمرهم سلفاً وقرروا لمن ستذهب أصواتهم، وبالتالي تضاءلت قدرة كل الحملات الانتخابية على التأثير عليهم.

عندما خلص بن إلى هذه النتيجة بحث عن شريحة أخرى يمكن أن تستهدفها حملة الرئيس كلينتون بالإقناع، وبالفعل، وجدها ممثلةً في من سمَّاهم «أمهات الكرة» أو soccer moms، الأمهات اللاتي يعملن في الضواحي، ويكرسن أوقاتهن للعمل ولرعاية أطفالهن (وقد أتى اسمهن من حضورهن لكل مباريات كرة القدم التي يشارك فيها أطفالهن في فريق المدرسة). لم تكن السياسة الخارجية للولايات المتحدة تدخل في اهتمام أمهات الكرة، ولذلك لن تجدهن مهتمات حقاً بأي حزب يتسلَّم السلطة في البلاد، إلا أن الأمر يختلف حينما يتعلق بقدرة رئيس وفشل آخر على فرض قوانين تضمن لهن ولأطفالهن معيشة آمنة. وبناءً على تقرير بن، توجهت الحملة لاجتذاب هؤلاء السيدات فأدرجت ضمن برنامجها السياسي قوانيناً للحد من انتشار المخدرات في المنازل، والرقابة على العنف في برامج التلفزيون، وتوحيد الرداء المدرسي. وبذلك، حُسمت المعركة الانتخابية لصالح بيل كلينتون وغدا رئيساً للولايات المتحدة.. وغدت هذه الشريحة، شريحة «أمهات الكرة» هدفاً جديداً لكل الحملات الانتخابية التالية. إلا أن مارك جي. بن يعود ويقول في كتابه الجديد.

«أمهات الكرة» كان جزءاً من فكرة عامة يدعو إليها مارك جي. بن في كتابه الجديد «Micro Trends» الذي وصل مؤخراً إلى المكتبات السعودية. وتقوم هذه الفكرة على أساس أن أقوى العوامل التي تغير طبيعة المجتمعات سواءً كان هذا المجتمع هو المجتمع الأمريكي أم غيره هي تلك الاتجاهات الدقيقة التي تكاد لا ترى.. الاتجاهات التي تجمع بين جماعة من الناس -مهما تناهى عددهم في الصغر- وتوحدهم ليصبحوا قوة لها تأثيرها على المجتمع. يقول بن في مقدمة كتابه إن هناك مفاهيم معينة تأسست عبر عقود حتى امتلكت ثباتاً أشبه بالثبات الذي تمتلكه الحقائق، كالمفهوم السائد بأن العنف بين الشباب في تزايد مستمر، وأن الإرهاب ينتج عن الفقر. الإعلام يركز على كل الحقائق والروايات التي تدعم هذه المفاهيم، حتى يصبح من الصعب إن لم يكن من المستحيل على المشاهد العادي أو المدقق أن ينظر في الاتجاه الآخر.

في الوقت نفسه، فإن الحرية التي يستطيع معها الفرد أن يشكل حياته وفقاً لخياراته البحتة المختلفة تماماً عن خيارات جاره أو صديقه أو أخيه تعاظمت نتيجةً للثورة التكنولوجية، ولذلك أصبح أمام كل منا مجموعة هائلة من الخيارات مما يجعل حياة كل واحد فينا أكثر فردية كما لم تكن عليه من قبل. أدى هذا إلى اختلاف يصعب معه التقاط العامل المشترك الذي قد يجمع بين شخصين عاشا في الحي نفسه وواجهتهما الظروف نفسها. كلما تعددت الخيارات، تعددت وكثرت الطرق التي يمكن أن تتشكل بسببها جماعات قد تكون صغيرة في العدد، إلا أن تأثيرها ليس بالهين. لذلك، يقترح بن على مستطلعي الرأي وعلماء الاجتماع التركيز على تحليل وتجميع الأنماط المنطقية التي على أساسها يقوم الأفراد باتخاذ قراراتهم، وبالتالي تأليف جماعات ذات ميول دقيقة، يجمع بينها نشاط أو اهتمام معين، بدءًا من الهوايات التي قد يمارسوها في أوقات فراغهم وانتهاءً بوجهاتهم التي اختاروها هدفاً لحياتهم.

وبناءً على هذا المنهج الذي وضحه في مقدمة الكتاب التي لا يتجاوز عدد صفحاتها العشرة، قام بن بدراسة مجموعة من الاتجاهات الدقيقة في مناحي مختلفة من الحياة الأمريكية، كالعلاقات والحب، الحياة العملية، العرق والدين، الصحة، التكنولوجيا، الأزياء، المراهقين، التعليم، الطعام، الحياة العائلية... وعدة مناحي أخرى. وتحت كل منحى، تجد مجموعة من الاتجاهات الدقيقة التي قد لا يتجاوز عددها العشرة. إلا أن بن يوضح مرة أخرى أن هذه الاتجاهات الدقيقة الواردة في كتابه ليست حصرية، إنما هي أمثلة على الاتجاهات الدقيقة التي يستطيع الباحث المدقق الوصول إليها وبالتالي استهدافها أو تفعيلها في التسويق أو الحملات الانتخابية أو حتى شحن الرأي العام للتغيير الإيجابي.

صورة شخصية



بلغ السبعين من العمر ولا يزال يعمل رافضاً التقاعد والانزواء في البيت. أما ميدان عمله فهو بسعة منطقة نجران بجبالها وسهولها وصحاريها وآثارها وأسواقها وكافة معالمها الحضارية. إنه المرشد السياحي سعيد جمعان آل سعيد الذي تنطبع صورته المحببة في ذاكرة ألوف السياح الذين يزورون المنطقة، ومنهم عبود عطية الذي عاد بهذه الصورة الشخصية عنه.

رفيق السائح في نجران

سعيد جمعان آل سعيد

التقيناه منذ اللحظات الأولى لدخولنا بهو فندق «الهوليداي إن» في نجران خلال رحلة قافلة الإعلام السياحي الثانية التي نظَّمتها الهيئة العليا للسياحة. وعلى مدى ثلاثة أيام كان أبو سند خير مرشد ورفيق خلال تجوالنا في ربوع المنطقة ومواقعها السياحية والأثرية.

لفتتنا أولاً حيويته التي لم تنل منها سنواته السبعون، ومن ثم لفتتنا معرفته لأكثر من لغة أجنبية. ولربما كان تحالف ثقافته وخبرته الواسعة في الحياة مع تقدمه في السن هو ما جعل أبو سند يجمع في شخصيته الهدوء إلى الحيوية، والوقار إلى المودة التي يعامل بها ضيوفه أياً كانت أعمارهم، فيعاملهم معاملة الأصدقاء الذين يعرفهم منذ زمن بعيد.

البداية من أرامكو

مجلة القافلة؟ أرامكو السعودية؟ أبو سند يعرف الشرقية وأرامكو. فيقول إنه كان في الخامسة عشرة من عمره عندما سافر من نجران إلى الظهران في المنطقة الشرقية ليعمل نجاراً في أرامكو. وبعدها لخمس سنوات في شركة هندسة تقنية متعاقدة مع أرامكو.

وحول أثر تلك الفترة من حياته يقول: «آنذاك تعلمت الإنجليزية. فالحديث خلال العمل كان يدور بأسره بالإنجليزية. وكان لا بد من أن أتعلم هذه اللغة. والحمد لله تعلمتها وسارت الأمور على ما يرام».

في العام 1963م، عندما كانت رحى الحرب دائرة في اليمن، التحق سعيد بالعمل في «الصليب الأحمر الدولي» كمترجم، معتمداً في ذلك على ما اكتسبه من اللغة الإنجليزية خلال عمله الأسبق. وبقي مترجماً لسبع سنوات، تخللتها بعض الرحلات إلى الخارج مثل لندن وسويسرا.

بعد ذلك، عمل أبو سند لمدة أربع سنوات في شركة مقاولات ألمانية، كان من ضمن أعمالها بناء مدينة الملك فيصل في

خميس مشيط. واكتسب خلال عمله هذا شيئاً من اللغة الألمانية.

وقبل أربعة عشر عاماً من اليوم، وتحديداً قبل شهرين من افتتاح فندق الهوليداي إن في نجران بدأ سعيد جمعان آل سعيد عمله كمرشد سياحي موظف في الفندق.

مهارات المهنة وشروطها

يدهشك أبو سند في التزامه الدقيق بالمواعيد. فتراه حاضراً في بهو الفندق (وغالباً لوحده) قبل دقائق من الموعد المحدد للانطلاق في زيارة سياحية، بخلاف الكثيرين ممن هم معنيون مباشرة بهذه الزيارة.

خبرته الطويلة الناجمة عن الاحتكاك بآلاف السياح، تجعله يحدثنا عن الفرق ما بين السياح الأجانب والعرب، فيقول إن الفارق الأكبر يكمن في الالتزام بالوقت. فالأجانب عندما يقولون الساعة التاسعة، فإن ذلك يعني التاسعة تماماً، وليس التاسعة وخمس دقائق. وهم مهرة في تقسيم أوقاتهم. وعندما يكونون في مجموعة، يكون لهم قائد يحدد الوقت الذي يجب أن يمضوه في مكان معين، من دون زيادة أو نقصان لدقيقة.

ولكن، أن تتأخر على سعيد لبعض الوقت، لا يعني أبداً أن ذلك سيثير غضبه أو انه سيقابلك بوجه متجهم معاتباً، فالابتسامة لا تفارق وجهه، ومن مهارات مهنته حسن التعامل مع الناس كما هم، لا كما نريدهم أن يكونوا، ومعاملة الجميع بالاهتمام نفسه من دون أي تمييز بين سائح وآخر.

ويعتز أبو سند بالانطباعات التي يتركها في نفوس السياح. فيقول إن سياحاً كثيرين يعطونه رسائل توصية وشكر. وكثيرون منهم ينصحون معارفهم الذين يقصدون نجران بالاعتماد على سعيد مرشداً، وبعضهم يرسل رسالة بالفاكس قبل وصوله إلى نجران للتأكد من أن سعيد موجود ليكون رفيقه ومرشده. ومن هؤلاء السياح، أضاف أبو سند إلى اللغتين الإنجليزية والألمانية شيئاً من الفرنسية يكفي للتفاهم ولو في الحدود الدنيا اللازمة.

لكل زبون برنامجه الخاص

يقود أبو سند بنفسه سيارة الفندق المخصصة للتجوال بالسياح على المدينة وضواحيها. وحول نوعية زبائنه يقول: «إن السعوديين يميلون إجمالاً إلى تفقد المواقع السياحية بمفردهم. أما الأجانب فغالباً ما يكونون مجموعات أو زوجين على الأقل. ومن ضمن هؤلاء الأجانب تجد الأمريكيين والإنجليز والإيرلنديين والإسبان واليابانيين والألمان... الخ.

وفي جعبة الرجل مجموعة برامج جاهزة، يرتبط اعتماد الواحد منها على عامل الوقت. فيقول: «البرنامج مرتبط بمدة إقامة السائح عندنا. فإذا كانت ليومين، وهذا هو الغالب لأن الكثيرين من الأجانب المقيمين في المملكة يزورون نجران في عطلة نهاية الأسبوع، فإن البرنامج يتضمن في اليوم الأول زيارة السد والأخدود وقصر الإمارة القديم وقصر العان قبل الظهر، وسوق الأنتيكا وسوق الحريم وسوق الجنابي بعد الظهر. أما في اليوم الثاني فأرافقهم إلى مزارع النخيل، وغابة سكام. والبعض يطلب تمضية يوم كامل في آثار حما».

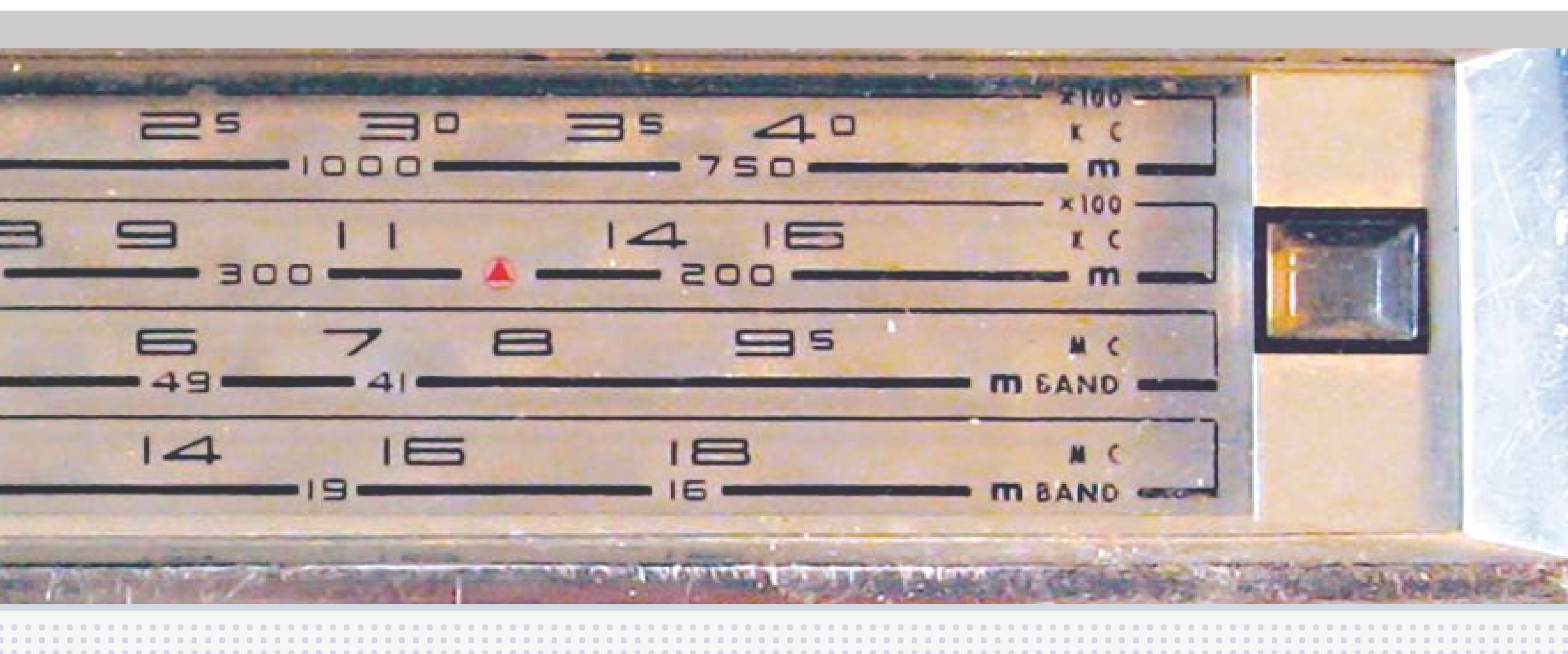
ونستغل معرفة الرجل بقطاع السياحة لنسأله عن نقاط الجذب السياحي التي تترك أقوى الانطباعات عند السياح، فيجيب فوراً وبحسم: الأخدود والمتحف وآثار حما والمباني الطينية.

سعادة سعيد بعمله

تزوج سعيد عندما كان في التاسعة عشرة من عمره، ورزقه الله سبعة أبناء وست بنات. وإن كان هناك من يتساءل ما إذا كان قد آن الأوان ليتقاعد أبو سند بعدما بلغ السبعين من عمره، فهو يجيب فوراً: لا أريد التقاعد مثل باقي الشيَّاب. فالعمل ينشطني. كما أن الجلوس في البيت يهلك صحة الأهل. إذ أن الرجل الكبير الذي لا يشتغل، لا يبقى أمامه إلا مجال افتعال المشكلات والتدخل في شؤون عائلته وأولاده، فيمضي أيامه وهو يقول يا ولد اعمل *ده* ويا بنت اعملي *ده* ... فيرهق عائلته ويفسد جوها».

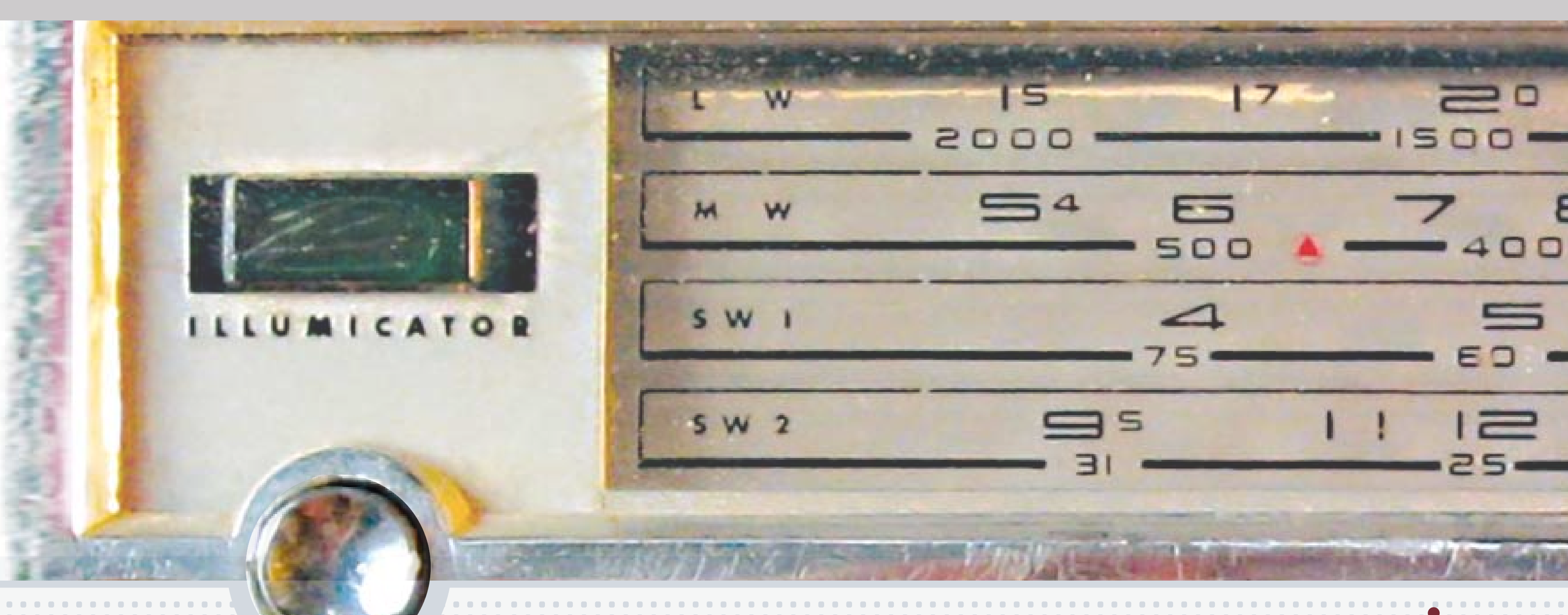
ومن تلقاء نفسه يضيف: «إني أحب السياحة، والعمل فيها. أحب أن أطلع الناس الذين يأتون إلى نجران على ما في منطقتنا من مواقع جميلة وآثار وتاريخ عريق.. وأكثر ما يسعدني هو أن أرى السائح مسروراً أمام هذا الموقع أو ذاك. إن نجران تتضمَّن كنزاً لا يوصف من المعالم السياحية التي سمع بها الناس في أقاصي الأرض. ومهمتي هي أن أسهِّل وصولهم إليها وأجعل أوقاتهم في نجران على أفضل ما يمكن».

وبالفعل، فبعد كل جولة على المواقع المختلفة في منطقة نجران، كان أبو سند يحرص على أن يسألنا عن رأينا، وعن الانطباع الذي تركه هذا الموقع أو ذاك في نفوسنا. وعندما كنا نبدي إعجابنا ودهشتنا مما رأيناه، كانت الابتسامة تعرض على وجهه، ابتسامة تشع رضىً عن النفس وتخالطها العاطفة والمودة لنا ولمنطقته التي يحب: نجران.



البرامج الثقافية
في الإذاعة السعودية
من أين وإلى أين؟







لا يختلف الحديث عن الإذاعة السعودية في جوهره على الحديث على معظم إذاعات العالم: حنين إلى الماضي ونقد للحاضر. فالقضية في الدرجة الأولى قضية المكانة التي كان الراديو يحتلها في اهتمام المستمعين، وقد تراجعت خلال السنوات الأخيرة أمام تقدم التلفزيون والكمبيوتر. ولكن مكانة الراديو لم تتلاشَ تماماً أمام وسائل الإعلام الأحدث. لا بل إن هناك إذاعات كثيرة لا تزال تحتفظ بنسبة مُرْضية من المستمعين الراضين عنها. فأين موقع الإذاعة السعودية وبرامجها الثقافية من المستويات التي أدركتها سابقاً وتلك المطلوبة منها؟

في المقالات الثلاث الآتية عرض للمكانة التي احتلتها الإذاعة السعودية والإذاعات العربية عموماً، قبل عقود قليلة من الزمن، بقلم خالد ربيع السيد، وتشخيص لأسباب ما آلت إليه البرامج الثقافية في الإذاعة السعودية بقلم محمود تراوري، وأجوبة الأستاذ إبراهيم بن أحمد الصقعوب، وكيل وزارة الثقافة والإعلام لشؤون الإذاعة، عن الأسئلة التي حملتها إليه القافلة في هذه القضية.



1 أنا والراديو وهواه .. ذكريات إذاعية

خالد ربيع السيد*



عندما كان الراديو جماعياً



لطالما كان الراديو وبرامجه المتنوعة الخلفية الوجدانية التي صاحبت مراحل حياتي المختلفة. في صباح تلك الأيام، باكراً، إبان سنوات الدراسة الأولى، كنت أستيقظ - أنا وإخوتي - على صوت الشيخ مصطفى إسماعيل أو الشيخ عبدالباسط عبد الصمد يتلوان القرآن. يشغِّل والدي الراديو على إذاعة صوت العرب، ويصادف دوماً الآيات الأخيرة من القراءة. لم أكن أعرف اسم المقرئ الذي أسمعه حينذاك، لكنني ألفت الصوت الذي يعني أن ساعة مغادرة الفراش قد حانت. أن تغادر الفراش الدافئ إلى الصقيع الذي يملأ أركان البيت تلك معاناة حقيقية. وعلى الرغم من ذلك كان صوت المقرئ وقراءته تشيع طمأنينة تهبط على أرجاء الغرف والدهليز الذي يفصل حجراتنا الثلاث عن حجرة والدينا. هكذا كان يعلن اليوم بدايته، بينما روح مدينة الطائف تغشاها البرودة، البرد الذي يحمل قدراً كبيراً من لذة البكور. برد يحاصرنا، أنا وأخوتي، ويجذبنا بقوى مغناطيسية خادرة تدعونا إلى عدم الانسحاب من تحت لحاف القطن الذي أشرفت أمي على تنجيده حتى خرج في تلك الصورة.

برامج من كل نوع منذ الصباح

يصادف أن يدير والدي مؤشر الراديو إلى إذاعة جدة، على برنامج «الأرض الطيبة» فتشدو أغنية البرنامج: أزرع وأقلع أرض بلادك بكرة تجني الخير لأولادك. ثم بالعودة إلى صوت العرب يأتي برنامج «حوار مع مستمع» بموسيقى افتتاحه المميزة، ثم برنامج «كلمتين وبس» لفؤاد المهندس. لم أكن أفهم عمَّ يتحدث فؤاد المهندس، لكن نبرة صوته وطريقته اللطيفة كانتا تجعلان حديثه ينساب داخلي، دون أن أشعر بأهمية الحديث. الآن بدأت أستعيد تلك الأهمية، وتفهمت أنه كان برنامجاً توعوياً يتناول السلوك وينادي بكف يد البيروقراطية في حوادث عديدة يقع فيها الموظفون المصريون الكادحون.

«البيت السعيد» كان برنامجاً في إذاعة جدة. هكذا كنا نقول «إذاعة جدة»، كان يدغدغ شغاف قلبي، صوت سلوى شاكر وطريقة حديثها المتقطعة، كنت وزملاء الدراسة نستمع إليه عندما نهرب من المدرسة ثم يأتي برنامج «همسة عتاب» بموسيقاه الرقيقة، وصوت الممثل الشهير الذي عرفت بعد سنوات أن اسمه رأفت فهيم، وهو يقول «فوت علينا بكره يا سيد». ثم يأتي برنامج أخبار خفيفة بموسيقاه المرحة وأخباره التي كانت فعلاً خفيفة، يليه برنامج «إلى ربات البيوت» بصوت صفية المهندس، يتدفَّق عذباً جاداً ويتخلل البرنامج اسكتشات اجتماعية سريعة متقنة، ثم برنامج «أبلة فضيلة» الذي أستمع إليه في يوم الجمعة بعد أن تكون إحدى شقيقاتي الكبريات قد نقلت الراديو إلى المطبخ، وصوت الأطفال يشدو في مرح وحماس:

يا ولاد ياولاد تعالوا تعالوا
علشان نسمع أبلة فضيلة
تغني لنا حكاية جميلة
وتسلينا وتهنينا
وتسمعنا كمان أسامينا
آاااابلة أبلة فضيلة

* صحافي سعودي

كنا نستمع أيضاً يوم الجمعة إلى برنامج «تحية وسلام» واتصال الطلاب المغتربين الذي كان يذاع قبل صلاة الجمعة، فيما أذهب مع والدي لملء أوعية الماء من البازان في نهاية حي الشهداء الشمالية.

تلك كانت أياماً رائعة، مليئة بالأمان، كانت الأذهان فيها صافية، والبال منصرف إلى التسلية واللعب وملاقاة أولاد الجيران، والتخطيط للعب بالدراجة في الشارع الخلفي. لم نكن نسمع رنين الهواتف المحمولة، ولا أصوات أجهزة الأتاري و«بلاي ستيشن».

برامج المساء والسهرة

في حصة المساء، كان هناك الثانية بعد الظهر برنامج للمذيع مطلق مخلد الذيابي «سلام الله يا أخي المسلم». وفي أحد أيام الأسبوع برنامج الحرس الوطني. ثمة أغنية قديمة غالباً ستسمعها إذا أدرت مؤشر الراديو على البرنامج العام في القاهرة. ثم عند العصر، يأتي برنامج «شمس الأصيل» وأتخيل أنه برنامج شعر. كنت أحب سماعه عندما يصحبني والدي مع أشقائي إلى الهدا أو الحوية حيث نلهو في «صخرة الحليقة». وأيضاً برنامج ما يطلبه المستمعون. وللغرابة كان نصف الفتيات اللواتي يهدين الأغاني اسمهن «نورة» والنصف الآخر «خيرية» و«فوزية» و«عابدية» و«فتو». لم يكن في ذلك الزمن أسماء مثل «لجين» أو «ريهام» أو «إيلاف». كان يذاع برنامج «بابا شارو» في صوت العرب، وبرنامج «حول الأسرة البيضاء» الذي تعرفت عليه عندما كبرت قليلاً. لكني عرفت برنامج «زيارة إلى مكتبة فلان» منذ سنوات الطفولة الأولى. ثم ليلاً كانت هناك برامج «لغتنا الجميلة» لفاروق شوشة، و«قال الفيلسوف»، و«ذكريات إذاعية» الذي سرقت عنوانه لهذه المداخلة، وهو برنامج رائع كان يعيد المستمع إلى أزمان جميلة عبر إذاعة مقاطع من برامج وإنتاج إذاعي قديم كالأغاني والأوبريتات واللقاءات النادرة وغيرها. وألطف ما فيه كان تلك الفقرة الخاصة بفرقة «ساعة لقلبك» التي كانت تضم نخبة من الكوميديين خفيفي الظل ذوي الأداء الجميل: الفتوّة والفشّار أبو لمعة والخواجة بيجو والفار والجزار وفؤاد المهندس، وغيرهم.

الموسيقى التصويرية لدورة الحياة

وهناك أيضاً برنامج «على الناصية» الذي ما زال يذاع حتى الآن، وهو يعد من علامات الإذاعة. أما في رمضان، فالإذاعة تغدو شيئاً ممتعاً بحق، وأبرز ما فيها صوت الشيخ محمد رفعت قبل الإفطار وهو يقرأ على مسامعنا آيات من القرآن الكريم، وقد انهمكت ربات البيوت في إعداد الإفطار لأسرهن، وامتلأت الشوارع بالأطفال اللاهين في انتظار أن يضرب المدفع. بينما تجد الباعة وقد تراصوا على الجانبين يبيعون سلعاً تباع عادة في الوقت الضائع كالطرشي، والجرجير والفجل والليمون، وكنت أرى الناس يهرولون قبل الإفطار بلحظات لشراء تلك السلع وقد غلبت العجلة والعصبية على تصرفهم خشية أن يدهمهم الإفطار وهم ما زالوا في الطريق. بينما كان يحلو لبعض أصحاب المحال والمقاهي أن يرشوا المياه أمام حوانيتهم في ذلك الوقت بالذات، كل هذا وصوت الشيخ محمد رفعت ينبعث في الخلفية بآيات من سورة الرحمن، ليقيم خلفية روحية رائعة. ثم تأتي ابتهالات الشيخ سيد النقشبندي -يرحمه الله- أثناء الإفطار، ثم فزورة آمال فهمي.

كان الراديو للأجيال، يشبه الموسيقى التصويرية التي تصاحب أحداث الأعمال الدرامية. بل إن الناس صاروا يؤرخون للأحداث من خلاله، فتجد السيدات يثرثرن سوياً قائلات: «أنا ولدت فلان ابني وعبد الحليم بيقول: على قد الشوق». ناهيك باجتماع القاصي والداني حول الراديو في الخميس الأول من كل شهر لسماع أم كلثوم، وعلى علمي فإن هذا لم يكن في مصر وحدها، بل كان صوت أم كلثوم يذاع في معظم الوطن العربي حينئذ، حتى أن أصدقاء سوريين أخبروني أن الطقوس نفسها كانت تنتشر في بيوتهم قديماً حين يأتي الخميس الأول من كل شهر.

ميزة الإذاعة على التلفزيون

وتمتاز الإذاعة على التلفزيون بميزة رائعة لا يقدرها إلا أصحاب الخيال الخصب من أبناء جيل الإذاعة، وهي أن الإذاعة تطلق العنان للخيال ولا تحدّه، وتفتح الباب أمام المستمع ليرسم في خاطره ما يشاء من صور لما يسمع. فأشخاص المسلسلات مثلاً، يرسمهم كل مستمع في خياله



15 17 20 25 3
2000 1500 1000



بصـورة تختلف قليلاً أو كثيـراً عن غيره مـن المستمعين. وكذلـك الأماكن التي تدور فيها الأحـداث، والأغاني... أما فـي التلفزيون فقد رسمت الشخصية وانتهى الأمر، وأصبح علينـا أن نتبـع ما نراه من دون تدخـل ولا تفاعل، وكثيراً ما تكـون الشخصيـات فـي التلفزيـون، ولا سيمـا التاريخية، مصـورة علـى نحـو مضحـك نتيجة نقـص الحرفيـة لدى منفـذي الماكيـاج أو مصممـي الملابس، وكـذا الحال عن أماكـن التصوير وغير ذلك، فتكون المحصلة النهائية غير مقنعة للمشاهد.

أمـا في الأغاني فإن أسوأ مـا ظهر في عالم التلفزيون –في نظـري– هـو الفيديو كليـب، نعم الفيديـو كليب، وأنـا أراه العكازيـن اللذيـن تسيـر عليهمـا الأغاني العرجـاء، أو قل الكسيحـة التي نسمعهـا اليوم، ولولا الفيديـو كليب، لجلس معظـم من يغنون فـي بيوتهـم، ولأجبروا علـى البحث عن مصدر آخر للرزق.

أما فـي الراديو، فليست هنـاك قيود على خيـال المستمع الـذي كان يستمـع مثـلاً إلـى أغنيـة «مـداح القمـر» من عبدالحليم حافظ، أو «يا جـارة الوادي» أو «النيل نجاشي» لمحمـد عبدالوهـاب، ويسبح فـي عالم مـن صنعه وحده، دون فتيـات عرايا يرقصن، أو أشباه رجال يرتدين ملابس أحالتهـم إلى ما يشبه المسوخ المشوهـة، وقد جلسوا على دراجـة نارية، يـؤدون حـركات ويقومون بأفعـال لا علاقة لهـا من قريب ولا بعيـد بالأغنية. وتكتشف فـي النهاية أن هـؤلاء الراقصين ومعهـم المخرج لا يختلفـون في قليل أو كثير عن ذلك الذي يضربـك بكتفه في الأتوبيس أو يدوس على قدمك ليلهيك عن النشل، الذي يُحيلك على الاستدانة دون أن تـدري، فيجلـس المشاهد أمام التلفزيـون كالأبله فاغـراً فاه ليتفـرج على سيارة مكشوفـة باهظة الثمن تقل عـدداً ضخماً من الفتيات غير المحترمات – وقد أصبحن سلعـة وفيرة – بينما تتوالى المشاهد أمامه بسرعة تصيب الإنسـان الطبيعـي بالغثيـان، وطبيعي والحـال كذلك، أن ينصرف المرء تماماً عما يسمع، فلا يمعن النظر في لحن ولا كلمـات ولا صـوت، ليصبـح أي شاب فـي مقتبل العمر أفضل مطرب عربي!!

لم يعد أحد يسمع الإذاعة إلا قليلاً، ولم يعد أحد يعرف من الأجيـال الجديدة ماذا تعني حين تقول مازحاً «يا ترى انت فين يا مرزوق»، أو حين تغني «دوق الدندرمة» أو يعرف شيئاً عـن «الليلة الكبيرة يا عمي والعالم كتيرة» أو يعرف أوبريت «السـوق» أو «عوف الأصيل» أو «قطر الندى»، وغير ذلك من روائع الأعمال التي عمل فيها موهوبون حقاً.

رحم الله أيام الإذاعة.

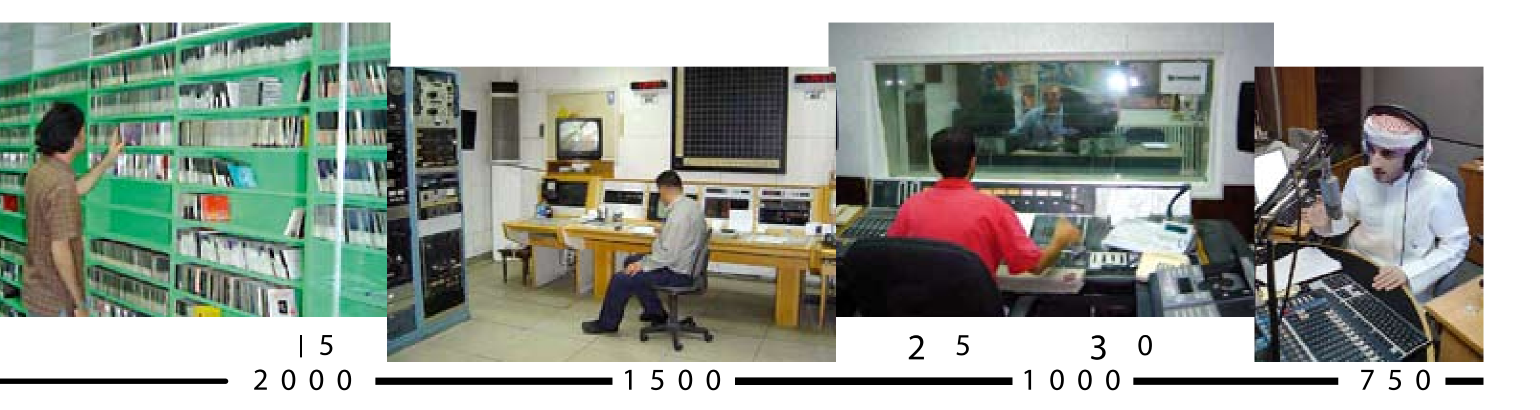
2 الإذاعة.. بوابات وظيفة

محمود تراوري*

مثَّلـت الإذاعة مع انطلاقتهـا السعودية عام 1949م، نافذة وحيـدة للمجتمـع يطل منها علـى ذاته وعلى الحيـاة كلها. ذكـر لي أحد مؤسسي الإذاعة والتلفزيون، وهو عباس فائق غـزاوي (1932 – 2005م) وكان لقبه بابـا عباس، يرحمه الله، فـي لقـاء شخصـي «أن الإذاعـة كونـت جـواً أسرياً، وجسدت التصـاق الأسر بعضها بالبعض، وأحدثت بينهم تبادلاً للمعلومات والتثقّف إلى جانب التسلية والترفيه».

يومئـذ، وكان هذا تقريباً قبل وفاة غزاوي بعام، كنت أقتعد كرسيـاً أمام مكتبـه في مركز الأعمال بطريـق المدينة في جـدة. كان عائداً للتو من غربـة السفارة بعدما عمل طويلاً سفيـراً للسعودية فـي عدة دول، كانت ألمانيـا آخرها، وأنا كنـت أسترسـل أسئلـة وإصغـاء ومشاغبة لأحـد مكتشفي مطـرب السعوديـة الأول طلال مـداح، وهـو يغوص بحنين رائب، فـي تاريخ ظل شفاهياً إلى عهـد قريب، عدا اجتهاد

* ناقد ومذيع سعودي



تدوين فردي هنا وهناك حاول أن يوثق ذاكرة نشأة الإذاعة والإعلام في السعودية.

دور الأدباء في نهضة الإذاعة

قال غزاوي لافتاً إلى نقطة جوهرية تمنح الإذاعات عمقاً وقيمة وألقاً: :كان يشارك معنا نخبة من الأدباء ومنهم طاهر زمخشري وعزيز ضياء، كنا نقوم بكل الأدوار. فكنا نؤلف ونمثل أدواراً مختلفة. فمثلاً عزيز ضياء ألف عدداً من أغنيات الأطفال، وجاء بأولاده ومنهم ضياء عزيز ضياء الذي غنى أغنيته الشهيرة «أنا بدي أصير طيار»، المقتبس لحنها من أغنية «أنا قلبي إليك ميال» لحن محمد الموجي، لفايزة أحمد. وجاء بابنته دلال وهي لم تتعد السابعة، وهي اليوم مديرة البرنامج الثاني بإذاعة جدة».

كانت الإذاعة تنهض في أدائها على أكتاف الأدباء الذين أنشأوا وعياً في تلك الحقبة. ومن أهم ما يلاحَظ في هذا السياق أن الأدباء وبعض العاملين في الإذاعة استعانوا بذويهم من نساء لمشاركتهم العمل. فقد قدَّم الغزاوي زوجته نجدية الحجيلان فكانت أول صوت نسائي يظهر



في الإذاعة. وقدَّم حمزة شحاتة ابنته شيرين، والعواد قدَّم ابنته نجاة، وعزيز ضياء قدَّم زوجته أسماء المزروع (ماما أسماء) وابنته دلال، وقدَّم الإذاعي بكر يونس بناته الثلاث دنيا وفاطمة وسناء.

ولعل في هذه الخطوة دلالات وإشارات جمة، تؤكد نزوع هؤلاء الأدباء إلى تقديم النموذج في بيئة محافظة يتّسم فيها سريان الوعي ببطء، لأن التاريخ حركة اتصال، شيء يموت ببطء وشيء يحيا على أنقاض ما مات ببطء أيضا!

النضج البطيء

هنا يمكننا القبض على بطء نضج إنتاج البرامج الثقافية في الإذاعة، وأظنني أعزو هذا البطء إلى فقدان تلك الرؤية التي كانت تعمل بها الإذاعة إبان نشأتها، حين كان المثقفون متعلقين بها إلى حد الارتباط الوظيفي، وهو ما تفتقده الإذاعة اليوم كثيراً، بعدما تحوّل الأداء الإذاعي من مهنة إبداعية إلى مجرد وظيفة، ورقم في ديوان الخدمة المدنية، ورقم بمثابة بوابة مفتوحة، بلا معايير ولا مواصفات نوعية، يلج من خلالها كثير من الموظفين، الذين ينجحون في قتل الإبداع الإعلامي كل يوم، وفي تحويله عمداً إلى أداء وظيفي لا يحفل إلى حد بعيد بالجودة ولا بالاقتراب أو الهاجس بالاقتراب من تخوم الإبداع.

وهذا أمر يصرف المتلقي كلياً - فيما أحسب - عن المادة التي تتوسل أن تكون ثقافية. والمخزي/المضحك في آن، أن القائمين على المادة إعداداً وتقديماً قد لا يدركون أن قالبهم التقليدي، ولغتهم النمطية ورؤاهم القديمة هي المسؤول الأول الذي يدفع بالمتلقي إلى تغيير الموجة.

التوقف عند الموجة رهن بما هو صادم ومثير وشائق، ومخاطب للعقل والروح والمخيلة في توقيت واحد. ويا لها من معادلة لا يقدر على الاقتراب منها إلا من أوتي نصيباً من الإبداع.

3 الصقعوب: المشكلات عديدة ومتداخلة

أكد وكيل وزارة الثقافة والإعلام لشؤون الإذاعة، الأستاذ إبراهيم بن أحمد الصقعوب، أن مشكلة البرامج الثقافية في الإذاعة لا تنحصر في نوعها ولا في مضمونها، بل إن هناك مشكلات عديدة ومتداخلة وبعضها يرتبط بمزاج المتلقي.

وفي معرض الإجابة عن أسئلة وجهتها إليه القافلة، أشار الصقعوب إلى الجهود العديدة التي تبذلها الوزارة لرفع مستوى الإذاعة عموماً وبرامجها الثقافية خصوصاً.

• ما مشكلة البرامج الثقافية في الإذاعة من وجهة نظركم، أنتم المسؤولون عنها؟

○ في تصوري أن للمشكلة أكثر من جانب. فهي لا تنحصر في نوع البرامج ولا في مضمونها. إنها مشكلة مزاج متقلِّب لدى المستمع إلى هذه البرامج. إذ يصعب فهم مزاجه لمعرفة ما يريد. ويبدو لي أن علاقة المتلقي بالبرامج الثقافية ضعيفة. وهذا أضعف موقف معديها والمدافعين عنها في الإذاعات عموماً، إلى جانب غياب المعد القادر على توظيف المادة الثقافية في قالب جذَّاب ومتنوع، يجتذب المستمع إليها، لعدم وجود حوافز تناسب ما تتطلبه هذه البرامج من جهد كبير في إعدادها. هذه مشكلات متداخلة نسعى في حلها من طريق تشجيع المتخصصين لينضموا إلينا في هذا المجال، من أجل إعطاء برامجنا الثقافية وهجاً يشد إليها المتلقي. إنني أستغرب حينما يختفي برنامج ثقافي ولا نجد من يسأل عنه، وكأنه مقطوع من شجرة، لا بواكي عليه. بينما نجد المهتمين بالأدب الشعبي يحاسبون الإذاعة على أي نقص يصيب برامجهم. ومع ذلك فلم تغفل الإذاعه البرامج الثقافية وأفردت لها مساحة معقولة، من وجهة نظري، نحاول فيها أن نختصر المسافه بين الواقع والطموح.

• أين نجد الثقافه في برامجكم؟

○ حينما أستعرض قائمة البرامج في الإذاعة، أجد أننا نحمل الثقافة إلى المستمع عبر أكثر من قناة. فالأغنية بكل أشكالها عمل أدبي، وضع لبناته شاعر كتب الكلمات فبنى عليها الملحن العمل الغنائي. علماً بأن معظم الإذاعات لا تذكر اسم الشاعر وتكتفي باسم المغني أو المغنية، وفي هذا هضم لحقه الأدبي، وهذه المشكلة مرشحة للتصاعد مع تسارع إيقاع العمل الإذاعي الذي تغيَّر مع متغيرات الحياة.

والدراما الإذاعية عمل إبداعي أدبي حظ الكاتب فيه أفضل، إذ يشار إليه في بداية كل عمل، وتنقل فكرته إلى المستمع. وعلى الرغم من أهمية هذا العمل، إلا أنني غير متيقن من تطابق الأفكار في شكلها الذي يكتبه الأديب مع شكلها الذي يعده كاتب السيناريو للإذاعة. وربما شعر بعض الكتاب أن ما يريدون إبلاغه للمتلقي قد وصل ولكن على نحو مختلف عن الفكرة التي في أذهانهم.

إن هذين الشكلين جزء من هيكل البرامج اليومية في معظم الإذاعات على الرغم من أنهما لا يستوعبان إلا جزءاً يسيراً من الإنتاج الأدبي، لكن مروره عبر هاتين القناتين يوسع دائرة انتشاره.

إلى جانب هذا، لدينا كثير من البرامج الثقافية. فمنذ سنوات، والإذاعة تستضيف كل أسبوع شاعراً يقدِّم مختارات من شعره. وقد تجاوز الذين شاركوا بهذا البرنامج أربعمئة شاعر، والبرنامج ما زال مستمراً ومفتوحاً للجميع، وهذه دعوة لمن يريد الاشتراك معنا.

بعد ضم الثقافة إلى الإعلام في وزارة واحدة، بدأنا تجربة جديدة لفتت الانتباه إلى برامجنا الثقافية، إذ نقدِّم في كل أسبوع المنتدى الثقافي بالتعاون مع وكالة الوزارة للشؤون الثقافية، ويبث هذا البرنامج على الهواء مباشرة من الأندية الأدبية في مدن المملكة، ويطرح الهم الثقافي ويتابع المنتج الثقافي المحلي بكل أشكاله. وقد مرت عبر بوابة هذا البرنامج وجوه ثقافية متعددة من المدن كافة.

وهناك برامج أخرى قد يطول الحديث عنها تتعلَّق بمتابعة إصدار الكتب الحديثة وتسليط الضوء على الإنتاج الثقافي السعودي.

• كيف تقيِّمون تجاوب المستمع مع هذه البرامج؟

○ إن حضور الإذاعة الثقافي جيد. فقد وضعنا في برنامجنا العام مساحة معقولة للتواصل مع المجتمع الثقافي، لكننا ندرك أننا في زمن الفضاء المفتوح والخيارات المتعددة وضغوط الحياة اليومية وواقع الأمة الموشح بالأسى، كل هذه العوامل تشتت ذهن المتلقي. وعلينا ألا نبالغ في طموحنا لكسب المستمع كل الوقت، وإنما نركِّز على كسبه بعض الوقت. وإن حدث لنا ذلك، نكون قد خطونا خطوة جيدة علينا أن نحافظ عليها.



• **ماهي الهموم التي أخذت الإذاعة على عاتقها التعبير عنها؟**

○ إن معدي برامج الإذاعة ومقدميها من أبناء هذا المجتمع، وهم يمثلون شرائحه المختلفة. وبالتالي، فإن طرحهم هو صورة لتطلع أبناء هذا المجتمع وهمومهم، أو هكذا يفترض. وأعتقد أن برامج الإذاعة بوضعها الحاضر انتقلت إلى ملامسة هموم المواطن واهتمامه بواقعية، وصار بإمكانها أن تتعمق في الطرح المسؤول الذي لا يبحث عن الإثارة الإعلامية، ولكنه يساعد المواطن وينقل همه وتطلعه إلى صاحب القرار. وبالتالي، أصبحت معظم برامج الإذاعة قريبة من المواطن. وهناك تواصل بينها وبين المستمعين، وهذا دورها الطبيعي الذي يجب أن تقوم به وأن تحافظ عليه، حتى تحفظ موقعها في المجتمع. وهي بهذا العمل لا تتفضل على مستمعيها وإنما تؤدي دورها الطبيعي.

• **هل ترى للثقافة موقعاً مميزاً على خارطة البرامج الإذاعية؟**

○ أتمنى لو كانت الإجابة عن هذا السؤال إيجابية. إن الاهتمام بموقع الثقافة لا يختلف عن واقعها في حياة المستمعين الذين انشغلوا بأشياء كثيرة وانفتح عليهم الفضاء بسيل خيارات متعددة. وبالتالي، لم يعد النتاج الثقافي كل همهم، ويصعب أن تضع الإذاعة البرامج الثقافية في وقت ذروة الاستماع، ولكننا نبحث لها عن مكان مناسب على خارطة برامجنا الإذاعية.

• **تحدثت عن المعدِّين وعن الحاجه إلى المبدعين منهم، ما هي قنوات التواصل المتاحة مع الإذاعة؟ هل لديكم حوافز لاستقطابهم؟**

○ قنوات التواصل مفتوحة مع الجميع. الدورات الإذاعية تتجدَّد أو نحاول تجديدها، وفي كل ستة أشهر ينضم إلينا معدون جدد. ونوجه الدعوة عادة من خلال الأندية الأدبية والجامعات والمؤسسات الثقافية، وندعو الجميع إلى تقديم أفكارهم ومقترحاتهم، ونجد تجاوباً طيباً. ولعل المتابع لبرامجنا يلحظ التجديد المستمر في أسماء المعدِّين والبرامج مع كل دورة إذاعية. فالتجديد لم يعد أمراً ثانوياً في العمل الإعلامي، بل أصبح أمراً ملحاً حتى تحافظ أي وسيلة إعلامية على موقعها في منظومة الإعلام المتسارعة الإيقاع. أما عن الحوافز، فهناك دراسة لزيادة مكافآت البرامج. وهي تحظى باهتمام معالي وزير الثقافة والإعلام مثلما حظيت سابقاً باهتمام أصحاب المعالي، الذين تولوا وزارة الإعلام، وأرجو أن ترى النور قريباً. لأن المنافسة الشديدة بين محطات الإذاعة والتلفزيون تفرض الإسراع في زيادة التعرفة حتى تتحول إلى عامل جذب لاستقطاب العناصر المتميزة.

• **كيف ترى موقع الإذاعة اليوم مع تعدد الخيارات؟**

○ على الرغم من أن الإذاعة سبقت كثيراً من الوسائل الإعلامية الأخرى، إلا أن العمر لا يشفع لها. فمحتوى كل وسيلة إعلامية هو الذي يحدِّد موقعها. فقد ارتفع مستوى وعي المستمع وأصبح يفرز المحتوى ويقرأ ما خلف الكلمات. عندما نخطِّط لبرامجنا ندرك أن منافسة شديدة تحيط بنا. ولذلك نعين الهدف ونسعى في الوصول إليه. لدينا فريق عمل متحمس، وفي تصوّري أن الذي يشعر بعدم قدرته على المنافسة يصبح عبئاً على الجهاز الذي يعمل فيه. فالعمل الإعلامي تجديد دائم لا يعرف التوقف.

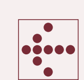


أمانيهم فراشات في فضاء الوحدة

شعراء يهيمون في أودية الحلم ... والغرائبية!!

ليس سوى خيمة الحلم يأوي اليها الشعراء .. فيشدون إلى عمودها وحدتهم .. وإلى أطنابها يزرعون آمالهم الصغيرة في لقاء الحبيبة .. ويرون في رواقها ظلاً لخطى الوصل.. ويشعلون في فنائها نار الوحدة بل التوحد بخيال الحبيبة الغائبة. الشاعر عبدالله الصيخان* جمع لنا هذه العينة من أماني الشعراء وأحلامهم.

* شاعر سعودي



الأماني فراشات في فضاء الشعراء، إن تحققت نهلوا من معينها وإن غابت صاروا هم من أضاءت أرواحهم اللهب.. لهب الأماني المتأجج.. لتجد فيه فراشات الحلم الدفء والسلوى.. حيناً والاحتراق في أحيانٍ كثيرة.. فهل في المنى راحة أيها الشعراء؟

في المُنَى راحةٌ وإنْ عللّتنا
من هواها ببعض ما لا يكونُ
ما دعاني الهوَى إليك ولكنْ
باسْم داعي الهوَى عَنَتْني المنونُ

أما ابن المعتز فيرى أن كذب المنى يحلو فكيف بها إذا ما تحققت:

أما في اللَّيالي أنْ تَعودَ ونَلتقي
بلَى في اللَّيالي سهلُها وحزونُها
إذا كانَ يحلُو فيكمُ كذبُ المُنَى
إذا ما ذكرْناكم فكيف يقينُها

ولصوت ابن المعتز صدى يتردد عند شاعر مثل ابن ميَّادة:

أبيتُ أُمنِّي النَّفس من لاعج الهوَى
إذا كادَ بَرْحُ الشَّوق يُتلفها وجْدا
مُنًى إنْ تكنْ حقاً تكنْ أفضلَ المنَى
وإلاَّ فقد عشنا بها زَمَناً رَغْدا
أمانيَّ من سُعدَى عَذاباً كأنَّما
سقتْنا بها سُعدَى على ظمأٍ بَرْدا
ألا حبَّذا سُعدَى على فَرط بُخلها
وإخْلافِها بعد المِطال لنا الوعْدا

أما العوام بن عقبة فيرى أن رؤية وجهها هي أمنيته في الدنيا، فلا يسأل الدنيا ولا يستزيدها:

رَفعتُ عن الدُنيا المُنَى غيرَ وجهها
فلا أسأل الدُنيا ولا أستزيدُها

أما دلالة الوجه عند ابن الدمينة وكثيِّر عزَّة فهو رقية السحاب وتميمة المطر.. يقول ابن الدمينة عندما أشرق وجه حبيبته ظمياء:

إذا ابتسمتْ ظمياءُ واللَّيلُ مُسدفٌ
تجلَّى ظلامُ اللَّيل حين تُباشرُهْ
ولو سألتْ للنَّاس يوماً بوجهها
سحابَ الثُّريّا لاسْتهلَّتْ مواطرُهْ

ويقول كثير عزة:

رَمَتْني على فَوت بُثينةُ بعدما
تولَّى شَبابي وارْجحَنّ شبابُها
بعينَين نَجلاوين لو رَقْرقَتْهما
لنوء الثُّريّا لاستهلَّ سحابُها
ولكنَّما ترمينَ نفساً سقيمةً
لعزَّةَ منها صفوُها ولُبابُها

ويستغرق الشعراء في أمانيهم.. وتأخذهم مجرة الأماني إلى فلك من خبال.. يتوحدون فيه بحبيباتهم.. وكأنما أرادوا للأرض أن تخلو من سواهم.. فهاهو ابن المعتز يتمنى له ولحبيبته كفاف البصر (العمى) منتشيا ببصيرة المحب:

ألا ليتنا نَعمى إذا حيلَ بيننا
وتَنْشا لنا أبصارُنا حين نلتقي
أضنُّ على الدُّنيا بطرفي وطرفِها
فهل بعد هذا من فعالٍ لمشفقِ

وكأن المعنى هنا كان شارداً من أوابد جميل بثينة الذي ضن بحبيبته عن العمى فتمناه لنفسه وحده إشفاقاً عليها:

ألا ليتني أعمى أصمُّ تقودُني
بثينةُ لا يخفى عليَّ كلامُها

ولابن الدمينة شوارد أحلام تلمها رغبة في التوحد إلاَّ من وجه حبيبته فيتمنى أن يكون وإياها مطلوبين في ثارات دم فيجدان في عرض البلاد وطولها حماية لهما:

ألا لَيتَنا كُنّا طَريدَين في دَم
يُطالبُنا قَومٌ شَديدٌ تُبولُها
فنَخفَى عَلَى حَدس العَدُوِّ وَظَنِّه
ويُحرِزُنا عَرضُ البِلادِ وَطُولُهَا

ثم تراه يتمنى أن يعيشا ويموتا في بلدة واحدة ليجدا في الموت معاً فرصة أخرى للتعارف والحب المتجدد:

ألا لَيتَنا نَحيا جميعاً بِبَلدَةٍ
وَتَبلَى عظَامي حَيثُ تَبلَى عظامُها
نَكونُ كَما كانَ المُحَبُّونَ قَبلَنا
إذا ماتَ مَوتاها تَعارَفَ هامُها

ولعلك تجد الاستغراق في المنى عندما ترى بعض الشعراء يقدم إرثاً «سيريالياً» جديداً في شعريتنا العربية.. لا أعتقد بوجوده عند أمم أخرى.. فمنهم من تمنى أن يكون وصاحبته جملين أجربين مثلما الأمر عند الفرزدق الذي يقول:

ألا ليتَنا كنّا بعيرَين لا نَرد
على منهلٍ إلاَّ نُشَلُّ ونُقذفُ
كلانا به عَرّ يُخافُ قرافُه
على النَّاس مطليُّ المشاعر أخشفُ

ويـا لـيـتـنـا كـنّـا جـمـيـعـاً بقفرة
من الأرض لا يجتازُها المتعسِّفُ
ولا زاد إلاّ فـضـلـتـان سُلافة
وأبيضُ من ماء المدامة قرقَفُ
وأشلاء لحم من حُبارى يصيدها
إذا نحن شئنا صائد متألِّفُ

ومثله لشاعر آخر:

ألا لـيـتـنـا والله مـن غير ريبة
بـعـيـران نـرعى القفر مُؤتلفانِ
إذا مـا أتينا حاضـراً صاح أهلُه
وقـالـوا بـعـيـرا عُـرّةٍ جَربانِ

فأمّا الّذي أشبع هذا المعنى وتمنّى فيه الأماني الطريفة.. فكُثيِّر عزة الذي أخذته الأمنية إلى التفاصيل فهو يقترح أن يكونا بعيرين أجربين لرجل غني يشغله ماله الكثير عن تعقبهما والبحث عنهما بقوله:

ألا ليتنا يا عـزَّ كـنّا لـذي غنًى
بعيرَين نرعى في الخلاء ونَعْزُبُ
نكونُ بعيرَي ذي غنًى فيُضيعُنا
فلا هو يـرعانا ولا نحنُ نُطلبُ
كلانا به عُـرٌّ فمن يـرَنا يقُلْ
على حُسنها جرْباءُ تُعْدي وأجربُ
إذا ما وردْنا منهلاً صاحَ أهلُه
علينا فما ننفكُّ نُـرْمى ونُضربُ
وددْتُ وبـيـت الله أنّـك بكْرَةٌ
هـجـانٌ وأنّـي مُـصـعـبٌ ثـمَّ نَهْرب

يقول الخالديان في الأشباه والنظائر: «والذي دعا الشعراء إلى هذه المعاني حتّى تمنّوا أن يكونوا جمالاً جربة وغير ذلك من الأماني الّتي لا يريدها النّاس التّفرُّد وألا يأخذهم أحدٌ لوجود الجرب الّذي بهم لأن العرب لا تبغض شيئاً بغضها الجرب ولا تحذر من شيء حذرها منه».

ويذهب شاعر آخر لعله أنَقُ من سابقيه إلى أن يتمنى أن يكون وحبيبته (التي لا تحبه) غزالين في صحراء خلت من الناس:

ألا لـيـتَ أنّـي والّـتـي لا تُحبُّني
وحبِّي لها باقٍ إلى يوم أُرمسُ
غـزالانِ جـوالانِ فـي صحنِ مهمهٍ
وليس به من سائرِ النَّاس مُؤنسُ

ويتبعه شاعر آخر تمنى أن يكون ومن يهوى طيرين في رأس شاهق:

ألا ليتنا يا مَـيّ في رأس شاهقٍ
مـن الـطّـود لا يعلُوه كـلُّ سحابِ
ويُسدي لنا ربُّ السَّموات رزقنا
فـأرزاقُـه تـأتـي بـغـيـر حسابِ

أما مجنون ليلى فقد وضع أمانيه كلها في سلة واحدة:

أَلا لَـيـتَـنـا كُـنّـا غَـزالَـيـنِ نَرتَعي
رِياضاً مِنَ الحَوذانِ في بَلَدٍ قَفرِ
أَلا لَـيـتَـنـا كُـنّـا حَـمـامَـي مَفازَةٍ
نَطيرُ وَنَأوي بِالعَشِيِّ إِلى وَكرِ
أَلا لَيتَنا حوتانِ في البَحرِ نَرتَمي
إِذا نَحنُ أَمسَينا نُلَجِّجُ في البَحرِ
وَيالَيتَنا نَحيا جَميعاً وَلَيتَنا
نَصيرُ إِذا متنا ضَجيعَينِ في قَبرِ
ضَجيعَينِ في قَبرٍ عَنِ الناسِ مُعزَلٍ
وَنُقرَنُ يَومَ البَعثِ وَالحَشرِ وَالنشرِ

ولام بعض الحكماء الهوى، فقال: لو كان لذي هوىً اختيارٌ لاختار ألاّ يهوى.

وأنشد لمجنون ليلى:

أصلّي فلا أدري إذا ما ذكرتها
أثنتين صلّيت الضّحى أم ثمانيا
ومـا بـي إشـراكٌ ولـكـنّ حبّها
وعظم الجوى أعيا الطّبيب المداويا

وإلى البيت الأول نظر ابن الأحنف ليقول:

أُصلِّي فأهْذي في الصَّلاة بذكرها
لِيَ الويلُ ممَّا يكتبُ الملكَانِ
أُريـدُ لأنْـسَـى ذكـرَهـا فكأنَّما
تـمـثَّـل لِـي فَـوز بـكـلِّ مكانِ

ولعله أخذ البيت الثاني من كثير عزة الذي يقول:

أُريـدُ لأنْـسَـى ذكـرَهـا فكأنَّما
تـمـثَّـلُ لِـي لـيـلَـى بـكـلِّ سبيلِ

وما ندري ما دعا العبَّاس مع ظرفه وأدبه وعلو شعره إلى أخذ بيت كثيِّر بأسره من غير تضمين ولا جهل منه .. ولكن لعل تماثل الهم جعل ذلك ممكناً عند العباس ابن الأحنف.

لو لم تغب الحبيبة عن أنظار هؤلاء الشعراء .. فهل كان في إمكانهم أن يجترحوا هذه الأماني الموغلة في غرابتها ولمعتها الشعرية .. وهل كان لهم أن يحلموا؟

كشَعْرك الطويل!

د. عبدالله بن أحمد الفَيفي*

تقول لي:
لو كنتَ ليلاً، يا حبيبُ،
ما صحوتُ منكَ.. فيكَ..
ليلتيْ.. إلى الأَبَدْ !
//
فقلتُ:
عُدِّيْنيْ كشَعْرِكِ الطَّوِيْلِ،
يا أميرةَ الظِّباءِ،
ليلةً طويلةً..
تنامُنيْ سَمَاوَتَاكِ،
واجذُبي الحُلْمَ وسادةَ النَّدَى
مِنْ نَهْرِ رُوْحِيْ واختِلاجَةِ الجَسَدْ !
//
وحافظيْ، يا هِرَّتيْ،
لكِ وليْ،
على ابتهاجِ روحِنا بروحِنا،
كي لا تنامَ في المنامِ
نخلُنا الطوالُ-
إمّا يستفيقُ الحُلْمُ-
غيرَ واقفةْ !
//
تقول لي:
أما تزالُ، يا كسولُ، نائمًا ؟
أقول:
ما يزالُ طفلٌ دائمًا بحُضْنِ أُمِّه الغزالةِ،
التي تظلّ تحضنُ الشموسَ منذُ أَلْفِ
حُلْمِها،
وحُلْمُها يَبْنِيْ حديقةَ النُّضَارِ في الدِّماءِ
راجِفَةْ !
//
تُدنيْ مصابيحَ الهَوَى،
حبيبتي،
لكنّها سرعانَ ما تُطفي بِصَدْرِيْ
لَحْظَةْ
لها بها مليونُ قَلْبٍ
عُمْرُهُ دَمْعُ الشُّموعِ الرَّاعِفَةْ !
//

تُدنيْ مصابيحَ الهَوَى،
حبيبتي،
لكنها سرعانَ ما تُكسِّرُ الإيقاعَ في صَدْرِ القَصِيْدِ،
تتركُ الحروفَ للحروفِ
في يَدِ الرِّياحِ نازِفَةْ !
//
صديقتي الحبيبةُ،
التي شرِقْتُ في فميْ،
لمّا عرفْتُ أنّها ليستْ تَحِنُّ للغِناءِ،
يَغْسِلُ الوَنَى،
ويَهْصِرُ الغُصُوْنَ نَشْوَةً،
ويَبْعَثُ الجَنَى،
وأنها سُدَى
تُفَتِّشُ الطُّيُوْرَ عن صُدُوْرِها
لتَعْرِفَ الحَلالَ والحَرامَ
كيما تتَّقِيْ عن مَعْرِفَةْ !
//
صديقتي الحبيبةُ،
التي تثرثرُ الصباحَ في المساءِ،
والمساءَ في الصباحِ
فتنةً بحَرْفِها الجميلِ حِبْرُهُ،
وبَحْرُهُ الثُّرَيّا في سُهَيْلِ وقتِه،
فأينَ مِنْ صديقتيْ / قصيدتيْ
عيونُ ماءٍ
في مَتَاهتَيْ شَفَةْ ؟!
//
صديقتي
مشغولةٌ بنفسِها
ونفسُها مشغولةٌ بنَفْسِها..
...
متى تُراها تصطفينيْ، غِرَّةً،
كي يَهْطِلَ النهارُ صَحْوَهُ،
وليلُها المقيمُ بيْ يَقُوْمُ لَيْلَكا،
هُنَيْهَةً كسَرْمَدٍ:
نَلُمُّ وَجْدَنا،
ووَقْتَنا،
ونَسْتَجِدُّ نَبْضَهُ العَتِيْقَ..

نَسْتَرِدُّ للمَقامِ أَحْرُفَهْ ؟!

* شاعر وناقد، عضو مجلس الشورى، وأستاذ النقد الحديث بجامعة الملك سعود

ديوان الأمس ديوان اليوم

«واحة الغروب»

الصلح المستحيل مع الماضي في واحة سيوه



بعد الروايتين الكبيرتين «قالت ضحى» و«خالتي صفية والدير» اللتين وضعتا بهاء طاهر في مصاف كبار الروائيين العرب المعاصرين، ينقلنا هذا الروائي، إلى أجواء الصحراء المصرية في روايته الجديدة «واحة الغروب» التي حازت مؤخراً الجائزة العالمية للرواية العربية التي تشرف عليها مؤسسة الإمارات بالتعاون مع مؤسسة جائزة بوكر البريطانية، وذلك من ضمن 131 رواية كانت مرشحة لهذه الجائزة من 18 دولة.
الكاتبة ليلى أمل* تقدِّم هنا عرضاً موجزاً لموضوع الرواية وأبطالها المرهقين بماضٍ يكبِّل حاضرهم. واختارت لنا مقتطفات مختارة يصف فيها بطل الرواية نفسه والبطلة وعالمهما بكل ما فيه من ألوان وتناقض.

* باحثة من مصر

يقولـون إن الصحـراء تغيّر البشـر. ويقولون إن نقاءهـا وقسوتها يردّان الأرواح إلـى أصلهـا، ويستدعيان حقيقتها الكامنـة في أعمق نقطة منها. مـاذا لـو جاءها من اعتـاد أن يكون في المنتصف مـن كل شيء؟ منتصف النبـل والخيانة، البطولة والانتهازية، الرغبـة والرفض، الكره والحب. مـاذا يحـدث لـو جاءهـا، فوجد فـي نفسه غير مـا اعتاد عليـه؟ هل تكون الصحراء قد غيّرته أم ردّته إلى أصله؟ أبعدته عن حقيقته أم قرّبته؟

مجتمع واحة سيوه

يتّجـه بهاء طاهر في روايته الجديـدة «واحة الغروب» إلى واحـة سيوه، إحدى واحات صحـراء مصر الغربية، لتكون مسرحاً لأحداثـه. يغوص في تاريخ الواحة حتـى السنوات الأخيرة مـن القرن التاسع عشـر، ويفتـح لنـا نافـذة نطل منهـا على مجتمـع شديـد التعقّـد بحـدوده وعاداته وطبقاتـه، يمثّل مادّة خامـاً شديدة الثراء لهـذه الرواية. وعبر فصـول الرواية، نرى مجتمعاً أنهكته الحـدود والأسوار. الحدود العشائرية تقسمه إلى عشيرتين كبيرتين، الشرقييـن والغربييـن، لم تنقطـع بينهما الحـروب عقوداً طويلـة. تهدأ أحياناً حقبـاً قليلة مشحونة بالتوتر من الجانبين، ثم تندلع نارها ثانية مع أقل شرارة. والحـدود الطبقية تقسم هذا المجتمع إلى فلاحين وسادة أو زجالـة وأجـواد. يملـك الأجـواد الأرض والبساتيـن، ويسكنـون في البلدة الكبيرة، ويتحكمون بقراراتهم في كل صغير وكبير مـن شؤون الواحة وأهلها. أما الزجالة فهم مجنـدون للعمـل في فلاحـة الأرض. يعملـون وينامون في البساتيـن، وممنوع عليهم دخول المدينـة وعبور أسوارها بعد غروب الشمس.

التقى المصري زوجته الأيرلندية الأصل على كراهة الاحتلال الإنجليزي.. لكنهما قصدا سيوه، كل بحافز مختلف

وعلـى الرغم من الخـلاف المزمن بين عشيرتـي الواحة، والأحقـاد التي تراكمت عبر السنيـن، تدفعهم الحاجة إلى التوحـد حيال خطـر أكبر يأتيهم من الخـارج. هذه الخطر هو الحكومـة ورجالها ومحاولاتها فرض سلطانها عليهم. فالواحة التي عاشت على مر قرون، أرضاً مستقلة لا تخضع لأي دولـة أو قوة خارجها، تقاوم خضوعهـا لسلطان الدولة المصريـة. ترسل الحكومـة جنودها ورجالهـا، فيثور أهل الواحة عليهم، ويمتنعون عن دفع الضرائب، ويلهب الإنجليز الذيـن كانوا يحتلـون مصر في ذلك الوقـت هذا الخـلاف، فتتسـع الهـوة، ويستحيل على الطرفين التوصـل إلى حل أو اتفاق.

يتخذ بهاء طاهر من هـذه الأرض خلفية لروايته، ثم ينسج أحداثهـا حول خيطين يستمدهما أيضـاً من تاريخ الواحة. أول الخيطيـن هـو حـادث انهيار معبـد أم عبيـدة بالواحة عـام 1897م، والخيط الآخر هـو سؤال يـؤرق علماء الآثار عن مكان وجود مدفـن الإسكندر الأكبر، والنظرية التي لم تثبـت صحتهـا بعد عن وجود هذه المقبرة فـي واحة سيوه. يتنـاول الكاتـب هذين الخيطيـن، بسلاسة فائقـة وحرفية عاليـة، ويعقدهمـا معاً، مـن طريـق ربطهمـا بشخصيتي الرواية الرئيسيتين. الضابط محمود عبد الظاهر، وزوجته الإنجليزية كاثرين.

قربى بين الضابط المصري وعالمة الآثار

تبدأ الرواية حين يصدر قرار تعيين الضابط محمود مأموراً لواحة سيوه. يرسله رؤساؤه إلى هناك لجمع الضرائب التي يرفض أهل الواحة تسليمها. يعرف محمود أية مهمة صعبة تنتظره، ويعرف كذلـك أن شكوك رؤسائه في ولائه للنظام كانـت سبب اختياره لتلك المهمة. فهو في نظرهم الضابط المتمـرد المغضوب عليه بسبـب ماضيه في الكفاح الوطني ضـد الاستعمـار الإنجليزي. هـذا الماضي الـذي تبرأ منه قبل سنـوات حين علم رؤسـاؤه بموقفه المعـادي للإنجليز والحكومة، فوجهوا إليه تهمة الخيانة.

«هما إجابتـان قصيرتان في تحقيـق القومسيون أنفيهما من ذاكرتي باستمرار، ولكنهما تقبعان داخلي كالجمر: سؤال: هل كنت تؤيد أحمد عرابي وزمرته؟ جواب: بل كنت من الساخطين على أفعال البغاة».

بـدأت بهذه الإجابة أزمة محمود مـع نفسه. فهو لم يستطع أن يتمسـك بمواقفـه أمام التهديد، ولكنه فـي الوقت نفسه لـم يستطـع أن يسوغ ذلـك أو يغفره لنفسـه. فظلت إجابته تلك عـاراً يحملـه معه طـول الوقـت. وإلى جـوار محمود، نجد كاثريـن زوجته الإنجليزية، ذات الأصـول الأيرلندية، والباحثـة في علـم الآثـار. التقاها حين كانت تـزور مصر بعدمـا انتهـى زواجهـا الأول الفاشـل برحيـل زوجهـا عن الحيـاة. حين التقيـا، كان كلاهما يحـاول أن يجمع أشياء مبعثرة في داخلـه، وجمع بينهما بالإضافة إلى ذلك كراهة كل منهما لما يفعله الاحتلال الإنجليزي في بلديهما، وماضٍ فشل فيـه كل منهما في أن يجد نفسـه، ويحيا حياة متسقة في ظاهرها وباطنها.

رسـم الكاتـب شخصيتـي محمـود وكاثريـن بدقـة. فهمـا شخصيتان تختلفان مقدار تشابههما، وتتحركان بين جانبي طيف واسع من المتناقضات. منذ الفصول الأولى نعرف أن محمـود يعيش أسيراً لماضيه، تعذبـه أخطاؤه، ويود دوماً لو

كان أرقى. لكنه يَعلق بهذا الماضي الذي لا يرضى عنه، دون أي جهد حقيقي لتغييره، أو إغلاق ملفاته القديمة والبدء من جديد. لذلك نراه منذ بدء الرحلة إلى الواحة يتحدث كثيراً عن الموت، حديثاً هو مزيج من النبوءة والرغبة. فروحه اليائسة ترى أن الموت هو الخلاص الوحيد المحتمل، وحساب عقله يؤكد له صعوبة المهمة التي أوكلت إليه، واحتمال أن تنتهي حياته على يد أهل الواحة كما انتهت حياة المأمورين السابقين.

لاقى محمود الموت الذي كان يجد فيه خلاصه، ووجدت كاثرين مفتاحاً في النقوش على جدران المعبد تشير إلى وجود مقبرة الإسكندر في سيوه

«خوفي من وصول القافلة سالمة إلى مقصدها لا يقل عن خوفي من أن تضل الطريق. أعلم جيداً أني ذاهب إلى المكان المنذور لقتلي».

وباليقين نفسه الذي يرى به محمود أن رحلته إلى الواحة هي رحلة النهاية، تراها كاثرين فرصة للبدء من جديد في كل شيء. في علاقتها بنفسها، وبمحمود، وفرصة لتحقيق مجد علمي باكتشافها دليلاً على وجود مقبرة الإسكندر في سيوه، أو ربما اكتشاف المقبرة نفسها. فهي ترى الدنيا عبر منظار شخصي للغاية. لكنها لا تغرق في ذاتها كما يفعل محمود. وإنما يدفعها ماضيها الحافل بالخيانة والخيبات، تماماً كماضي محمود، إلى أن تتحرك للأمام وتبني مستقبلاً مختلفاً.

«لا أفهم أي معنى للموت، لكنه مادام محتماً فلنفعل شيئاً يبرر حياتنا. فلنترك بصمة على هذه الأرض قبل أن نغادرها».

بعد رحلة طويلة في الصحراء، يصل محمود وكاثرين إلى الواحة. يفاجأ محمود بفقر أهلها، ويرى جسامة الضرائب التي تطالبه الحكومة بجمعها منهم، فيكتب لرؤسائه مقترحاً خفضها إلى النصف، ويسعى في أن ينجز مهمته دون العنف الذي ينصحوه به. يحاول كسب ود أهل الواحة واحترامهم. فيذهب إلى صلاة الجمعة في مسجدهم الكبير، ويمشي في الطرق وحيداً بلا حرس ومواكب، ويخرج على رأس مجموعة من الجنود يطارد لصوص البدو، ويحمي الواحة من غاراتهم. لكن ذلك كله لم يفلح في أن يمتص بعضاً من نظرات الكراهية والتوجس التي لم يخطئها محمود وكاثرين، في كل العيون منذ لحظة وصولهما. فمحمود مهما فعل، في نظرهم المأمور مبعوث الحكومة المكلف جمع ضرائب تثقل كواهلهم، وكاثرين هي المرأة الأجنبية التي تقتحم بلدتهم وتفتش فيها بحثاً عن كنز الواحة الذي خبأه الآباء الأقدمون.

عالم عالق بين الحرب وقسوة الحياة

على أرض هذه الواحة المعزولة في قلب الصحراء، يرسم لنا الكاتب صورة عالم علق أهله بين شقي رحى. الحرب، والحياة القاسية بظروفها وتقاليدها. ونرى كيف تتداخل الخيوط التي تنسج قصص كل من يعيش فيها، لتشكل مستقبل الواحة بأكملها. فأهل الواحة يقررون أن تتزوج مليكة الصبية اليتيمة ذات الخمسة عشر عاماً، من معبد، الشيخ الشرقي، في أول «زواج سياسي» يجمع بين العشيرتين، أملاً في أن تتوقف الحرب بينهما. وحين تكره الصبية حياتها مع زوج في عمر جدها، يتحول الخلاف إلى نذير بحرب بين العشيرتين، لا ترتفع ظلاله عن الواحة إلا بموت معبد. وحين تذهب مليكة لمقابلة كاثرين وطلب صداقتها، تظن كاثرين أنها أتت لإيذائها، فتضربها دفاعاً عن نفسها، ويعرف الجميع أنها خرجت من دارها وهي أرملة تتلبسها روح الهلاك كما يعتقدون، فيتآمرون لقتلها فيتخلصوا من اللعنة التي حلَّت بواحتهم. تتغير الحياة في الواحة بعد حادث مليكة. فمحمود يهدد أهل الواحة بسبب تهجمهم على داره، والغربيون يطالبون بالثأر منه لأنه وزوجته سببا مقتل ابنتهم. والشيخ صابر كبير الشرقيين يستغل الحادث ليشعل العداء بين الحكومة والغربيين، فيقتصوا هم من أعدائه، وينال هو منصب عمدة الواحة. أما الشيخ يحيى، حكيم الواحة وخال مليكة، فينتهي به الحال إلى اعتزال قومه وهجرهم ليعيش آخر أيامه في حجرة صغيرة في بستانه، بعدما يئس منهم، ولم يستطع بعلمه وحكمته أن يوقف القتال المشتعل دوماً بينهم، ولم يستطع حتى أن ينقذ ابنته من الموت.

ثم تأتي النهاية حين يذهب محمود مندفعاً إلى المعبد لينسفه بالديناميت. فالمعبد القديم رمز للماضي الذي يحاصر محمود بذكريات أليمة تبعث في روحه الخزي والانكسار، وهو الذي سبّب حجرٌ هوى من مدخله كسرَ ساق الشاويش إبراهيم وإصابته بالعرج حتى آخر عمره. وهو الذي ألهت نقوش جدرانه كاثرين عن الاهتمام بأختها المريضة التي تعيش آخر أيامها في الدنيا. وهو المكان الذي أحبته مليكة ووجدت فيه جمالاً مس روحها، فأصبحت ترى الدنيا بعيون مختلفة عن تلك التي يراها بها قومها. وهو مجد الأجداد الذي يرى الضابط وصفي أنه لا يمكن بناء مثله، إلا حين تصبح البلاد خاضعة للإنجليز. تتساقط

حجارة المعبد، ويسقط محمود تحتها، وتلقى روحه السكينة التـي كانت تفتقدها أول مرة، فيـودع الحياة وهو يطلب من الجميع أن يسامحوه.

تنتهي الرواية بأن يصل محمود وكاثرين إلى الغاية التي بدأ كل منهمـا رحلته من أجلها. لاقى محمـود الموت الذي كان يجد فيه خلاصـه، ووجدت كاثرين مفتاحاً في النقوش على جـدران المعبد تشير إلى وجود مقبـرة الإسكندر في سيوه. لكنهمـا فـي الواقع لـم يصلا إلى غايـة حقيقيـة، إذ لم ير أحدهمـا إلا ما أحب أن يجده ويراه. لم ير محمود في داخله إلا خائناً يستحق الموت. حتى عندما أعلن أمام وصفي رأيه فـي الإنجليز والاحتـلال، لم ير في ذلـك إلا شجاعة جاءت متأخرة، كان أفضل لها ألا تجيء. وكاثرين لم يكن اكتشافها إلا احتمـالاً، استعانـت بخيالها فيه، أكثر ممـا استندت إلى دليل حقيقي، لكنها كانت مصممة على أن تراه.

«واحـة الغروب» رحلة أرواح تحاول أن تعقد صلحاً مع ماضٍ لا ترضـى عنه، لتكتشف ذواتهـا الحقيقية. إنها رؤية للواقع المعكوس في مرآة ذلك الزمن القديـم، واستدعاء لتاريخ يلقي بظلاله على الحاضر. وسـواء نظر القارئ إليها بتلك النظـرة أو غيرهـا، فإنه سيجـد فيها جمـالاً وحكمة تمس القلب والعقل معاً.

بهاء طاهر

عندمـا نشر بهاء طاهر قصته الأولى في مجلة الكاتب، قدَّمها يوسف إدريس بحفاوة، فوصفه بأنه كاتب «لا يستعير أصابع أحد». وعلى مدى سنوات رحلته في الكتابة التي بدأها عام 1964م، ظل بهاء طاهر سائراً على الطريق التي بدأ بها خطواتـه الأولى. فأسس بكتابتـه عالماً متفرداً بخصائصـه، ومكانـة متميزة فـي الأدب العربي المعاصر.

ولد بهاء طاهر في القاهرة عام 1935م. وحصل علـى إجازة الآداب مـن جامعـة القاهـرة عـام 1956م، ثـم شهادتـي دراسـات عليـا فـي التاريخ الحديـث، والإعـلام. عمـل مخرجـاً للدرامـا ومعـداً للبرامـج ومذيعاً فـي البرنامج الثقافي بالإذاعـة المصرية حتى عـام 1975م. ثم سافر إلـى جنيـف فـي عـام 1981م للعمـل فـي مكتب الأمم المتحدة، وعاش هناك أربعة عشر عاماً. فـي عـام 1972م صـدرت أولـى مجموعاتـه القصصية (الخطوبـة)، وتنوعت كتابته بعدئذ بيـن القصـة القصيـرة والروايـة القصيـرة والروايـة. تنقـل خلالهـا بيـن أجـواء القاهـرة بزخمهـا وثـراء التفاعل الإنساني الذي يجمع أنواعاً مختلفة من البشر فيها، وأجواء الصعيد بخصوصيتـه واختلافه، وعادات ناسه التي تعد مـادة خاماً غنية للأعمـال الروائية، ثـم أخيراً أجـواء الصحـراء، التـي نـادراً مـا يتجـه إليهـا الروائي المصري، في روايته «واحة الغروب». حصلـت أعمالـه علـى تقديـر كبيـر فـي مصـر توَّجـه حصولـه علـى جائـزة الدولـة التقديرية فـي الآداب عام 1998م. واختيرت روايتاه «قالت ضحى»، و«خالتي صفية والدير» أفضل عملين أدبيين في سنتي صدورهما، وقال عنهما الناقد الكبيـر علـي الراعـي إنهمـا «أصـدق محاولـة لتضميـن التـراث المصـري القديم فـي الأدب الحديـث». كذلـك فـازت روايـة «خالتـي صفية والديـر» بجائـزة «تشيربـي» الإيطالية بصفتها أفضل رواية مترجمة عام 2000م.

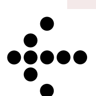
أدب بهـاء طاهـر هـو ذلك الأدب المـراوغ، الذي يعطي انطباعاً أولياً ببساطته، ثم يفاجئ قارئه بكثافـة معانيـه وعمق دلالته. هـو أدب يجب أن نقرأه مرتين. مـرة لأجل السطور، ومرة لأجل ما بينهـا. فخلف التفصيل والحـدث والوقائع، هنـاك طبقـات أخـرى مغمـورة مـن الـرؤى والرمـوز. وجماله في أن القـارئ يصبح شريكاً فـي تأويـل النص وفـي اكتشـاف رؤاه ومواطن جماله.

تمثـل اللغة أحـد العناصر المهمـة التي يعتمد عليهـا تفـرد أدب بهـاء طاهـر. فهـو يكتـب بإيجـاز شديـد وتكثيـف، وبلغة تتميـز بالصفاء والاقتصـاد، وينتصـر للمعنـى علـى حسـاب الكلمـات. وكما لا يجهد نفسـه وقارئه بزخرفة لغتـه، لا يجهـد بهـاء طاهـر نفسـه بتقصـي الاختـلاف في القالـب الذي يصب فيـه عمله. فهـو روائـي وفـيّ لمواصفـات الروايـة بمعناها الكلاسيكي، يتعامل معها بكونهـا بناء يقتضي درجة معينة من التراتب والنظام. لكنه يجتهد كثيـراً فـي تقصـي الاحتراف فـي أعمالـه. فلا يكتفـي بـأن تكون الروايـة مسرحـاً لتأملـه، أو تسجيـلاً للواقـع بأحلامـه وانكسـاره، لكنـه يحـرص علـى إحكام بنـاء الرواية فيمـا يتعلق بأحداثهـا، وتفصيـل التفاعل بيـن الشخصيات



الـذي يفضـي إلـى تسلسل هذه الأحـداث. فهو يـرى أن الروايـة إن لـم تكـن ممتعـة للقـارئ، فلـم يشعـر برغبتـه فـي مواصلة قراءتهـا لأنه يتوقـع تمامـاً ما سيأتي، فالأفضل عدم كتابتها. ويجعل هذا كتابته عوالم متكاملة، تأسر القارئ وتمتلكـه، فلا يستطيـع أن يتركها قبل نهايتها، ثـم يظـل عالقـاً بهـا بعدئذ بفعل الجـو الساحر الذي شيدته الرواية من حوله، أو الأسئلة التي يكتشف أنها تلاحقه بإلحاح.

بهـاء طاهـر روائـي كبيـر، وقـاص محتـرف، وهـو قبـل ذلـك أديـب يحتـرم أدبـه ويحتـرم قارئـه. وليـس أدل علـى ذلـك من قولـه إنـه إن لم يقل شيئـاً جديـداً تمامـاً فالأفضـل فـي رأيـه أن يصمت، ونرجوه ألا يفعل أبداً.



محمود يتحدَّث لنفسه

هـا هـو بستان الروح كمـا يقول سعيـد. ربما روحـه هو، لا روحـي أنا. لا يحرك شيئاً في نفسـي هذا البستان الأصفر. ربما الغضب.

تترامـى الصحـراء أمام عيني، ولا شيء فيهـا غير الرمال والكثبان والأحجار والسراب اللامع في الأفق. قيظ بالنهار، ولسعـة برد في الليل. وبين الحين والآخر سلاسل من جبال رماديـة، كأنها بقايا جبل واحد حوَّلتـه صاعقة إلى أنقاض مهوشة.

أركب وكاثرين جملين في المقدمة. تلبس زي ركوب الخيل، وتنفـرد بسرج مسقـوف بقماش سميك مثـل هودج مفتوح. يبـدي الدليل وبدو القافلة اهتماماً بنـا. ينصبون لنا خيمة فـي الليل بينمـا ينامون فـي العـراء مستترين مـن الرياح بجمالهـم الباركة. أما الجنود العشـرة الذين التحقوا معي بالقافلة فيركبون في المؤخرة، باستثناء الشاويش إبراهيم جندي المراسلة الذي ألحقه الأميرالاي سعيد بخدمتي قبل السفر وأوصاني به.

كلمـا مرَّ يـوم في الطريق خيـم صمت أعمق علـى القافلة، وكل العيـون مصوّبة للأمام تحدق في الفراغ. فيمَ يفكر كل منهـم؟ لا أعرف. ولكن الصمت يغزونـي أنا صخباً وصوراً توقـظ كل الماضـي. كل الأحيـاء وكل الراحلين. ربما يكون ذلك قـد بدأ حتى من قبـل الرحلة. أفكر فـي أشياء كثيرة لا سيّما في النهاية.

هـل أخاف المـوت؟ بالطبع. ومـن لا يخافه؟ أسـأل نفسي كيـف سيباغتنـي.. في الواحـة برصاصـة؟ أو كموت عادي بعد مرض قصيـر أو طويل؟ في حادثة عابرة؟ باختناق في الحمّـام أو تسمّـم من طعـام؟ هل يأتي بـدون أية مقدّمات على الإطـلاق؟ مئات الأشكال تختبئ فـي زوايا مظلمة من الطريـق، لتنقضّ مـرة واحدة هـي نفسها النهايـة. أتعمّد كثيراً أن أنسى. لكننـي لا أنسى في هذه الرحلة أمّي. أراها فـي انتظاري فـي تلك الليلة عند عودتي إلـى البيت. تجلس على مقعدها الكبير إلى جوار السرير، بينما ترقد الخادمة علـى الأرض مستغرقـة في النـوم. كنـت أعـرف أن أمي لا تنام قبـل أن تطمئن إلى عودتي، وقبل أن تسألني سؤالها التقليـدي إن كان أخـي سليمان قد كتـب رسالة من الشام. في الغالـب لا تكون هناك أية رسالة، ولكنـي أطمئنها بأني سمعت أنـه هو وأولاده بخيـر. قبّلتُ كالعـادة رأسها ويدها وسألتها إن كانت بحاجة إلى شيء. طلبت كوباً من الماء لأن قلبها لم يطاوعها أن توقظ الخادمة. وقبل أن أصل إلى باب الغرفة نبهتني: «من القُلّة البني»، ثم لاحقتني: «وفي الكوب النحاسـي». ذهبت إلى الصالة حيث تضـع القلل في صينية علـى إفريـز الشباك البحـري، ورفعت القُلّـة التي تبخرها دائمـاً بالمستكة وتغطيها بمفرش رقيق مخرم، والتي يبرد فيها الماء بالفعـل أكثر من غيرها. صببت الماء في الكوب النحاسـي المزخـرف بفـروع نباتـات ملونة، ورجعـت إلى الغرفـة وفي نيّتي أن أداعبها عن هذا الكوب الذي لا تشرب إلا منـه، لأن أبي أهداه لهـا ذات يوم. مرّت دقيقة واحدة أو دقيقتـان مع هذه الأشياء، وعندما فتحت الباب والكوب في يدي، رأيـت رأسها يميل على صدرهـا. اقتربت منادياً فلم تجبني واكتشفت أنها انتهت.

عشـت شهريـن عاجزاً عـن فهـم أي شيء. أكـرر لكل من يعزّينـي ما حدث ما بين لحظة خروجي من الغرفة وعودتي إليهـا، كأن هذه التفاصيل تنطوي علـى سر أو لغز يفسّر ما حدث. وكنـت أمشي مرتعش الساقين. لـم أفهم.. ومازلت عاجزاً عن الفهم.

نعـم أخاف المـوت، ومع ذلك كنت مستعـداً في وقت ما أن ألقـاه دون تـردد. أيامهـا كان هنـاك معنى، غيـر أنه زمن وانقضـى. لـم يعـد يذكّرني بـه سـوى الألم المتقطـع لأثر الرصاصة التي هشمت عظام ذراعي. أما الآن فمن أجل أي

شيء أموت فـي هذه الواحة المنسية؟ ستندم كاثرين أيضاً لإصرارهـا على السفر. حذرتها كثيراً فظلت ترد دائماً بأنه لا شيء يجعلها تندم ما دامت قد اختارت. لم أفهم مع ذلك سر تلهفها على السفـر. أظن أنها مرة أخرى حكاية الآثار. أهلكتني في معابد الأقصر والصعيد وسقّارة ودهشور، وفي النهاية اعتدت أن أتركها تذهب حيث تشاء بحراسة جندي المراسلة. والآن تتحـدث بوَله عن الإسكندر الأكبر وزيارته للواحـة، ولا تصدق نفسها أنهـا ذاهبة إلى حيث ذهب! تريد أن تعبـر الصحراء لتتبع خطـاه وتفتش عن آثاره ولا يهمّ أن تكون حياتها هي الثمن. امرأة شجاعة! امرأة مجنونة! لكن ربما هذا الجنون هو ما يربطني بها.

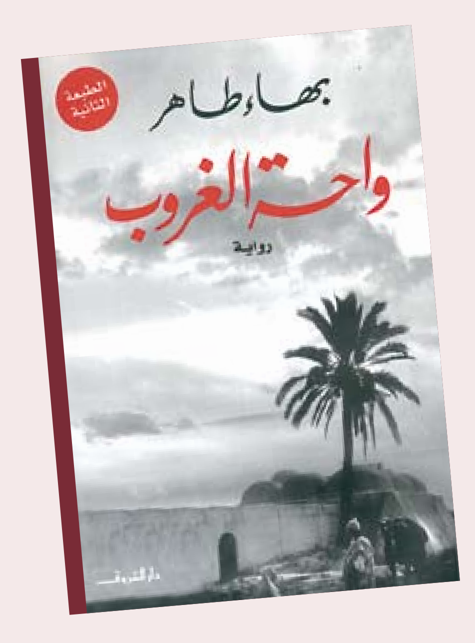
لسـت مسافراً الآن مـن أجل كاثرين علـى أي حال، ولا من أجل الترقيـة التي ظل هارفي يلحّ علـى تذكيري بها. وربما لولا عـار المحاكمة العسكرية التي ألمـح إليها سعيد، ولولا أنـي لا أعرف لنفسي مهنة أخـرى لرفضت الترقية والسفر معاً.

فليحـدث مايحدث. أذكر من أيـام المدرسة بيتاً قديماً من الشعر:

وأعـلـمُ عـلـمَ الـيـومِ والأمـسِ قبلَه
ولـكـنـنـي عـن عـلـمِ مـا فـي غـدٍ عَمي

تمنيت لـو كان الأمر هو العكس. لو أجهل ما حدث بالأمس، وأعلـم ما في الغـد. بل أوافق حتى علـى أن أظل أعمى عما يحمله الغـد بشرط أن يختفي الأمس أيضـاً. أوافق على ما هو أقـل.. أن يُشرقَ الصبح فأعيشَ يومي وحدَه وقد غابت مـن ذهني كل الذكريات. أي ترتيـب مريح للحياة أن نعيش اليـوم دون إزعاج الأمس والغد معاً! لكن في هذه الصحراء لا شيء في ذهني غير الأمس، وأنا لا أحبه.

فـي النهار المشاهـد المكـررة نفسها، لا يكسـر رتابتها لا مساحـات متباعدة يتغير فيهـا لون الرمال إلـى الأحمر أو الأبيض، أو ظهور كثبان تجهد الجمال عند صعودها فتبطئ حركتهـا. وكل يوميـن أو ثلاثة يزعق الدليـل مبشراً بقرب وصولنا إلى بئر أو إلى واحة صغيرة مهجورة نستريح عندها ريثمـا ترتوي الجمال. تمر عيني علـى المعالم مروراً عابراً لكنـي أختلس النظر إلـى كاثرين فأراها علـى ظهر جملها



تدير رأسها لليمين والشمال، بدهشة لا تنطفئ في عينيها. هل ترى هي أيضاً بستان الأميرالاي سعيد؟ ما الجديد الذي يجذبهـا هكذا طول الوقت؟ سألتهـا ذات ليلة ونحن نجلس أمـام الخيمة وهي تتطلع باستغراق إلـى السماء المزدحمة بالنجوم، فردّت:

وكيف لا ترى أنـت بنفسك؟ مثلاً هذه النجوم.. أنا لم أرها أبداً في المدينة كثيرة لهذا الحد ولا مضيئة بهذا الشكل.

رفعت عينيّ للسماء وأنا أقول: لأن القمر مازال هلالاً.

فردت: أعـرف. لكني أرى النجوم هنا أكبـر وأقرب. أراها تومض وكأنها تتحرك نحوي باستمرار فأكاد ألمسها بيدي، كما لو كانت تسبح بسرعة في السماء لتهبط إلى الأرض.

ضحكـت ضحكـة خافتـة وأنـا أقول: أعـرف أن كثيـراً من الأيرلنديين شعراء، ولكن الصحراء تغيرنا بشكل مختلف.

– فكيف تغيرك أنت؟

– أنـا تمتـد صحراء أخرى داخل نفسـي، ولا شيء فيها من سكـون الصحراء التي نعبرهـا. صحراء مليئـة بالأصوات والناس والصور.

– هذا جميل أيضاً.

– يكون جميلاً لولا أن تلك الصور عقيمة أيضاً كالصحراء. كلها ترتد إلى ماضٍ ميت، لكنها تطاردني طول الوقت.

تنهدَت وهي تقول: قد لا يكون للصحراء ذنب في هذا. ربما تكون تلك أشياء حملتها أنت معك إليها.

غمغمتُ وأنا أنهض: ربما.

كان حديثنا في الطريق يُختزل أيضاً يوماً بعد يوم. 

قول آخر

«بوتان».. استثمار القيم

محمد ياسين رحمه *

«بوتان» مملكة منسية على جغرافية المكان، تمارس عزلتها في هدوء وقناعة، على جبال الهملايا بين الهند والصين.. وشعب «بوتان» واحد من أسعد شعوب العالم وأكثرها طمأنينة وتحرّراً من استعمار القلق الذي زرعته التكنولوجيا في رؤوس الأفراد ونفسية المجتمعات، لا لأن شعب بوتان يمتلك الثروة الطبيعية والمادية، ولا لأنه شعب أخذ بأسباب التطور وثوراته المعرفية والمعلوماتية، بل لأنه شعب يستثمر في ميراث قيمه وأخلاقه، ويُحوِّله إلى طاقة يومية خلاَّقة، تحفِّزُه على التعلق بالحياة والإقبال عليها بحب واستمتاع، وتوطِّد الصلة بين أفراده وتعزِّز علائق التواصل بينهم. ولا عجب أن يكون «الناتج القومي للسعادة» مصطلحاً رسمياً شائعاً في «بوتان»، لأنه ركيزة أساسية يقوم عليها اقتصاد المملكة.

إن تجربة «بوتان» تحويل ميراث القيم إلى ناتج للسعادة يتدعَّم به الاقتصاد ويتفاعل به المجتمع، تجربة جديرة بالدرس والتعمق، لا سيما أن تجارب الإنسانية عبر قرون الزمن أكدت المقولة الشائعة في مختلف ثقافات الأمم: إن «المال لا يصنع السعادة»، ثم إن الحياة العصرية ارتقت بعقل البشر إلى أعلى مراتب التفكير العلمي والموضوعي، واستطاعت أن «تُعلمن» العقل. لكنها فشلت في «عقلنة» الوعي وفي إخصاب الشعور الإنساني. فبقدر ما وفَّرت من أسباب مادية يسَّرت سبل العيش، أوجدت في المقابل أنواعاً من استلاب الضمير الإنساني، وأحدثت أمراضاً نفسية واجتماعية يتجلى أثرها المفجع في انكماش منظومات القيم والأخلاق السامية وتراجعها. وشئنا أم أبينا، استطاعت الحياة العصرية أن ترهن حركة الأفراد والمجتمعات اليومية، بعناصر التكنولوجيا التي حولت الإنسان إلى مجرد كتلة آدمية لا تملك وقتاً للإحساس بقيمتها الإنسانية، حتى إننا لم نعد قادرين على تصور قضاء أيام بلا كهرباء. فالأمر صار كابوساً فعلاً يشل كل أشكال الحركة في مختلف عُصُب الحياة. فيحدث أن نحتجّ بتعطل السيارة أو شلل محطة الوقود، لنسوّغ تقصيرنا في زيارة أحد أقاربنا، وكثيراً ما نسوّغ بالنسيان ومشاغل العمل وضيق الوقت، لنعلِّل تقصيرنا عما توجبه صلة الرحِم مثلاً.

لقد تغلغلت التقنية في أدق تفاصيل حياتنا اليومية، وكادت أن تحجر، بإفرازاتها السالبة، على كثير من موروثنا الاجتماعي والتاريخي، والخشية كل الخشية على أجيالنا الصاعدة، لأن مساحة الاختيار اليوم شاسعة، لكنها ستضيق غداً، وكذلك درجة الحصانة والمناعة حيال ما تختزنه التقنية من عناصر طاعنة في خصوصياتنا. فخيارات اليوم قد لا تكون متاحة غداً.

إن أجيالنا الصاعدة من الناشئة وتلاميذ المدارس، تطل على العالم وتتفاعل معه من خلال الإنترنت والقنوات الفضائية، أكثر مما تطل وتتفاعل مع واقعنا، وهي تستهلك الساعات الطوال كل يوم في ذلك، فصارت، أو تكاد، أن تنتمي جسمانياً إلى جغرافيتنا، ولكنها ترتبط فكراً وتصوراً بعوالم أخرى، وقد تكون أولى نتائج هذا الارتباط، بروز ظواهر ومظاهر سلوكية واجتماعية، مستهجنة وغريبة عن خصوصيتنا الثقافية والتاريخية، قد لا نستشعر خطرها الآن، ونعدها ظواهر طارئة أو نسلِّم بأنها ضريبة لازبة للعصرنة التي حولت العالم إلى قرية صغيرة. لكن يجب الانتباه إلى أن أجيالنا قد تتحوَّل كلما أوغلنا في الزمن، إلى أوعية قابلة للاستفراغ من مكوناتها الأصلية وإعادة تشبعها بما تطرحه فضاءات الإنترنت والفضائيات وغيرهما.

إننا سائرون في طريق «أتمتة» الإنسان وتحويله إلى كائن يُبرمَج كما تُبرمَج الحواسيب، وسوف يكون التنازل اللاإرادي واللاشعوري عن كثير من عناصر الموروث القيمي والأخلاقي الثمن الذي سندفعه نظير ارتهاننا التكنولوجي واستسلامنا للحياة العصرية، هو طريق بلا نهاية، غير أن ما نجنيه خلاله من مشكلات سوف يضع أجيالنا المقبلة أمام قضايا الهوية والانتماء، ولا عجب، فنحن مستهلكون للتكنولوجيا ومنتجات حياة العصر، ولسنا منتجين لها وفق خصوصيتنا وأبعادنا الحضارية والتاريخية.

وإذن الحاجة ملحة الآن، لا بعد حين، إلى أن نستثمر موروث قيمنا وأخلاقنا لنصنع منه ناتجاً لسعادتنا وسعادة أجيالنا. فيجب أن نستثمر موروثنا الكامن في أعماقنا ونستحضره في مشاريعنا وخططنا وأعمالنا اليومية وننشئ مساحة تفاعل للتواصل فيما بيننا. إننا نعاني أزمة سعادة على مستوى الأفراد والمجتمعات، لم نستطع أن نضمنها بثرواتنا وبما بين أيدينا من تكنولوجيا. فلماذا لا نستوقف الزمن قليلاً وندخل مع تجربة «بوتان» في مختبرات البحث والدراسة؟ أليس جميلاً أن نوجد استثماراً من نوع جديد يضمن السعادة لأفرادنا ومجتمعاتنا؟

* كاتب من المغرب





حكاية الانتصار على الظلام

إنه واحد من أقدم المبتكرات إن لم يكن أقدمها على الإطلاق. وهو النصير الدائم للإنسان في مواجهة ظلام الليل الموحش. فمن دونه لشُلَّت حركة البشر ما بين الغروب والفجر، ولحذفنا من تاريخ الإنسانية كل ما أنجزته في لياليها على ضوئه..

اتخذ أشكالاً عديدة على مر التاريخ، ولا يزال يتطور يوماً بعد يوم، ولكن أياً كانت المواد المصنوع منها، من الحجر إلى الزجاج، وأياً كان وقوده من الحطب والزيت إلى الكهرباء، فإن مهمته تبقى واحدة: تبديد الظلام في محيطه تيسيراً للحركة والحياة والعمل وإيناس البشر في وحشة الظلام المقلق والمخيف.

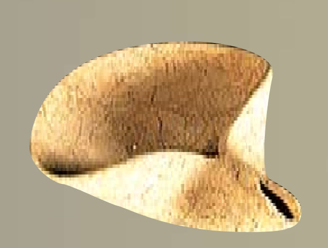
ومع ملازمته للإنسان في حياته ألوف السنين، رأى هذا الإنسان وجود رفيقه تحصيل حاصل، لا يفكر فيه إلا عندما يفتقده، أما دوره الكبير في تطور الإنسانية فيكاد لا يثير اهتمام أحد، وهذا ما يحاول فريق القافلة تسليط الضوء عليه.. الضوء على المصباح.

قصائدنا بلا صوت ، بلا طعم، بلا لون..
إذا لم تحمل المصباح ، منً بيت إلى بيت.
وإن لم يفهم « البسطا» معانيها فأولى أن ندريها،
ونخلد نحن للصمت.

محمود درويش



تاريخ المصباح







الإنارة قبل المصباح

إذا استثنينا قمر الليالي المنيرة، كانت النار أول ما أنار ليل الإنسان قبل عشرات ألوف السنين، حين كان لا يزال صياداً، يتنقل في الغابات والبطاح، لا يعرف مستقراً ولا منزلاً يقيم فيه. لم تكن النار مصباحاً يمده بالضوء ووسيلة لتخويف الحيوان ليبتعد عن مواطن البشر فقط، بل مصدراً للدفء في برد الشتاء أيضاً، ثم صارت وسيلة لطهي الطعام.

من أين أتت النار لتنير ليلة الإنسان القديم؟ لم تكن عند الإنسان الأول بالطبع مصادر الوقود المتوافرة له اليوم، بل انه لم يبحث متعمداً عن النار، بل جاءته النار طوعاً، من حرائق الغابات وصواعق العواصف، على غير موعد. وتمكن الإنسان القديم في مرحلة ما، من ترويض وحش النار المخيف، الذي خشيه كثيراً، ولا يزال يخشاه إلى يومنا هذا. وتعلم الإنسان القديم فوائد النار، وكيف يحتفظ بشعلتها، لأغراض الضوء والدفء والطهي وإبعاد الحيوان المفترس. ويقول علماء الآثار إن أجدادنا في إفريقية، قبل مليون ونصف مليون سنة تقريباً، استطاعوا أن يستغلوا نار الشجيرات الجافة التي تشتعل في الطبيعة. وفيما بين 730 ألفاً و200 ألف سنة قبل عصرنا، تمكن إنسان العصر البلستوسيني الباكر، من حفظ شعلة النار حين يحصل عليها من المصادر الطبيعية، لكنه لم يكن بعد تمكن من معرفة وسيلة من أجل إشعال النار بنفسه، إذا شاء.

وخطا الإنسان خطوة واسعة في تاريخ الحضارة قبل ما بين 200 ألف و60 ألف سنة، حين تمكّن من اكتشاف طريقة ليشعل بنفسه النار متى شاء، وأينما شاء، فينير ليلته أو يطهو طعامه أو يتدفأ ويخيف الحيوان المفترس. وصارت حراسة النار الدائمة مهمة بالغة الأهمية عند الإنسان القديم الساذج، لأنه خشي انطفاءها، لصعوبة إعادة إشعالها. وكانت رفاهيته مرهونة بحصوله على هذه النار.

اختراع المصباح

لم يكن الضوء أمراً مكتسباً إذن، بهذه البساطة التي نعرفها اليوم. فقد أمضت البشرية مئات ألوف السنين لتصل إلى اكتشاف وسيلة الإنارة التي نسميها اليوم: القنديل أو المصباح أو الفانوس. فقبل 75 ألف سنة بدأ الإنسان البدائي يحمل عود حطب مشتعلاً معه لينير طريقه، أو كهفه. وفيما بعد اكتشف وسيلةً أحفظَ للنار وأطول عمراً من مشعل الحطب، إذ تعلم استخدام فتيل من ألياف النبات، يغمسه بشحم الحيوان. ولاحقاً صار يضع الشحم في تجويف حجر طبيعي يعثر عليه، إذ كان التجويف قادراً على احتواء مقدار أكبر من الشحم، أي انه صار مصباحاً أطول عمراً في إنارته. وكان بعض هذه المصابيح كبيراً غير قابل للنقل، أو صغيراً يحمله المرء حيثما شاء، وفق حجم الحجر المجوف ووزنه. وتعلَّم الإنسان البدائي فيما بعد أن ينحت الحجر، ليصنع التجويف الذي يناسبه، وربما تفنن فيه ليجعله جميلاً.



قبل 20 ألف سنة، صار الشحم والزيت الوقود المعتاد للمصباح. وعند ظهور الفخار، وبدء صنعه على نطاق واسع في الحضارات القديمة، لا سيما في مصر والعراق وسورية، صار الوعاء قطعة فنية يتبارى الحرفيون في صنعها وتجميلها، وأخذ الملوك والأثرياء يقتنون منها ما زوّقه الفنانون بالذهب والبرونز وغير ذلك من وسائل التزويق. ويعثر البحاثة والمنقبون في مصر كل يوم على نماذج لا تحصى من مصابيح الزيت، مصنوعة من فخّار أو معدن أو منحوتة في حجر. ومنها ما يتخذ شكل حيوان أو طائر أو شكلاً هندسياً. ولعل أشهر التحف التي عثر عليها في هذا المجال، مصباح المرمر الثلاثي الأحواض، المنحوت في شكل زهرة اللوتس، وقد وُجد في مدفن الفرعون توت عنخ آمون (1325 قبل الميلاد). عند إشعال الفتيل المغمس في زيت هذا المصباح، كان يبث عبر المرمر الشفاف ضوءاً غامض الأشكال في المكان، يبعث على الخشوع والرهبة. وقد أضاف المصريون الملح إلى زيت الإنارة لمنع انبعاث الدخان من النار المشتعلة. لكن الدور الاقتصادي الذي لعبه المصباح لم يكن قليل الشأن، إذ إن صنعة المصابيح كانت من أكثر المهن ازدهاراً، لحاجة الناس الماسة إليها، من أدنى طبقات المجتمع إلى أعلاها. وكان أمراً محسوماً أن تكون لهذه الصنعة مكانتها في الاقتصاد القديم.

أداة التفوق الحضاري

ظهر مصباح الزيت في مصر أولاً قبل نحو ستة آلاف عام، لكنه كان بدائياً، منحوتاً في حجر، وكان الفراعنة الأوائل يستخدمون فيه زيت الزيتون أو زيت الخَروَع أو الودك، شحم الحيوان، أما الفتيل فكان من الكتّان. وكانت الإنارة ليلاً من أسباب تفوق الحضارة الفرعونية، ومن أدوات هذا التفوق، لأنها كانت تتيح مواصلة العمل ليلاً، في المشاريع الكبرى. لكن هذه الإنارة كانت كذلك من مظاهر الاحتفال بالأعياد والمواسم. ويصف هيرودوتس في القسم الثاني من: التواريخ، ليلة منيرة في مصر القديمة، فيقول: الآن كل المصابيح مضاءة، مليئة زيتاً مملّحاً، فيما يطفو الفتيل فوق الزيت، مشتعلاً كل الليل، في هذا المهرجان المسمّى: لِخنوكايا (أي مهرجان إنارة المصابيح).

أما مصباح الزيت في وادي الرافدين، فظهر مصنوعاً من صدف بحري، يُوضع فيه الزيت أو الشحم، مع فتيل يُشعل للإنارة.

وكان ظهور الفخّار أحدث ثورة في صنع المصباح، إذ صار الصانع يتحكّم في حجمه ويتفنّن في شكله، وكان الفتيل من كتّان.

وأخذ زيت الزيتون ينتشر في استعمال الحضارات المختلفة في مشرق البحر المتوسط. وكان مفضلاً. ولم يمض وقت طويل حتى أخذ صناع المصابيح يضيفون على رأس الفخارة المجوفة وفي مقدمها صنبوراً، يخرج منه الفتيل، من أجل أن ينحصر احتراق الزيت في طرف الفتيل، وتبقى صفحة الزيت مخبأة من اللهب، فيدوم الضوء مدة أطول ويوفّر الزيت. وكان من فائدة الصنبور أيضاً أنه ثبّت الفتيل عند مخرجه. وكان هذا التطور يتسارع في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، في بلاد الرافدين ووادي النيل.



المصباح في المدينة.. إطالة أمد الحركة النهارية إلى الليل

في هذه المرحلة أخذ اليونان يطورون هم الآخرون المصباح المشرقي، ويتفننون في صنعه. وقد أضافوا إليه مقبضاً، في الطرف المقابل للصنبور. ثم استخدموا الزجاج في صنعه، فتجنبوا بذلك رشح الزيت الذي كان يحدث من مصباح الفخّار. ولوّنوا المصباح الزجاجي بالأسود والأخضر القاتم، وألوان أخرى. وقد انتشرت المصابيح اليونانية في إيطالية، في القرن الرابع قبل الميلاد، حين كانت حضارة روما في مراحل نشوئها الأولى. وكانت قرطاج (في تونس اليوم)، قد سبقت الرومان في استخدامها مصابيح الزيت، في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، حسبما أثبتت آثار باقية من حضارتها التي ازدهرت في تلك الحقبة.

لم تكن روما القديمة تنير شوارعها. وكان الجنود يباتون ليلهم وراء الأبواب الموصدة، لأنهم كانوا يخشون أن يتعرضوا لسوء في الظلام وهم غير مبصرين. ولم يكن يطوف في الليل إلا الأغنياء الذين كانوا يملكون عبيداً، ينيرون لهم الطريق بالمشاعل. ولم تعتمد إنارة الشوارع في الليل، في روما، إلا في القرن الميلادي الرابع. عندئذ أخذ أمن الشوارع في الليل يتحسن.

وأتاح استخدام الفخّار والزجاج لصانعي المصباح أن يشكلوا فيه. فمنهم من كان يصنعه في شكل خوذة أو رأس آدمي أو رأس حيوان. وكانوا يصنعون ما يناسب الطقوس الدينية، أو ما يلبي رغبات الملوك والأثرياء وأصحاب النفوذ الذين يوصون بصنع مصابيح خاصة لهم تحمل رمزاً من رموزهم، أو دمغة تدل على صاحبها. وبذلك راوحت المصابيح التي عثر عليها المنقّبون عن الآثار، بين أبسط المصابيح التي كانت تنير بيوت الناس العاديين، وأثمن التحف الخالدة التي حفظت لنا عبقرية فنان مجهول من عصر انقضى. ومع بعض المصابيح، بقي لنا اسم مالكها محفوراً في أسفلها، أو اسم الإدارة التي ملكت المصابيح، أو حتى اسم الصانع نفسه. وكانت أسماء الصانع المحفورة هذه من أوائل الأسماء التجارية التي شهدها تاريخ البشر، فيما نعرف.

وفيما بعد أخذ صناع المصباح يصنعون أيضاً قواعد لنصب الشمع، في سبيل الإنارة. وكانت القواعد مستوحاة من مصباح الزيت. لكن صنبورها الذي تثبّت فيه الشمعة كان لا بد من أن يكون في وسط القاعدة، لا في طرفها، فيما بقي المقبض عند الطرف بالطبع.

وفي إحدى مراحل تطور الإنارة، أكثر الصنّاع في المصباح الواحد، عدد الصنابير والفتائل، أو عدد ركائز الشمع. وزاد بعض الصنّاع على المصباح مرآة أو أكثر، لأجل أن يزيد النور المعكوس قوة الإنارة، أو تركيزها على زاوية معينة، يريدون توجيه الضوء إليها.

ومنذ الأعصر الفرعونية القديمة، أخذ ذوو الموتى الوثنيون يدفنون مع موتاهم قناديل، ظنوا أنها ضرورية عند القيامة. وانتقلت هذه العادة إلى الرومان فيما بعد.

القرون الخمسة الأخيرة

في القرن الخامس عشر تقريباً، أخذ بعض الأثرياء في البلاد الأوروبية، يضعون على نوافذ بيوتهم قناديل. ويشعلونها طول الليل، لا لإنارة الشارع في الحقيقة، بل للدلالة على بيوتهم. وكان الناس يستدلون بهذه المصابيح للاسترشاد في شوارع المدن ليلاً، إذا اضطروا إلى الخروج، مثلما تسترشد السفن بالمنارات في الليل. وكان لهذه الأنوار دور آخر لا يقل قيمة عن الأول، وهو بث شيء من الأمن في بعض المناطق، فالشارع المضاء كان يجتنبه اللصوص، لسهولة ملاحظتهم في نور المصباح.

وفي العام 1667م، أمر الملك لويس الرابع عشر بناءً على نصيحة رئيس شرطته، بإبدال المصابيح المنزلية، وإقامة مصابيح أخرى بلدية، من زجاج، تعلَّق بحبل، في وسط كل شارع. ويدل هذا على أن الغرض الأول كان حفظ الأمن، في عتمة الليل. وكان في كل قنديل، شمع يزن نحو ثلث رطل، تكفي للإنارة حتى منتصف الليل، أشهر الشتاء الخمسة. وكان في باريس وحدها 6500 قنديل، تستهلك 1625 رطلا شمعا في الليلة.

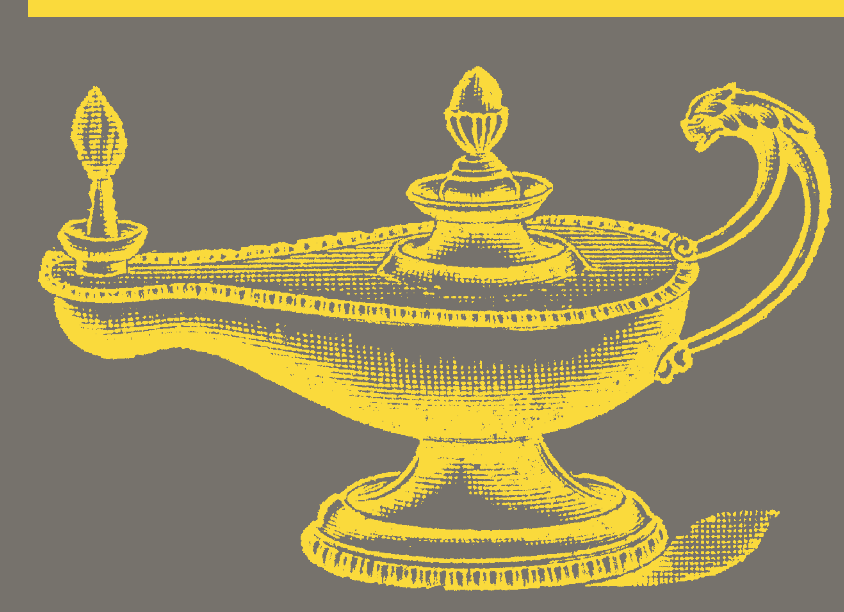
وفي لندن أيضاً، بدأت الإنارة بمبادرة خاصة أولا. ففي سنة 1694م، حصل إدوارد همينغ على رخصة لوضع قنديل عند كل عاشر بيت، يُضاء بين السادسة مساء ومنتصف الليل. وحصل على حق أن يجبي من كل بيت 6 شلنات في السنة لقاء هذه الإنارة. لكن نزاعاً بين نقابة صانعي شمع الشحوم وهمينغ، انتهى بسحب رخصة الأخير سنة 1716م. وهكذا عادت

السلطـة فـي شوارع لندن ليـلاً إلى قطاع الطرق، حتـى سنة 1736م، حين أنشأت بلدية المدينة نظام قناديل تعمل بالزيت، فوزّعت منها خمسة آلاف. ولم تلبث هـذه القناديل أن تضاعفت ثلاث مرات، في غضون سنتين، على الرغـم من اعتراض صانعي شمع الشحوم. وقيـل إن شارع أكسفورد وحده كانت فيه من القناديل أكثر مما في باريس كلها.

ومع هذا لم تكن الإنارة تعم كل الشوارع كل الوقت، وظل المرافقون الليليّون بمشاعلهـم، يعملون طويلاً في المـدن الأوروبية. وقد وظفـت شرطة لندن كثيـراً منهـم لمكافحة السرقـة، فيما استفـادت شرطة باريـس من هؤلاء المرافقين الليليّين، لتوظيف جواسيس لها، يراقبون حركة المشبوهين في الليل.

ظـل هذا الأمـر حتى أول القرن التاسـع عشر، عندما ظهـرت الإنارة بالغاز. فبـدأت المدن نظام إنارة واسع النطاق، وموثوقـاً فيه. ففي سنة 1807 بدأت لنـدن الإنـارة العامـة بالغاز، ثـم بلتيمور في ولايـة مريلانـد الأمريكية سنة 1816، وباريس سنة 1819، فبرلين سنة 1826م. واعترض سكان مدينة كولن (كولونيـا) الألمانية سنة 1816 على الإنارة بالغاز لأنها «تخيف الخيل». وكان على الناس أن ينتظروا نحو نصف قرن لتظهر الإنارة بالكهرباء، أول مرة.

شُبّيك لُبّيك عبدك بين إيديك:
مصباح علاء الدين



حكاية علاء الدين، صاحب المصباح السحري، حكاية عربية قديمة، يقال إنها من بلاد الشام، ودرجت على قصص ألف ليلة وليلة. والمعروف أن ألف ليلة وليلة مجموعة قصص شعبية من بلاد الهند وفارس والبلاد العربية. ومن أبطالها علاء الدين وعلي بابا وسندباد. وقد ظهرت نسخة القصة التي نعرفها اليوم، سنة 1709م، على الرغم من وجود نسخ أخرى تختلف قليلاً أو كثيراً، ولكنها نسخ قديمة جداً بالطبع.

كان علاء الدين شاباً فقيراً يعيش في إحدى المدن، وفي يوم أرسله مشعوذ إلى كهف لإحضار مصباح، ولم يقل له إن هذا المصباح مسحور تحميه لعنة. وغضب علاء الدين لأن المشعوذ لم يخبره بحقيقة المصباح، فاحتفظ به. واكتشف أن ثمة مارداً يسكن المصباح، وأن هذا المارد يستطيع أن يلبي رغباته. ولذا طلب علاء الدين من المارد أن يجعله ثرياً. فصار ثرياً وتزوج الأميرة بدر البدور، ابنة السلطان. لم تكن الأميرة بدر البدور تعرف سر المصباح، فأعطته للمشعوذ الذي انتقم من علاء الدين فأعاده معدماً، وأخذ منه زوجته. لكن المشعوذ نسي أن يسترد من علاء الدين خاتماً سحرياً، كان أعطاه إياه حين أرسله إلى الكهف. وكانت للخاتم قوة سحرية محدودة، لكنها قادرة على تلبية بعض الرغبات.

كان علاء الدين يائساً حين فرك يديه، فإذا به يفرك الخاتم من دون أن يقصد، فيخرج من الخاتم عبد، يعيد علاء الدين إلى أمه، ويسترد المصباح، وبهذا الخاتم استطاع علاء الدين أن يهزم المشعوذ، ويعيد زوجته الأميرة.

هذه الحكاية الخرافية أضافها الكاتب الفرنسي أنطوان جالان سنة 1709م، إلى نسخته من ألف ليلة وليلة، بعدما سمعها من راوية حلبي اسمه يوحنا دياب. لكن المستشرق الفرنسي كوسان دي برسفال وجد حكاية شبيهة سابقة لهذا التاريخ، في مخطوطة أخرى لألف ليلة وليلة. ويدل هذا الأمر على أن قصة مصباح علاء الدين قصة شعبية كانت شائعة ومعروفة قبل ذلك التاريخ.

قصة علاء الدين ومصباحه، وعبارة: شُبّيك لُبّيك عبدك بين إيديك، التي ترمز إلى التمني الذي لا يُرَد، والخدمة المستعدة لتلبية أي أمر، ألهمت كثيراً من الأدباء والفنانين، منذ آدم أولنشلاجر، الذي كتب رواية علاء الدين سنة 1805م. وفي بريطانيا، لا تزال العروض الإيمائية لرواية علاء الدين ومصباحه، تُعرَض منذ نحو 200 عام. وأنتج ديزني، الأمريكي المتخصص بأفلام الكرتون، وصناعة الترفيه، أفلاماً عادية وأفلام رسوم متحركة، عن قصة علاء الدين. ووصلت حمى المصباح السحري إلى بوليوود، قصبة السينما الهندية، التي أنتجت في ستينيات القرن الماضي أفلاماً تتناول قصتي علاء الدين وسندباد. كذلك أنتج الإيطاليون والسوفيات أفلاماً في المصباح السحري. وفي برودواي، شارع المسارح في نيويورك، تمثيلية غنائية عن علاء الدين.

وقد أزيل في لاس فيجاس، عاصمة اللهو الأمريكي، السنة الماضية، فندق وكازينو، اسمه علاء الدين، كان قائماً هناك ومشهوراً جداً، منذ سنة 1963م. غير أن اسم علاء لا يزال يعلو عشرات وربما مئات متاجر المصابيح الكهربائية العصرية ومصانعها، وكأن اسم هذا الفتى المتخيَّل أصبح رمزاً للضوء على مر العصور.

عصر إديسون والكهرباء

لم تفز البشرية بالكهرباء التي لا نتخيل العصور الحديثة من دونها، بضربة واحدة، بل كان اختراع المصباح الكهربائي مسيرة تطور، اجتازت مراحل قبل وصولها إلى المرسى النهائي. فالعالم الحديث عالم مكهرب، إذا جاز التعبير. إذن لا يمكن أن نتخيل العالم الحديث بلا الكهرباء التي أخذت تبرز طلائع حضورها في منتصف القرن التاسع عشر.

بدأ جوزف سوان سنة 1850م، يعمل في صنع مصباح كهربائي كروي من زجاج، يستخدم فتائل ورق مُكَرْبَن (مكسو بالكربون). وحصل سوان على براءة بريطانية لمصباح زجاج نصف مفرغ من الهواء، سنة 1860م. ومبدأ المصباح الكهربائي الأول، تفريغ المصباح الزجاجي من الهواء ما أمكن، حتى إذا مرّ التيار الكهربائي بفتيل الورق المكربن، توهّج الفتيل من دون أن يحترق، لافتقار المصباح إلى الأوكسيجين. وفي سنة 1877م، أنشأ إدوارد وستون، وهو طبيب بريطاني يحب الكيمياء، هاجر إلى أمريكا، شركة «وستون داينمو ماشين» في نيوارك بولاية نيوجرسي، وبعد سنة أنشأ توماس إديسون وهو أمريكي من أصل هولندي، شركة إديسون الكهربائية للإنارة، وتبعه في العام نفسه حيرام مكسيم، بتأسيس شركة الإنارة الكهربائية الأمريكية. وسُمّي المصباح الذي عمل في تطويره كل هؤلاء، المصباح المتوهج (Incandescent Lamp).

كانت أوجه التطوير تتناول على الخصوص تحسين إفراغ الكرة الزجاجية من الهواء، لأن بقاء بعض الهواء فيها كان يقصّر عمر الفتيل المتوهّج. كذلك أخذ المطورون يعملون في تحسين نوع الفتائل نفسها، ليطول عمرها. وكانت سنة 1879م سنة حاسمة، حصل فيها إديسون على براءة اختراعه مصباح الإنارة. وأخذت في السنوات التالية تتوالى مراحل التطوير، وإنشاء الشركات العاملة في الميدان، حتى كانت سنة 1892م، حين اتفقت شركة إديسون للإنارة الكهربائية وشركة تومسون هوستون الكهربائية، على الاتحاد في شركة سمّيت: جنرال إلكتريك، وهي اليوم أكبر شركة في العالم.

حدثت هذه التطورات، فيما كانت الإنارة بالغاز صناعة ناضجة ومعتمَدة على نطاق واسع، وكانت البنية التحتية للإنارة بالغاز منتشرة في مدن العالم، ورخص الاستثمار تقيم شبكة صناعة رائجة ترتبط بها مصالح واسعة وكبيرة. وكانت صناعة أدوات الإنارة بالغاز مهنة رابحة، والناس معتادين على مصدر النور هذا. ولم يكن المصباح الكهربائي جاهزا للمنافسة في مراحل عمره الأولى، إذ كان كبيرا وشديد التوهج، ولم يكن مناسبا لإنارة الأماكن المحصورة في داخل المنازل. وكان على المخترعين أن يحسنوه بتصغير حجمه وتخفيف إشعاعه.

لكن هذا لن يمنع شركات صناعة الكهرباء الناشئة من التفريخ مثل الفطر، لقدرة الاختراع الجديد على اجتذاب أصحاب الطموح.

إنارة المدن بالكهرباء

في سنة 1880م، أسس تشارلز براش شركة كهرباء حملت اسمه، وأقامت نظام إنارة كهربائية بالقوس الكهربائي (لا الفتيل المتوهج) في مدينة واباش، بولاية إنديانا الأمريكية. ولم تكن الإنارة في مدينة كليفلاند بولاية أوهايو، في السنة السابقة، إلا تجربة أولية. لكن كليفلاند لحقت واباش على الفور في إنارة طرقها وشوارعها بالكهرباء.


البندقية


برشلونة

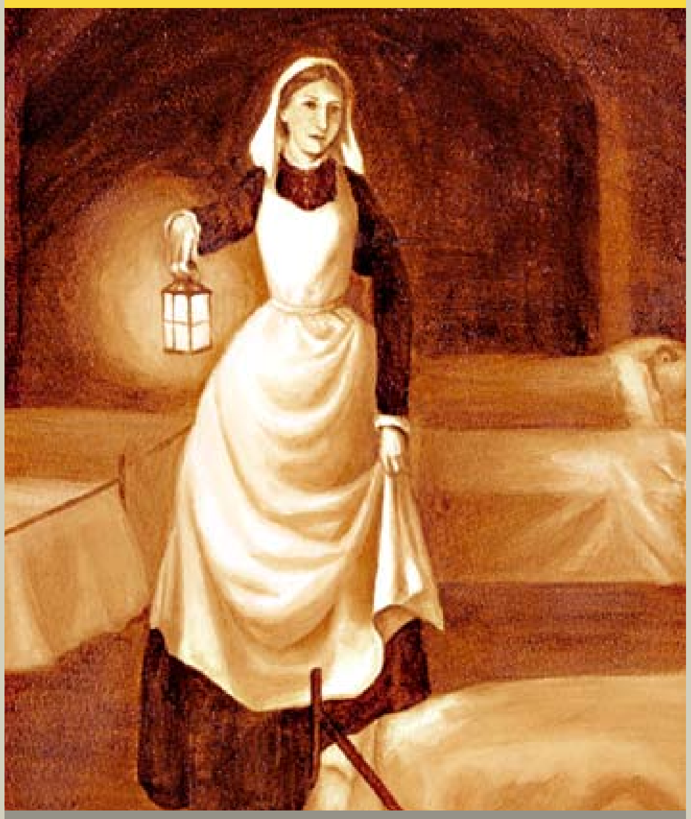
باريس

وسارت المنافسة في السنوات التالية بين الشركات العديدة، على مسارات لتحسين الفتائل والمصابيح وتقوية الضوء والمولّد (الدينامو)، وتقليل الحرارة والعثور على المعادن الأنسب التي لا تذوب من الوهج، إذ كان الفتيل الأول في مصباح إديسون يذوب في ساعتين. فجرب إديسون فتائل البلاتين ثم القطن المكربن والتنجستن، وغير ذلك من المواد والسبائك المتنوعة. وفي سنة 1906م، كانت شركة جنرال إلكتريك صاحبة أول براءة لاستخدام فتيل التنجستن في مصباح التوهج. وكان الفتيل باهظ الثمن في البدء، لكن وليام ديفيد كوليدج حسنه سنة 1910م، فلم يعد الفتيل يسوّد زجاج المصباح، وتفوّق في طول عمره على كل الفتائل الأخرى.

كان أثر الإنارة الكهربائية الاقتصادي، أبعد كثيراً من مجرد الإنارة وحدها، فتحسين المولدات وكل ما يتعلق بالمصباح الكهربائي، حسّن صناعة الكبل والبنية التحتية، وأخذت صناعة الأدوات الكهربائية تفرّخ، حتى إذا أهلّت ثلاثينيات القرن العشرين، كانت الأدوات المنزلية العاملة بالكهرباء قد حوّلت الحياة، وأسست لنمط عصري، لا يزال يتطور بلا توقف حتى يومنا هذا. وباتت أنواع المصابيح وأحجامها أكثر من أن تحصى، وتراوحت ما بين مصباح الجيب الصغير، والكشاف الضخم الذي ينير مساحات شاسعة تقع على بعد مئات الأمتار منه، فنرى شعاعه العملاق يتراقص في سماء المدن العصرية لتزيينها ليلاً، كما كان عود الحطب المشتعل زينة ليل الإنسان في العصر الحجري القديم.



سيدة المصباح



ولدت فلورانس نايتنجيل عام 1820م لأسرة بريطانية ثرية، وعندما بلغت السابعة عشرة من عمرها قررت أن تكرّس حياتها للتمريض، عندما كانت هذه المهنة مرتبطة بالنساء الفقيرات من الطبقات الدنيا، يلحقن بالجيوش من ميدان قتال إلى آخر طلباً للقمة العيش. ورغم معارضة والديها لالتحاقها بالتمريض، استمرت في التزامها شغفاً من جهة، وتحدياً للأعراف السائدة في ذلك الحين من جهة أخرى. ويذكر التاريخ نايتنجيل لإسهامها في رعاية جرحى حرب القرم عام 1854م، حيث أُرسلت إلى تركيا في مهمة رسمية مع 38 ممرضة أشرفت على تدريبهن لرعاية جرحى الجيش البريطاني ومرضاه هناك. وكانت في هدأة الليل تجول وحدها حاملةً مصباحها في أروقة المستشفى، تطمئن على الجرحى وتزودهم ما يحتاجون إليه، حتى اشتهرت بين الجنود باسم سيدة المصباح، وخلّد ذكرها الشاعر هنري لونجفيلو في قصيدةٍ جاء فيها:

لوْ! في تلك الساعة من البؤس
أرى سيدةً تحمل مصباحاً
تمر عبر الظلام الدامس،
وتنساب من غرفة لأخرى.

منارة الإسكندرية:
مصباح العالم القديم سيضيء من جديد

من ضمن شهادات الشهود الذين رأوا منارة الإسكندرية نذكر ما كتبه أبيفانيوس الناسك الذي ولد في فلسطين عام 315م، وتوفي عام 403 بعدما جال في المشرق كثيراً، إذ وصف المنارة الشهيرة بقوله: «في مرفأ الإسكندرية ينتصب البرج المسمى منارة Pharos، عجيبة الدنيا الأولى. إنها مشدودة بالزجاج والرصاص، وترتفع 600 قدم».

لم يكن الارتفاع الذي زعمه إبيفانيوس محتملاً، ولم تكن الأعجوبة الأولى بين عجائب الدنيا السبع هي المنارة، بل الأهرام التي أنشئت قبل المنارة بقرون طويلة. وكان ترتيب المنارة بين العجائب السابعة. لكن حتى يقول إبيفانيوس في المنارة ما قال، لا بد أنها كانت مشهداً يستحق أن يُرى.

فقد وصف البكري، الجغرافي الأندلسي الأكبر (1009م - 1094م) المنارة التي رآها بأم العين، وكانت لا تزال قائمة، حين قال: «المنارة اليوم مكونة من أربع طبقات. الأولى مقطعها مستطيل، وهي مبنية على نحو مذهل من حجارة مكعبة مستطيلة المقطع، لكن المِلاط الذي يجمع بعضها إلى البعض، خفي حتى يبدو الكل كأنه مصنوع من كتلة حجر واحدة. وهي عصية على عوادي الزمن. أما ارتفاعها فيبلغ 320 ذراعاً (الذراع قياس مصري قديم، يبلغ 45 سنتمتراً، أي ان علو المنارة في قول البكري، كان 144 متراً). على رأس الطبقة الأولى يتراجع البناء مقدار سمك الجدار من كل جانب أي ثمانية أشبار (الشبر قياس مصري قديم آخر يبلغ 0.2286 متر، أي ان التراجع يبلغ 1.8288 مترا)، تزيد عليها 10 أذرع أخرى (4.5 أمتار) على السطح الذي يحيط بقاعدة الطبقة الثانية. وفوق هذا تقوم الطبقة الثانية ومقطعها مثمن الأضلاع، وعلوها 80 ذراعاً (36 متراً). وفوق الطبقة الثانية يتراجع البناء مقدار سمك جدارها، وثمانية أذرع. ومن هذه المساحة المقفلة، يصعد المرء إلى مكان مستطيل مقفل، يبلغ ارتفاعه نحو 50 ذراعاً (22.5 مترا)، وفي أعلى كل هذا تجد مصلى».

ويواصل البكري وصفه منارة الإسكندرية الدقيق، فيقول: «عند الجانب الشمالي من المبنى، تجد كتابة لم يستطع أحد فك سرها، ولا فهم ما تعني. باب المنارة حديد، ولا علم لأحد عن زمن صنعه. ويصعد المرء من الباب في طريق منحن، من دون أن، يلاحظ انحناء الدرب. ويبلغ القاصد أعلى الطبقة الأولى حيث تتسع الطريق لمرور فارسين على فرسيهما معا... وعند كل منحنى من هذه الطريق، باب يدخله المرء إلى غرف مساحة كل منها بين 10 و20 ذراعا مربعة (بين 2.025 مترين و4.05 أمتار مربعة) غرضها التهوئة من نوافذها، وفيها كذلك كوى لتسريب الهواء، حتى لا تعصف الريح بالمنارة. ولولاها لأمكن للريح أن تهدم المنارة. أما عدد المنعطفات حتى قمة المنارة فتبلغ 72 منعطفاً، في كل منعطف 12 درجة». (النص مترجم عن ترجمة بالإنجليزية لوصف البكري، غير المنشور حتى الآن).

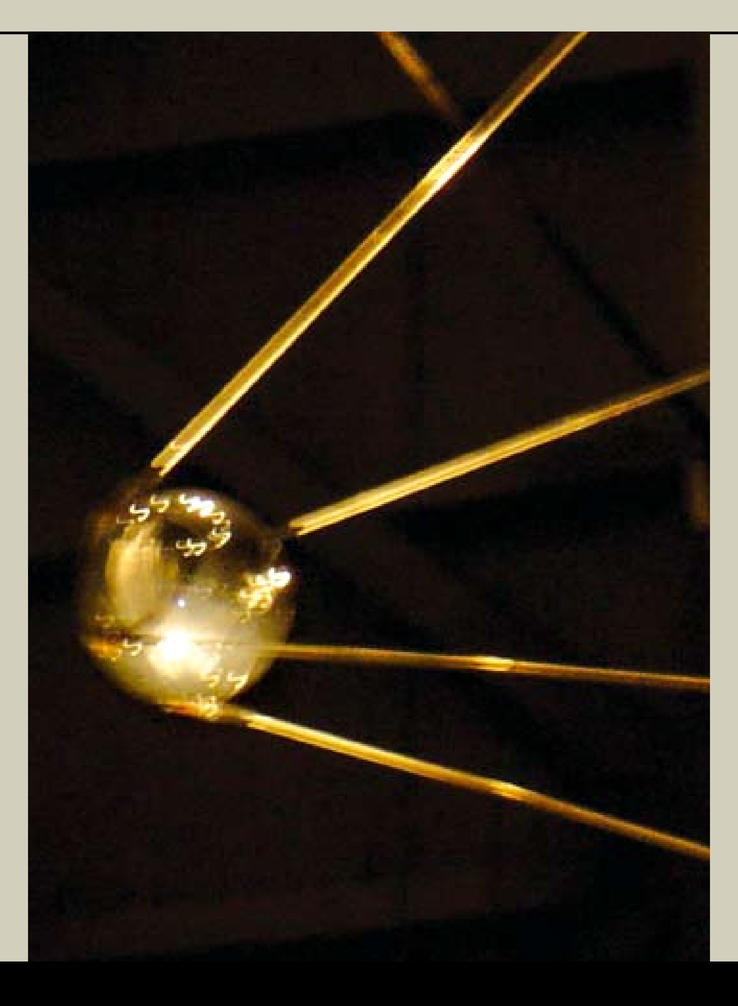
إذا احتسبنا ما قاله البكري في قياس ارتفاع منارة الإسكندرية، فإنه يبلغ 320 مع 80 و50 ذراعاً، أي 675 ذراعاً (202.5 مترين).

في سنة 1375م، قال الجغرافي العربي الكبير المقريزي (توفي سنة 1441م)، وهو صاحب كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار)، إن الطبقة العليا في منارة الإسكندرية انصدعت، من زلزال. وفي سنة 1480م، اتخذ السلطان المملوكي قايتباي من بعض حجارتها ليبني حصنا من حول قاعدتها، ثم انهار معظم ما بقي من المنارة في البحر.

وفي سنة 1995م، اكتشف المنقب الأثري جان إيف أمبرور في البحر، أمام شاطئ الإسكندرية بقايا المنارة، ومنها حجارة يزن بعضها 75 طنا، عند الطرف الشمالي الغربي من ميناء الإسكندرية الحديث.

وفي سنة 1421هـ، 2000م، جاء في نبإ من مصر أن الحكومة صرحت لشركة فرنسية أن تبعث منارة الإسكندرية من ركامها، لتبني المنارة من جديد، وفق الوصف الذي تركه لنا الأقدمون عنها، بالدقة التي تعيد إلينا عجيبة من عجائب العالم القديم، لتقف مع الأهرام، وحدهما شاهدين من ذلك الزمن المجيد، بعدما بادت العجائب الخمس الأخرى، فتلتقط نور الشمس المشرقة قبل الجميع، وتلاحق السفن عند المغيب، حتى مسافة 60 كيلومتراً في البعيد، بضوئها الدوّار.

منارة الإسكندرية في رسم مستوحى من وصفها التاريخي



مصباح الفضاء الروسي... ربما غداً، لا اليوم

بعد ظهر يوم الجمعة 29 كانون الثاني (يناير) 1999م، قرر الروس إعادة القمر الاصطناعي «زْناميا» (أي الراية) إلى الأرض.

الراية، لم تكن راية في الحقيقة، بل كانت مرآة عملاقة قطرها 25 متراً، كانت تجربة أولى فاشلة حاول الروس بها أن يضعوا حول الأرض مصباحاً ينير مدن الكرة الأرضية، من دون استهلاك وقود، بمجرد عكس أشعة الشمس على المناطق المظلمة ليلاً، من أجل توفير المال الكثير الذي يُنفَق في إنارة المدن، واستنباط مصدر مستدام سليم في المعيار البيئي. لكن المرآة الأشبه بمظلة تنفتح في الفضاء، لم تنفتح كما كان ينتظر، حين وصلت إلى مدارها. ولو انفتحت، لحظي بنورها عدد من مدن شمال أوروبا، في الاتحاد السوفياتي السابق كمدينة كاراجندة في كازخستان وساراتوفا في منطقة الفولجا الروسية، وجومل في روسية البيضاء، وكييف وخركوف وبولتوفا في أكرانية، وجمهورية تشيخيا وألمانيا وكندا. ولبلغ قطر المنطقة المضاءة 8 كيلومترات.

وبالفعل، سقطت مركبة الشحن الفضائي الروسية «بروجرس» وعليها المرآة «زناميا» في المحيط الهادئ، واحترق معظمها مع المرآة في أثناء دخول طبقات الجو العليا. وقال فلاديمير سولوفييف، مدير المراقبة في محطة الإطلاق، إن ثمة مرآة أخرى جاهزة على الأرض، لكنها لن تنطلق الآن، لأن جدول برامج الإطلاق لم يلحظ لذلك موعداً. ولم يستبعد ضم المهام المثيلة المقبلة إلى برامج الفضاء الدولية المشتركة. لكن المطلعين عزوا الامتناع عن تكرار التجربة، إلى نقص المال الحاد الذي كانت تعانيه روسيا، في أواخر عهد الرئيس بوريس يلتسين الأسبق.

وكانت تقارير سابقة قد أشارت إلى أن قوة النور الذي ترسله المركبة، لو نجح تشغيلها، يراوح بين مرتين و5 مرات قوة نور القمر البدر في الليالي الصافية. وهذا كاف في كثير من الحالات، للاستغناء ربما عن الإنارة في الطرق، لكن التجربة كانت أصلا تجربة لمشاريع لاحقة، قد تحسّن المرآة وتكبرها لتزيد قوة إنارتها فيما بعد.

صاحب المشروع هو تجمّع ريجاتا الروسي، تقوده شركة إنرجيا، في مدينة كوروليف السيبيرية، وهو يرمي على الخصوص، إلى إنارة مدن شمال سيبيرية، التي يلفها ليل طويل يدوم أشهرا، حين يكون الشتاء في نصف الكرة الأرضية الشمالي.

وعلى الرغم من أن المرء يميل إلى تمني نجاح مشروع يبدو ممتازاً من كل الأوجه، إلا أن بعض العلماء كان لهم رأي آخر في الفكرة. فقبل إطلاق «زناميا»، كتب طوني رايشهارت في مجلة «الجو والفضاء»: «يبدو الأمر جيداً، في ظاهره. فسنحصل على نور أكثر. لكن، هل نرغب حقاً في أقراص تسبح في الفضاء وترسل نوراً إلى الأرض؟» أما كيرين كارول، مديرة مشاريع الفضاء في «داينا كون انتربرايز»، فقالت: «أشك في أن المشروع سينير القطب الشمالي». وقال ديفيد توماس، من جامعة شمال الغال، لهيئة الإذاعة البريطانية: «إن الإنارة الدائمة لمناطق شمال الكرة الأرضية ستسهم في إذابة الثلوج. وبعض الحيوان والنبات يعيش على وتيرة ظلام فصلي. كل شيء، التزاوج والحركة والغذاء، يعتمد على طول اليوم».

ويكره الفلكيون المشروع أيضاً، لأنهم يكرهون القمر البدر للأسباب ذاتها. فنور القمر، ونور المشروع الروسي أيضاً، يحول دون مراقبتهم الفضاء ليلاً.

وذات يوم، حين يعود الروس إلى المشروع، أو حين يحاوله الأمريكيون أو غيرهم في المستقبل، لا بد من أخذ هذا الاعتراض، على تنوع مشارب أصحابه واختلاف زوايا نظرهم، في الحسبان.

المصباح في الفن التشكيلي
ضوءه يطغى حتى على حضوره الكبير



درجت العادة على أن نعدد في ملفات القافلة حضور الموضوعات التي تناولتها هذه الملفات في الفن التشكيلي. أما فيما يتعلق بالمصباح فالأمر يتعدى الحضور القوي والمباشر إلى دوره البالغ التأثير في تاريخ الفن التشكيلي برمته.

فلو بدأنا بالتطرق إلى الحضور المباشر، لوجدنا أن عدد اللوحات التي تظهر فيها القناديل والفوانيس والمصابيح الكهربائية أكبر بكثير من أن يحصى. ونتوقف على سبيل المثال عند واحدة من أشهر اللوحات في تاريخ الفن على الإطلاق: «الغرنيكا» للفنان الإسباني بابلو بيكاسو.

رسم بيكاسو هذه اللوحة الجدارية العملاقة عام 1937م، رداً على قصف الطيران الحربي النازي مدينة غرينكا الإسبانية، وعرضها في السنة نفسها في باريس لتتحول بسرعة إلى أشهر لوحة في الفن الحديث بأسره، وثاني أشهر لوحة في التاريخ بعد «موناليزا» ليوناردو دي فنشي.

تمثل هذه اللوحة مشهداً داخلياً تجري أحداثه داخل غرفة، ومفعم بالعنف والمأسوية. وفي أعلى اللوحة عند منتصفها نرى مصباحاً كهربائياً رسمه الفنان على شكل عين تتطلع إلى الوحشية الجارية تحتها (ثور يدوس امرأة مستغيثة). وبجانب المصباح الكهربائي نرى قنديلاً تحمله يد امرأة تبدو كأنها تطير في الهواء لتتبين ما حولها وسط هذا الظلام... فاللوحة إذن هي لوحة بمصباحين لا واحد.



الغرنيكا بيكاسو.. اللوحة ذات المصباحين

ولكن الدور الذي لعبه المصباح في تاريخ الفن كان أهم من ذلك. ففي أواخر القرن السادس عشر وبداية التالي، أسس الفنان الإيطالي كارافاجيو مذهباً فنياً عرف لاحقاً باسم «المضاء والمظلم» clair-obscur. وتجسد هذا المذهب في لوحات عديدة تمثل مشاهد داخلية في أماكن لا يبدِّد ظلمتها إلا ضوء المصابيح المنعكس على الوجوه والأشخاص والأثاث. حتى أن بعض المؤرخين يروون عن كارافاجيو أنه عندما كان يرسم في وضح النهار، لم يكن يتوانى عن إغلاق النوافذ والستائر وإشعال المصابيح ليرسم على ضوئها.

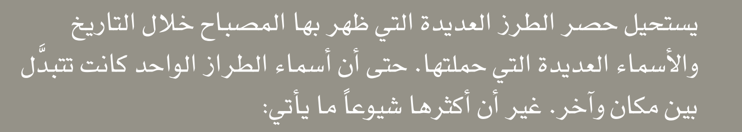
لم تعمر مدرسة كارافاجيو في إيطاليا كثيراً، وإن حظيت بمعجبين ومقلدين وقتاً طويلاً. ولكن آثارها كانت من أبلغ ما يمكن في فرنسا وهولندا بشكل خاص. فخلال القرن السابع عشر ظهر في فرنسا الرسام جورج دي لاتور الذي دفع بمذهب المضاء والمظلم حتى الحدود القصوى، وصار يرسم المشاهد التي تدور كلها في أماكن مظلمة تماماً لا تضيئها إلا شمعة واحدة. وغالباً ما كنا نرى هذه الشمعة في اللوحة. ولكن دراسة متأنية للوحات لاتور تؤكد أن الضوء الذي رسم عليه هو ضوء مصباح أكبر من الشمعة، لاختلاف واضح بين نوع الضوء المنبعث من الشمعة وذلك المنبعث من مصباح.

أما في هولندا، هذا البلد الشمالي الذي يفتقر إلى ضوء النهار القوي أشهر الخريف والشتاء، فقد وجد الفنانون في هذا المذهب الفني الإيطالي المنشأ، مجالاً للعمل بزخم على المشاهد الداخلية، وبعض هؤلاء الفنانين، ومنهم رامبراندت نفسه، يدين بقسم كبير من شهرته إلى الصور الشخصية التي كان يرسمها على ضوء المصباح البرتقالي، الذي أضفى عليها دفئاً وحرارة إنسانية كانت الصور الشخصية تفتقر إليها حتى آنذاك. واستمر تقليد المضاء والمظلم في المدارس الأوروبية حتى نهاية القرن التاسع عشر، أي حتى عصر الانطباعيين

فإن تمكن مونيه من جر الانطباعيين إلى خارج مشاغلهم ليرسموا في الهواء الطلق مشاهد تحت ضوء النهار، فإن الكثيرين منهم لم يفلتوا من أثر الإضاءة الاصطناعية على أعمالهم، وعلى جذب الانتباه إلى عبقريتهم. وينطبق ذلك على عدد لا يحصى من اللوحات مثل الشوارع الليلية التي رسمها فان غوخ وراقصات الباليه اللواتي رسمهن ديغاس، ومشاهد الطاحونة الحمراء التي رسمها تولوز لوتريك، وغيرها الكثير.



الطرز وأسماؤها



يستحيل حصر الطرز العديدة التي ظهر بها المصباح خلال التاريخ والأسماء العديدة التي حملتها. حتى أن أسماء الطراز الواحد كانت تتبدَّل بين مكان وآخر. غير أن أكثرها شيوعاً ما يأتي:

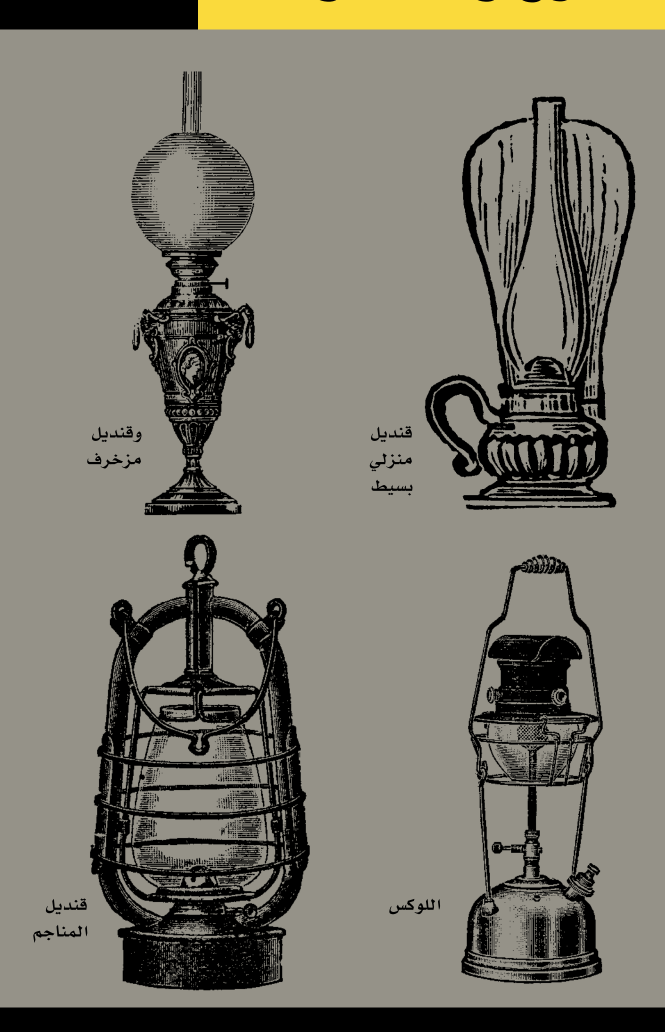
- السراج: وهو المصباح الفخاري أو الزجاجي العامل على الزيت والفتيل، وهو عادة صغير الحجم وله مقبض يمسك به.

- القنديل: مصباح من زجاج يتألف من إناء يحتوي على الوقود (غالباً الكاز)، ويكون فتيله العريض في أعلى الإناء، وتحيط به بلورة أسطوانية الشكل لحمايته من اللهب.

- المشكاة: أرقى أشكال الإنارة من ناحية تصميمها الفني، وكانت شبه مخصصة لإنارة المساجد في المدن الإسلامية، (راجع التفاصيل في مكان آخر من هذا الملف).

- اللوكس: راج في القرن التاسع عشر وحتى أواسط القرن العشرين، ويتألف من خزان للكاز ويتميز عن القنديل بفتيله المصنوع من الحرير الذي يحرق رذاذ الكاز الخارج من الخزان بفعل الضغط، وضوؤه أقوى بكثير من ضوء القنديل.

- المصباح الكهربائي: لا حصر لنماذجه وأسمائها. وهي تشمل مصابيح التنجستين، والنيون، والمصابيح اليدوية، والكشافات وغير ذلك الكثير.



المصباح في الشعر



املئي المصابيح زيتاً واتركي لعبيد الوهم نور الكهرباء...

عندما تقتفي ضوء المصباح في الشعر العربي- سواء أكانت قراءاتك في الشعر الجاهلي أم العباسي أو حتى الحديث- قد يظهر لك للوهلة الأولى خابياً ومنزوياً، في سلسلة أبياتٍ متناثرة تستخدم المصباح أو السراج كتشبيه تقليدي، فهو الضوء الذي يكسر عتمة الليل، ولذلك يصلح لأن يستعين به الشاعر، إن لم يجد شيئاً آخر، ليصف به ضياء وجه الحبيبة، أو مجد القبيلة، أو شرف الآباء والأجداد، أو وحي السماء إلى الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) أو حتى لمعان السيوف في المعركة.. ويخيم على قراءتنا لهذه الأبيات احساس بالظلم للمصباح ولما يمكن أن يمثل، ليس فقط كرمز أو تشبيه، ولكن كذلك كجزء مما يحيط بالشاعر من أشياء ينبغي أن يكون لها مكان في شعره. ولكن سرعان ما ينتشلنا من انطباعنا الأول هذا مجموعة من الأبيات الأخرى تتمرد على « تقليدية» المصباح في الشعر إن جاز لنا القول، وتراه من زاوية أخرى.

نبدأ بقول الشاعر الجاهلي أوس بن حجر، حينما يحكي عن سهره الليل يرقب طيف حبيبته التي تغط في نومٍ عميق دون أن يؤرق منامها شوق أو غرام، فيقول:

قد نمتَ عنّي وباتَ البرقُ يُسهرني
كما اسْتَضاءَ يَهوديٌّ بِمِصْباحِ

فهو في أرقه هذا يشبه الراهب اليهودي الذي يستضيء بالمصباح في عتمة الليل ليقضي الليل في العبادة. ثم تأتي الخنساء، وهي إن لم تتحدث عن المصباح صراحةً، فقد رثت بمرارة الخسارة أخاها صخر ووصفته بالشعلة التي تضيء لتهدي الآخرين إلى الطريق، في قولها:

وإنّ صَخراً لَتَأتَمُّ الهُداةُ به
كَأنّهُ عَلَمٌ في رأَسِهِ نارُ

ويأتي عمرو بن أبي ربيعة، الشاعر الغزلي اللعوب، فيستخدم التشبيه التقليدي للمصباح، ولكنه لا يستخدمه عبثاً أو لسد خانة، بل ليكمل الإطار القصصي لقصيدته، فيحكي عن لقائه بهند وصويحباتها في صورة ملتفة بعض الشيء تضيف تفاصيل إلى خيال القارئ أو المستمع. يقول:

رأيتها مرةً ونسوتها،
كأنها من شعاعها القمر
يدنين من خشية العيون على
مِثْلِ المَصَابِيحِ زَانَها الخُمُرُ

أما ابن زيدون، فهو يركن أيضاً لاستخدام المصباح في صورته التقليدية، ولكنه يعود ليكسر القالب ويقول في أحد الأبيات:

يا مرشدي، جهلاً، إلى غيره،
أغنى، عن المصباحِ، ضَوءُ الصباحْ

ويعود محمد إقبال ليشير إلى حكاية الفيلسوف ديوجين وبحثه الشهير عن رجل في قوله:

رأيت الشيخ بالمصباح يسعى
له في كل ناحية مجال
يقول: مللتُ أنعاماً وبُهماً
وإنساناً أريد، فهل يُنالُ؟



ويطرح بدوي الجبل رؤية اشتراكية طريفة للمصباح، فيقول لحبيبته مي:

املأي المصباح زيتاً واتركي
لعبيد الوهم نور الكهرباء
كوخنا يا مي في هذي الربى،
لا تساميه قصور الأمراء

ويتألق محمود درويش في توظيفه لرمزية المصباح دون افتعال مقتحم، فيقول:

قصائدنا بلا صوت، بلا طعم، بلا لون..
إذا لم تحمل المصباحَ، من بيتٍ إلى بيتِ.
وإن لم يفهم « البسطا» معانيها
فأولى أن نداريها،
ونخلد نحن للصمتِ.

ويتعامل العراقي أحمد مطر مع المصباح كجزء غير ملاحظ في الحياة اليومية فيحكي عن الباب في قصيدة له بعنوان « حديث الأبواب»:

في ضوء المصباح،
المعلَّق فوق رأسه..
يتسلى طوال الليل بقراءة كتاب الشارع.

أما سوزان عليوان، فاكتفت بأن تسمي ديواناً كاملاً لها: «مصباح كفيف»، وتشير فيه إلى أيقونة المصباح التي يستخدمها شعاراً له أحد برامج المحادثة الإلكترونية الشائعة.

ومن أبيات الشعر الفصيح التي أعطى بعضها للمصباح حقه وخذله البعض الآخر، ننتقل إلى نماذج من الشعر الغنائي تناولت المصباح -أو القنديل تحديداً- وفيها نرى ارتباط القنديل بالحزن والوحدة، النموذج الأول يطرحه عبدالحليم حافظ فيقول في أغنيته «ضي القناديل»:

ضي القناديل والشارع الطويل،
فكرني يا حبيبي، بالموعد الجميل.
في سواد الليل والطريق وقلبي،
تحت القناديل نشكي.. والضي العليل يبكي.

فيروز، في السياق نفسه، غنّت « ضَوّي يا هالقنديل»، وموال « دقيت». من كلمات الأولى:

عالقمر هُوّي وغايب
ضوّي يا هالقنديل
عالبيت النَّاطر غنِّية
عاغربةْ قلب الصبية
عضِياع الليل المنسيّة
ضوي ياهالقنديل.

وتقول كلمات الموال:

دقيت دقيت وإيدَيّ تجّرحوا
وقنديلكم سهران ليش ما بتفتحوا
مدري أنا ماعدت أعرف بابكم
مدري نقل بابٍ لكم من مطرحُه.



فانوس رمضان

الفانوس التقليدي الذي أجهزت عليه الإنارة الكهربائية فاختفى من حياتنا اليومية تماماً، يعود في الموسم كل سنة ليملأ دنيانا، وتحديداً طول شهر رمضان المبارك. فنراه في إعلانات المعايدة وعلى البطاقات وقوائم الطعام في المطاعم، وعلى شاشات التلفزيون، ومجسماً عند مداخل المباني والشوارع...

وعلاقة المدينة الإسلامية بالفانوس علاقة قديمة جداً. فمما نقله إلينا المؤرخون أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عندما حج إلى بيت الله الحرام، أمر ضمن أعمال التجديد التي أمر بها، بإضاءة الصفا والمروة ووضع مصابيح تنير هذا الطريق. وإن كنا لا نعلم شيئاً عن طراز هذه المصابيح فإنها كانت على الأرجح فوانيس، لأنها الأنسب للإنارة الخارجية.

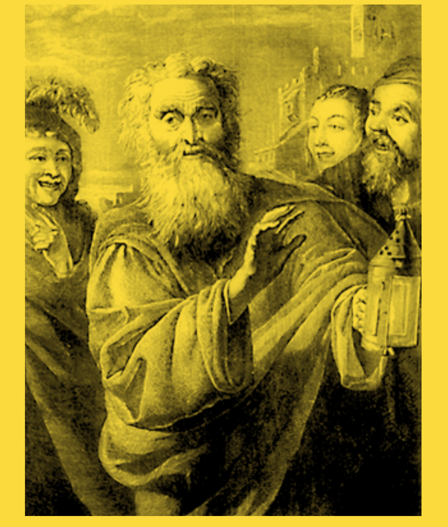
أما بداية التصاق الفانوس بشهر رمضان المبارك، وتحوله إلى رمز رمضاني فتعود حسبما يروى إلى رمضان العام 358هـ عندما دخل المعز لدين الله الفاطمي مدينة القاهرة ليلاً، فاستقبله أهلها بالمشاعل والفوانيس، فأمر بإبقاء هذه الفوانيس مضاءة ليالي هذا الشهر. ثم تحول الأمر إلى عادة سنوية تسهيلاً لتحرك الناس وللنشاط التجاري في الأسواق الذي كان يمتد خلال شهر رمضان إلى وقت متأخر من الليل. فصارت الفوانيس تضيء الشوارع من الغروب إلى الفجر، حتى ظهور الكهرباء والمصابيح الكهربائية.

خلال القرن العشرين، عمت الكهرباء كل المدن الإسلامية وصولاً إلى أفقر أحيائها الشعبية، وقضت على وظيفة الفانوس. ولكن الفانوس عوض من خسارته هذه بتحوله إلى رمز. حتى أن تحويله إلى فانوس كهربائي لم يتمرد على شكله التقليدي بل حافظ عليه. فصار يستخدم في بعض الأماكن مثل المطاعم والمقاهي ومداخل المباني.

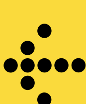
وحتى اليوم لا تزال مكانة الفانوس الرمضاني تتعزز سنة بعد سنة. فالناس يحبون رمزه وما يهمس به، ويرون فيه أداة تسمح لهم بتمييز ليالي حياتهم اليومية خلال هذا الشهر المبارك عن باقي أشهر السنة.



مصباح ديوجين



ديوجين كما تخيله الفنان الإيطالي سلفادور روسا



ديوجين فيلسوف يوناني ولد حوالي العام 412 قبل الميلاد، وتوفي عام 323 قبل الميلاد، وعاصر الإسكندر المقدوني. وتروي أسطورة شهيرة أنه كان يحمل مصباحاً في رائعة النهار، ويعلن أنه كان يبحث عن الإنسان، وهناك رواية ثانية تقول إنه كان يبحث عن «الحقيقة». حول ديوجين ومصباحه كتب العلامة الدكتور إحسان عبَّاس، يرحمه الله، المقالة الآتية:

كان ديوجين كلبياً. والكلبي -في التعريف البسيط- هو الذي لا يُعجبه العجب، ولا الصيامُ في رجب. وكان يحمل مصباحه في رائعة النهار، فإذا سُئل لِمَ يفعل ذلك قال: بحثاً عن رجل. ولعله إمعاناً في السخرية والنكاية، كان يحمل مصباحه دون زيت أو فتيلة.
لم يعد مصباح ديوجين ضرورياً، لا لأن ذلك الفيلسوف الساخر قد أخفق، ولا لأن «الكلبية» قد فقدت وجودها، ولا لأن «الرجل» المفقود قد وُجد، بل لأسباب أخرى أبسط من هذه بكثير، منها أن الناس غدَوا أعقل من ديوجين، وأصبح وقتهم أثمن من وقته، فهم لا يحاولون تبديد جهودهم في البحث عن «شيء» لا يحقق الثراء والغلبة والقوة المتحدية، ولو كان ذلك بإلغاء الإنسان نفسه، ومنها أن العصر قد اتسع صدره للإنصاف والمساواة، فلم يعد البحث عن «الرجل» مستساغاً مقبولاً أو جائزاً معقولاً دون البحث عن «المرأة» -بحسب قانون التساوي-، ومنها أيضاً أن مصباح ديوجين نفسه -ولعله كان من قصدير رخيص أو توتيا جاسية- لم يعد صالحاً في عصر التقنية الجديدة والتقدم العلمي، بل أصبح عاراً على حامله ودلالة تخلف.
لكل ذلك يجد العصر نفسه في حاجة إلى مصباح من نوع جديد، وإلى البحث عن شيء آخر يستحق أن يُطلب، ولو كان بين طوايا الأرض أو في جنبات الفضاء. أما «المصباح» فقد وجد، ولكن ما هو ذلك الشيء الذي يراد البحث عنه؟ جواب ذلك عند «المصباح».

افتتاحية عدد مجلة «المصباح» الأول، في بيروت، 22 أغسطس 1980م

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

آية ٣٥ من سورة النور



المشكاة

على الرغم من أن المشكاة استخدمت لإنارة المساجد منذ صدر الإسلام، لم يصلنا من المشكاوات (أو المشاكي) ما يعود إلى قبل الدولة الأيوبية. أما أفضل المشكاوات التي نعرفها اليوم، فهي التي صنعت في مصر وسوريا في عصر دولة المماليك، وهي لا تمثل أرقى أشكال صناعة المصابيح على المستوى الجمالي في كل الثقافات والحضارات فقط، بل قمة من قمم الفنون الإسلامية أيضاً، ولا يتوانى بعض الخبراء والذواقة عن وضعها على قمة إبداعات الحرفي المسلم على مر العصور.

شكلها وصناعتها

تتألف المشكاة عادة من ثلاثة أقسام هي الرقبة والبدن والقاعدة، تضاف إليها من الخارج خمس أو ست حلقات لتعليقها بواسطة سلاسل أو حبال بالسقف. وفي حالات نادرة كانت المشكاة تزخرف بأشكال مستوحاة من النبات والزهر، أما الغالب فهو زخرفتها بكتابات وفق أصول ثابتة. فعلى الرقبة كانت تُكتب عادة سورة النور، وعلى الرقبة أيضاً كان يرسم شعار الأمير أو السلطان الذي أوصى بصنعها. أما البدن فيحمل عادة مباركة صاحب القطعة. فيما القاعدة الصغيرة لا تتسع عادة لأية زخرفة مهمة. ويبلغ ارتفاع المشكاة عادة ما بين 30 و35 سم وقطرها ما بين 17 و27 سم.

كانت المشكاوات تصنع في ورش عالية التخصص، حيث يصهر رمل الصوان في الفرن، ثم تنفخ عجينته وتصاغ بشكل مشكاة، وتبرد ببطء لتلافي الكسر. وبعد أن يبرد الزجاج يُزخرف بالميناء والذهب. وكان الميناء يُحضَّر بسحق الزجاج الملون وتذويب المسحوق الناتج في محلول، وبعد طلاء الزجاج بالميناء، تشوى المشاكي بالفرن مرة ثانية حتى يلتحم الميناء بالزجاج ويذوب فيه، وبعد ذلك تكرر العملية مرة أخرى مع محلول الذهب.

ولا يمكن للمرء أن يتخيل جمال الزخرفة في مشكاة مضاءة ومعلقة على ارتفاع مترين أو ثلاثة أمتار عن سطح الأرض في مسجد ذي إضاءة خفيفة.

مشكاة باسم السلطان حسن، في متحف اللوفر

التحفة التي فتنت العالم

اكتشف الأوروبيون المشكاة من خلال الحملة الفرنسية على مصر، وعلى أيدي المستشرقين (واللصوص) الذين ظلوا يتدفقون على مصر والمشرق العربي طول القرن التاسع عشر.

نُهبت مشكاوات المدارس المملوكية، وخاصة مدرسة السلطان حسن بالقاهرة، التي كانت ولا تزال تعد من جواهر فن العمارة في عهد المماليك. فالمشكاوات الثلاث التي يضمها متحف اللوفر في باريس والتي جمعها من كبار المقتنين الفرنسيين هي واحدة باسم السلطان ناصر الدين حسن، وواحدة باسم منجك سلاحدار السلطان، وواحدة باسم الأمير سيف الدين شيخو قائد جيوشه.

ألهبت هذه المشكاوات خيال الأوروبيين الذين رأوا فيها فورا عبقرية الإبداع والشكل والصنعة. ولأن عدد كبار الأثرياء الذين تهافتوا على اقتنائها كان أكبر بكثير مما يتوافر منها في سوق التحف، راحت مصانع الزجاج الأوروبية تقلِّدها معتمدة التقنية نفسها.



مشكاة صنع النمسا سنة 1880م، تقدر قيمتها بنحو 40 ألف دولار

كان التقليد واضحاً لا سيما في النصوص غير المكتملة والتي نسخها الحرفيون عما رأوه في المتاحف أو عما رأوه في رسوم المستشرقين. وبعض المقلِّدين اكتفى باعتماد الشكل والتقنية دون الزخرفة التي استبدلها بزخرفة أوروبية. ومع ذلك يحتفي سوق الفن اليوم بأية مشكاة صنعت في هذه الورش الأوروبية، وتقدر قيمة الواحدة منها بما يراوح بين 20 و40 ألف دولار أمريكي. أما المشكاوات المملوكية الأصلية فلا تقدر بأي ثمن دون الملايين.

مشكاة مقلَّدة في فرنسا في القرن التاسع عشر، وبلغ سعرها حوالي 30 ألف دولار

«ولا دومري»

مُشْعِل الفوانيس

في المدن القديمة، كانت الخدمات البلدية في الليل، محصورة في مهمة الحراسة والإنارة حتى منتصف الليل، وأحياناً حتى الساعة الثانية فجراً. وكانت مدن السلطنة العثمانية مثل غيرها من المدن، توظف حراساً ليليين، يتولون مراقبة الشوارع إلى ساعة معلومة، وينيرون المصابيح التي كانت تعمل بالشحوم أو الزيت، ثم الغاز، ويطفئونها منتصف الليل.

كان الحارس الليلي الذي يكلَّف إنارة المصابيح، يحمل عصا طويلة، فيها مشعل، يضيء بها المصباح إذا كان مملوءاً زيتاً أو شحماً، وبها يطفئه. وكان الحارس يسمى الدومري، أي مُشعِل الفوانيس.

ولما كان الدومري في المعتاد آخر الذاهبين إلى النوم، من الناحية النظرية، فإنه كان يبقى وحيداً بعض الوقت ليلا، فلا تجد غيره في الشارع.

ولذا قال أجدادنا، حين كانوا يريدون أن يصفوا شارعاً خاوياً تماماً من الناس والمارة: «ما فيه ولا دومري». أي ان الأمر أشبه بخلو الشارع في ساعات الفجر الأولى، حين يكون الناس جميعاً نياماً... حتى الدومري.



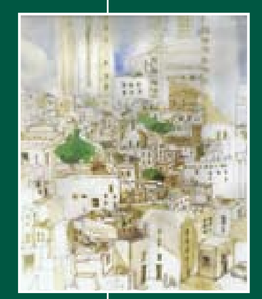


فطور الصباح!
يزوّدك ولا يزيدك

وجبة الفطور الصباحية مهمة جداً للنشاط والطاقة اليومية
والجسم يستهلك كل قيمتها الغذائية خلال النهار







القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
مارس - أبريل 2008
المجلد 57 العدد 2

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com